

د. جعفر شهيدى

حياة السيدة

عليها السلام

فاطمة الزهراء

السيدة
فاطمة الزهراء

دار الفکر للطباعة



مكتبة نرجس PDF
www.narjes-library.blogspot.com

حياة السيدة

فاطمة الزهراء^(ع)

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

دار الهدى
للطباعة والنشر والتوزيع



هاتف: ٥٥٠٤٨٧ / ٠١ / ٨٩٦٣٢٩ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦ / ٢٥ غبيري - بيروت - لبنان
Tel.: 03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199 - P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: <http://www.daralhadi.com>

حياة السيدة

فاطمة الزهراء^(ع)

تأليف

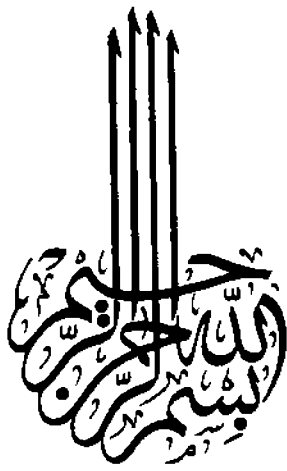
د. جعفر شهيدى

ترجمة

رياض الأخرس

دار الفکر للطباعة والنشر والتوزيع

للمطبعة والنشر والتوزيع





موضوع هذا الكتاب هو لمحة خاطفة عن حياة أبنة النبي المصطفى ﷺ، سيدة نساء الإسلام، فاطمة - أو فاطمة الزهراء ﷺ - ولكن القارئ الكريم سوف يرى أنَّ ما جاء في هذا الكتاب ليس فقط مروراً على سيرة حياة شخصية وخاصة، بل هو مرور على حوادث مليئة بالحكم والعبر... مع أنَّ تاريخ حياة الشخصيات الكبيرة واللامعة في عهدها هو بحد ذاته أيضاً درس مليء بالحكم والعبر المفيدة.

إنَّ ما نقرؤه في هذه الصفحات هو تحليل للعديد من الأحداث العجيبة التي حدثت قبل قرون من يومنا هذا.

ولكن لو فصلنا أبطال تلك الحوادث عن الحوادث نفسها؛ فسوف نرى أنَّ تلك

الحوادث قد حدثت على مَرّ التاريخ، وتحدث في زاوية ما من هذا العالم؛ وإذا كان زمان ومكان هذه الحوادث التي نتكلم عنها بعيداً عنا كثيراً، فإنّ الآثار التي تركتها لا تعتبر قديمة، وليس هذا وحسب، بل واحتفظت بحدائثها أيضاً. وأنت أيضاً بعد قراءة هذا الكتاب ستكتشف أنّ ما أقوله ليس عبثاً ولا إغراقاً.

ما هي تلك الحوادث؟

لقد نشأت بعد وفاة نبي الإسلام حركتان متضادتان في المدينة -التي هي مركز استقرار ونشر دين الإسلام-:

١- الحركة الأولى: وكانت تسعى لمتابعة السير على طريق نبي الإسلام عليه السلام في طريقة إدارة المجتمع الإسلامي، وبعبارة أخرى: كانت تريد أن تكون حامياً لسنة رسول الله عليه السلام.

٢- الحركة الثانية: كانت تعتقد برأيها أو باجتهادها الشخصي أنّه من الضروري التجديد في النظام السياسي، وأحياناً في النظام الحقوقي الديني، مع تقدم الزمن، وكانت تعتقد أنّ المتبعين للسنة لا يدركون الواقع كما يجب، وهذا التغيير -الذي تراه- يتناسب مع متطلبات العصر ومنافع المسلمين، ويؤدي إلى تقوية القدرة المركزية، وحفظ وحدة الإسلام.

ولو أردنا أن نصوغ هذا المعنى بعبارة أخرى أكثر وضوحاً، فيجب القول: أن حركة كانت تريد أن يكون مسير الحكومة وفقاً للخطة التي رسمت لها في عهد الرسول عليه السلام. وحركة أخرى كانت تعتبر أنّ استقرار النظام السياسي الجديد ضروري -حتى ولو لم يكن مطابقاً للسنة النبوية الراجعة آنذاك-.

واليوم أيضاً، وبعد مضي أربعة عشر قرناً على تلك الحادثة، لكل من هاتين الحركتين

مؤيدون من المسلمين وغير المسلمين، الشرقيين والغربيين.

فاطمة عليها السلام، وزوجها، وأهل بيت النبي، والعديد من أصحاب هؤلاء كانوا من قادة ومؤيدي الحركة الأولى، و«الأكثرية من المهاجرين، وأقلية من الأنصار» كانوا قادة الحركة الثانية.

ومع أننا سوف نرى في هذه النبذة التاريخية بأن حوادثاً متتالية أرغمتها - مع كونها من رواد حركة الملتزمين بسنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم - على أن تطلع هؤلاء الذين خرجوا عن منهج السنة النبوية، أو الذين يريدون التجديد، حول العاقبة السيئة التي لمسيرهم، وذلك في خطب لها، مليئة بالنصح، والإعتراض على عملهم، وعدم الرضى به، والتفريع لهم على ذلك.

وخلافاً لما كتبه بعض الكتاب، وربما لظاهر بعض الروايات التي تؤيده أيضاً، فإن ما قالته، وما فعلته في ذلك اليوم ليس له صفة رد الفعل الشخصي.

لم يكن الحديث يومذاك، ولا اليوم ولن يكون حول الشخص الذي تولى زمام أمور المسلمين في السنة الخامسة والثلاثين للهجرة، وأنه كان من المفترض أن يصل للخلافة في السنة الحادية عشرة. ولا حول أنه لماذا أخذت تلك الأرض أو المزرعة (فدك)؟ وما الأرباح التي تعطيها؟ ولا حول أنهم لو منعوا تلك الأرباح عن صاحبها، فما هي الغرامة التي يتوجب عليهم دفعها له؟ أو عن أي طريق سيستطيع تأمين لقمة العيش لأولاده؟

إنّ التدقيق في المصادر والمستندات التاريخية الأولى، وفي خطب علي عليه السلام وفاطمة عليها السلام وأولادهما، والتعرف على أسلوب الحياة الذي كانوا عليه يوضح بأن

الشيء الذي لم يكونوا يفكرون فيه هو السلطة والمال.
 وأصل نشوء النقاش والجدل هو أنه إذا تغير نظام عادل وأصل ثابت لصالح مجموعة خاصة، فمن الذي يضمن أن لا يحصل تغيير لأصول أخرى في اليوم أو في الغد؟ وأن لا تنشأ من جراء ذلك مشكلة تلو أخرى؟ إلى أن ينهار النظام دفعة واحدة، وتفقد قوانينه ومقرراته أصالتها.
 لم يمض أكثر من ربع قرن على صيحة الاعتراض تلك حتى فهم ذلك الجيل هذه الحقيقة، ورأى بأم عينه نتائج وعواقب ذلك العمل الذي أدى إلى انتهاك السنة الشريفة، ولكن بعد أن فات الأوان، وانتهى الأمر.
 ولم يمض أكثر من نصف قرن حتى تغير النظام السياسي والقوانين المدنية والحقوقية، والتي كانت حصيلةً لجهاد وسعي وتضحيات كثيرة دفعة واحدة.
 وتحول أسلوب الحكومة الإلهية إلى أسلوب عهد الجاهلية، وأصبح زمام الأمور بيد أسرة كان لها قبل الإسلام على العرب أفضلية مالية، وأحياناً نفوذاً سياسياً.

وليس لهذا الكتاب الذي بين أيدينا أن يحلل هاتين الحركتين، ويحكم حول نهج وسلوك رؤساء هاتين النهضتين، أو أن يحكم حول تلك المجموعة من المسلمين التي كانت تعيش في تلك الفترة المليئة بالفتن والاضطراب.
 الآن وقد مضت قرون عديدة على تلك الحادثة، كتبت مئات الكتب، وعشرات المقالات حول أحقية إحدى الحركتين وبطلان الأخرى، وألقيت آلاف الخطب حول ذلك أيضاً.
 ولكن لما كانت إحدى الفئتين لا تريد أن تسلم بمنطق الأخرى، فإن البحث والجدال

ما زال يمتلك حدائته. ولو أنّ مثل هذه الأبحاث كانت تصل إلى نتيجة أو أنّ النتيجة الحاصلة عنها تقبل من باب الإنصاف لكان من الواجب أن تنتهي المشكلة من الأيام الأولى.

لماذا يجب أن لا يصل ذلك الاختلاف والاختلافات المشابهة الأخرى إلى نهاية؟ هذا بحد ذاته محل بحث مستقل.

ومع الأسف، فأنا لا أملك ذلك التسامح أو تلك الرؤية العرفانية حتى أقول بأن هذه التناقضات صورية، وسطحية؛ والسنة الإلهية الجارية أرادت ذلك من أجل بقاء العالم!!.

لأن القضاء الإلهي قضى باستمرار ذلك النهج كان يربي هؤلاء جميعاً بمنحهم الأدلة على حقانيتهم.

لكي لا يتمكن الخصم من إلزام خصمه، ولكي يبقى محفوظاً عن غلبة الخصم.

تستمر هذه الفرق الاثنتان والسبعون مستمرة في العالم إلى يوم القيامة. (١).

وفي النهاية لا بد للحركات من أن تصل إلى نقطة محددة، وسوف ينتقل المتمسكون بالسنة، والمتجاوزون لها كلاهما إلى جوار رحمة الله تعالى، ولا أجد في نفسي مثل هذه الصلاحية، ولا الواجب الذي جعلته على عاتقي يسمح لي بمثل هذه الإجازة. الأشخاص الذين يأخذون على عاتقهم مهمة البحث والتحقيق في التاريخ ليس أمامهم سوى أن

يطالعوا الأسناد والوثائق بكل دقة، وأن يتبعوا ما وصلهم من الروايات المختلفة، ثم مقارنتها مع بعضها البعض، وفي النهاية جرح واحدة وتعديل أخرى. ولا حيلة أمام الراوي سوى أن يكتب ما حصل، ثم أن يخلص للحكم على الأحداث اعتماداً على الأسناد والقرائن المختلفة الموجودة حولها، وأن يقوم بكشف وتعرية نقاط الانحراف - إن وجدت - فيها. في مثل هذه الحالة فقط سوف تظهر الحقيقة.

ولكن كيف تقبل تلك الأسناد؟

وكيف نقوم بتصنيفها؟

وبأى ميزان ومعيار نقيسها؟

هذا عمل شاق بحد ذاته .

لقد مضى على يوم حصول الحادثة إلى أن قام المحدثون والمؤرخون بكتابتها وتسجيلها وتدوينها صيانة لها عن النسيان والتصرف بعبارتها، وغير ذلك مما قد يعرض لها، ما يقرب من مائتي سنة أو أقل من ذلك بقليل. في ذينك القرنين من الزمان الذين فصلنا بين حصول الحادثة وتدوينها وقفت سياسات قوية - وكل منها كانت تحنضن أحزاب وفرق تحت غطاءها أو تبعاً لها - في وجه بعضها البعض أو أنها تعاقبت سياسة في أثر أخرى.

أولئك الذين يعرفون تاريخ صدر الإسلام حتى أواخر القرن الثالث الهجري يعلمون جيداً أن تزوير ووضع الرواية والخلط والتدليس فيها، ومحو الحديث أو تفسيره أو تأويله بنفع جهة خاصة، وإبطال دعوى الطرف المقابل كان عملاً شائعاً ورائجاً.

كانت الفرق المرتبطة بالسياسة الأموية، وسياسة الخوارج، وسياسة العباسيين، والفرق المقابلة لهم، عبارة عن مسلمين جدد جعلوا من النطق بالشهادتين، والإقرار بالتوحيد، ونبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وسيلة للحفاظ على أرواحهم، وقاموا في السر بتوجيه الضربات لأساس الدين، وأصوله.

كم تلاعب أساتذة وزعماء المدارس الفكرية الذين كانوا يهدفون في حلقات تدريسهم فقط إلى إبطال كلام الطرف المقابل لهم، خلال هذه المدة الطويلة بهذه الأسناد؟ الله وحده هو العالم!
هذا هو حال الأسناد السياسية.

وأما القصص التاريخية والروايات التي تبين ولادة أو وفاة إحدى الشخصيات، فقلما رويت الأحداث فيها بشكل واحد، وذلك بسبب اعتماد الرواة في هذا النوع من التقارير على الحفظ في ذاكرتهم.

ما العمل في مثل هذا الظروف؟

بذل الكاتب وسعه في هذا الكتاب بقدر ما أمكنه لتكون كتابته طبقاً للمصادر والأسناد التي من الدرجة الأولى أو أنها قريبة منها، وذلك لأن احتمال التزوير والتدليس في مثل هذه المصادر والأسناد أقل^(١). كما سعى أيضاً بما أمكنه لمطابقة الروايات والتقارير مع القرائن الخارجية، وفي النهاية قبول وانتخاب القول الذي قبله الجميع، أو الأكثرية منهم، أو أنهم أيده بنحو من الأنحاء.

ومع كل ذلك لا أقول أن ما كتبتُه هو الحقيقة التي حصلت فعلاً على أرض الواقع الخارجي، لأن تلك الحقيقة لا يعلمها أحد غير الله تعالى.

- لكن ليس معنى هذا الكلام أن الكاتب لم يطلع على ما كتب حول حياة النبي ﷺ من قبل الآخرين، وكما سي شاهد القراء في قائمة المصادر فإنني قد نظرت في أغلب ما كتب في هذا المجال.



أيها القارئ الكريم الذي يقضي وقته الآن بقراءة هذا الكتاب! هل قرأت وطالعت تاريخ وجغرافية شبه الجزيرة العربية؟ ولا أقصد من "شبه الجزيرة العربية" مدينتي "مكة" و"المدينة" والمناطق المأهولة والمعمورة على ساحل البحر الأحمر، ولا أقصد "اليمن السعيد" أيضاً؛ بل أقصد تلك الأرض الممتدة بين وادي حَضْرَمَوْت وصحراء نفود من جهة، وصحراء الدهناء ووادي الدواسر من الجهة الأخرى، وهي الأراضي التي تصل مساحتها أعظماً إلى مليونين

وستمائة ألف كيلومتر مربع، ولا تزال على حالها دون أي تغيير على الرغم من مرور القرون عليها.

وهي أرض عجيبة! وتبعث على العجب والذهول! من جهة هي صحاري وبوادي جافة ومنعزلة عن العالم المعمور والمأهول، وخالية من السكان بشكل مدهش، ومن جهة أخرى هي سلسلة من الجبال الجرداء القاحلة من جراء سطوع الشمس المستمر عليها، وبقايا البراكين القديمة في الأزمان الغابرة. كل ذلك جعل منها تركيباً ونسيجاً غريباً، ومثيراً في الوقت ذاته.

في فصل الصيف لا يمكن لأي إنسان أو كائن حي عادي البقاء في هذه الجحيم الحارقة لمدة طويلة، ولو أن رحالة مغامراً وطأ تلك الأرض في فصل الشتاء، أو في أوائل فصل الربيع، ووصل بعد اجتياز فراسخ كثيرة إلى مكان هطل فيه المطر في الليلة السابقة، أو قبلها، وتجمع الماء الهاطل المتبقي في حفرة، فمن المحتمل أن يشاهد إلى جانب تلك الحفرة أسرة ومعها بعير أو بعيران؛ هؤلاء هم نموذج الكائنات التي تعيش في تلك البوادي. يتميز هؤلاء الناس (أي أعضاء تلك الأسرة) بسواد السحنة والخشونة والقوة في البدن، ويلقب واحدهم بـ "البدوي" ويقال لهم في العربية المتداولة "بدو". حيوان هذه الصحراء، ووسيلة التنقل والحمل الأكثر مراساً وتحملاً من الإنسان هو ما يسمى بـ "الجمال".

هذان الكائنان الحيان فقط هما من يستطيع التغلب والانتصار في ساحة المكابدة والمكافحة في هذه الصحراء.

نباتات هذه الصحراء هي عبارة عن أشواك على هيئة شجيرات صغيرة تلتف الريح على أغصانها ليلاً محدثة دويماً وصوتاً مخيفاً، ولهذا تصور سكانها أن الغول يسكن تحت تلك الأشجار، وأن ذلك الدوي هو صوت أبناء الغول، ولهذا سموا تلك الشجيرات الشوكية بـ "أم غيلان"، وبالتخفيف صارت "مُغيلان".

شجرة الصحراء (في الواحات، وعلى ضفاف الماء) هي النخلة التي هي بين الأعشاب والنباتات مظهر ورمز المقاومة، وتحمل انعدام الماء.

صمود الناس للبقاء يجد في مثل تلك الظروف الصعبة هو علامة على سعيهم وجهودهم المتابعة والمتوالية في مواجهة الصعوبات والعقبات الطبيعية: الكفاح للبقاء على قيد الحياة وضرورة الحصول على الشيء الذي هو سبب البقاء على قيد الحياة، وهو في الآن نفسه أساسي لحياة الحيوان والنبات فضلاً عن الإنسان، ألا وهو الماء!.

كل عدة أيام يضع البدو الرحل متاعهم البسيط الذي لا يزيد عن عدة قطع من الشحم المخلوط بوبر البعير أو عدة حبات من التمر اليابس! يضع البدوي هذا المتاع على ظهر ذلك الحيوان الصبور -الجمل- كما يضع أحياناً زوجته وأطفاله الصغار فوق ذلك المتاع، ثم يطوي الطريق عبر تلك التلال الرملية الحارقة، فيعبر الصحراء والجبال الجرداء إلى أن يصل إلى وادٍ تجمع فيه شيء من الماء.

أي ماء؟ ماء متجمع في حفرة، وقد سبقته إليه الطيور والديدان. ومع ذلك فإنه يفرح لرؤية هذا الماء الذي هو عنصر أساسي وحيوي للحياة، فينزل متاعه عن ظهر البعير، ولكن يا للأسف فإن فرحته لن تدوم، فسرعان ما يظهر في الأفق مزاحم آخر، إنسان بائس يبدو من تشقق أقدامه والغبار المتجمع على جبينه الذي لفحته الشمس أنه يتحرك باحثاً عن نفس الشيء الذي وصل لتوه إليه، فينافسه على هذه النعمة التي هي الماء.

لم تُعَلِّم الصحراء، هذا المعلم القاسي، خلال القرون المتعددة أبناءها أكثر من درس واحد:

صراع البقاء!

سرعان ما يبدأ الاشتباك، ولا يمر زمن طويل حتى تتلون الأرض من دم إنسان بائس سيء الحظ، إنسان أراد بحكم الغريزة أن يبقى حياً، ولكن خصماً أقوى منه قد تغلب

عليه.

ولا يكاد هو ومن معه من زوجته وأطفاله والحيوان الذي يحمل متاعه عليه يبيل فمه اليابس من شدة العطش بالماء حتى يظهر في الأفق خصم أقوى منه مكشراً عن أسنانه باحثاً عن نفس العنصر الأساسي في حياته، وحياة من معه وهو الماء. ولكن في هذه المرة خصمه أقوى من الخصم الذي فرغ للتو من قتله، مما يعني أنه لن يتمكن من التغلب عليه أبداً.

ويرى بأم عينيه كيف بدأ الماء يتناقص وينخفض منسوبه عما كان عليه شيئاً فشيئاً وهكذا يستمر الماء بالتبخر والتصاعد نحو السماء إلى أن لا يبقى منه شيء سوى ماء عكر وضحل ومليء بالديدان في أسفل تلك الحفرة. أجل! لقد قامت الشمس بفعاليتها، وبخرت الماء، ولم تُبق منه شيئاً، فيجب الرحيل من هنا نحو مكان آخر.

قفوا! تحركوا! هذا هو الشيء الذي يترنم به البدو طيلة حياتهم الشاقة! صباحاً في مكان ومساءً في مكان آخر! وفي هذه الأثناء أي بين حزم الأمتعة وفكها. فجأة يتناهي إلى سمعه صوت ضعيف! ما هذا الصوت؟
بكاء طفل فتح لتوه عينيه على هذه الحياة المليئة بالمتاعب.

لقد انتهت زوجته من وضع حملها، وأضافت إلى هذا الجمع البائس طفلة أنثى! يا لها من تعاسة كبيرة! كان قلقاً من هذه المفاجأة دائماً!
أنثى! طفلة! هذه سبب التعاسة وطأطأة الرأس! هذه البنت الصغيرة تأكل جهدي. لماذا لم تلد زوجتي ذكراً؟

لو كان صبيّاً لكان نعمة! في طفولته يرعى الإبل، وعند كبره يقاتل معي الأعداء! ولكن البنت كائن ضعيف ومربك، والأسوأ من ذلك أنها سبب للخجل والعار! لماذا؟
لأنه لم ينس أنه قبل مدة كان قد اشتبك مع مجموعة، وقد أسر ابنتهم، وبذلك وسم

جبهة أبيها وأمها وقبيلتها بالعار إلى الأبد، فمن أين له بأن لا يحصل له كالذي حصل لهؤلاء؟

كلا! يجب التفكير بحل قبل أن يفوت الأوان، ويجب علاج المشكلة قبل أن تكبر! هذه البنت يجب أن لا تبقى حية؛ لثلا تسبب العار والخجل، يجب دفنها في أعماق التراب.
 ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ، أَيُمسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ، أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾^(١)
 لم يكن الخوف من الفقر والحاجة، أو الخوف من العار وتقريع الأقارب وحده هو الذي أجبره على هذا العمل القبيح، بل في بعض الأحيان كانت الخرافات، والعقائد التي لا مبرر لها هي التي تسبب وأد البنات، كما في حالة كون البنت التي يرزق بها صغيرة العينين أو سوداء البشرة، فإنه كان يتطير، ويتشاءم منها.

وقد عمل جمع من الأدباء والمؤرخين العرب في العصر الحاضر على تبرير هذا العمل بأنه نوع من العاطفة والحب، فقالوا: إنه لما كان الأب يحب هذه الفئة من الأبناء حباً شديداً، فإنه كان يئد البنات لثلا تتعرض كرامتهن إلى الأذى^(٢)، ولكن هذا التبرير لا أساس له من الصحة، ونحن نرى أن القرآن الكريم يقرع هؤلاء الناس: أنه لماذا تقتلون هذا المولود خوفاً من الفقر:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾^(٣)

ويقول في مكان آخر:

١- (النحل/١٦: ٥٩).

٢- بلوغ الأرب، ج ٣، صص ٤٢-٥٣.

٣- (الإسراء/١٧: ٣١).

﴿ وإذا المؤودة سُئِلت بأي ذنب قُتلت ﴾ (١)

أجل! أيًا كان الباعث على هذا العمل الشنيع، فإنه لا يقلل من شناعته وقبحه. وهؤلاء الناس كان لديهم تلك العادة، وكانوا يتصرفون مع بعضهم البعض بأسوأ من ذلك. هذا هو حال سكان الصحراء قبل ظهور الإسلام؛ وأما سكان المدن في شبه الجزيرة العربية، فلم تكن مشاكلهم أقل من سكان الصحراء، غاية الأمر أنها من نوع آخر. أعداد وجموع كبيرة من الناس البؤساء يعملون حتى يستفيد من جهدهم عدد من الأفراد الذين يقضون أيامهم بالنعيم والراحة، ويزداد مقدار ممتلكاتهم يومياً؛ في حين يزداد وضع جموع الناس بؤساً تحت ضغط أعباء الحياة. من الواضح والجلي أن أرضاً بهذا الوضع، وسكاناً من هذا القبيل، كم سيكون لهم من القيمة والاعتبار في أعين علماء الأجناس وعلماء المجتمع لو لم تظهر معجزة التاريخ في بداية القرن السابع الميلادي، ولو لم ينبجس فجأة ذلك النبع الفياض من النور في تلك الصحراء المظلمة، فلا شك في أنه لم يكن أحد ليفكر - في يومنا هذا - في وجود صحراء تسمى صحراء شبه الجزيرة العربية، فضلاً عن أن يعرف أنها تقع في جنوب غرب آسية، وأن موقعها التاريخي والجغرافي بهذا الشكل أو ذلك. إلا رحالة مغامرين يتمكنون من الانحدار من سلسلة جبال شبه جزيرة سيناء، ويقطعون الفيافي المقفرة واليابسة والقاحلة لـ "نجد" وأودية "تهامة" ويصلون إلى الصحراء المترامية الأطراف التي تدعى "نفود" أو إلى الصحراء التي تعرف بـ "الربع الخالي" وعلى أثر حادثة ما يقعون تحت تلال الرمال في نوم أبدي، إلا أن ينجو واحد من عشرات الأشخاص، بنفسه وروحه فيخبر الآخرين عمّا حصل للبقية.

لكن المصير والقدر أراد شيئاً آخر، يجب أن يعلو من هذه الأرض صوت ونداء مهم، وأن تكون البداية من مدينة صغيرة على مقربة من شاطئ البحر الأحمر، ثم من واحة على مسافة خمسمائة كيلومتر من هذه المدينة إلى الشرق من هذا البحر، ثم يملأ هذا النداء أنحاء وأرجاء شبه الجزيرة العربية، ويصل إلى إيران ومصر، وفي النهاية إلى قارة آسية، وقارة أفريقية، وفي خاتمة المطاف إلى كل أصقاع العالم:

أيها البدوي البائس! الصحراء معلم سيء، وأنت يجب أن تتعلم من الله! ليس شعارك هو ما اعتدت عليه وتطبعته به! أنت لم تُخلق للقتل! أنت خليفة الله، نور، ومحبة، وحياة، ولطف، ورحمة... أنت حي لغيرك، والجميع: أنت والآخرون لله!
انس ذلك الدرس الذي تعلمته وتناقلته من صدر لصدر، أو تقليداً لسلوك ونهج الآباء!

هؤلاء أيضاً لم يكونوا معلمين جيدين! يجب أن تعرف أن الدرس لا يجوز تعلمه بالتقليد!

البنات أيضاً مثل الابن! كلاهما ينفعك ويفيدك! كلاهما نعمة الله! ويجب شكر الله على جميع نعمه، ولا يجوز تفضيل واحدة على أخرى!

أيها الناس! لماذا تتصرفون وتتعاملون مع بنا تكتم بهذا الشكل؟

لماذا تنظرون إليهن على أنهن سلع لا قيمة لها؟

من الذي أنجبكم ورباكم؟ ألم تتربوا في أحضان هؤلاء البنات اللواتي صرن أمهات؟ اعلموا أن البيت الذي تولد فيه بنت يرسل الله ملائكته إلى أهله ليقولوا لهم: "السلام عليكم يا أهل البيت!..."

« إذا وجد لرجل ابنة بعث الله ملائكة يقولون: السلام عليكم أهل البيت! فيكسونها بأجنتِهَا، ويمسحون بأيديهم على رأسها، ويقولون: ... القيم عليها يعانُ إلى يوم القيامة»^(١)

« من كانت له أنثى فلم يتدها، ولم يؤثر ولده عليها، أدخله الله الجنة»^(٢).

لكن هذه التعاليم السماوية التي كانت تُقرأ على أسماع هؤلاء الناس، أحياناً عن طريق آيات القرآن الكريم، وأحياناً بلسان الحديث الشريف، يجب أن تتوافق مع التعليم العملي حتى يزداد أثرها، والنموذج الأعلى والأسمى لهذه التربية العملية هو بنت النبي المصطفى ﴿عَلَيْهِ السَّلَام﴾.

والعجيب أن عدد بنات رسول الله ﴿عَلَيْهِ السَّلَام﴾ من زوجته الأولى خديجة أكثر من الأولاد، وأعجب منه أن أولاده لا يعيشون طويلاً، ويموتون في سن الطفولة.

وكما ذكرنا سابقاً؛ من وجهة نظر الحياة البدوية والقبلية، الذكر هو الذي يُحيي ذكراً أبيه، والذي لا يرزق بذكر، فاسمه سوف يُنسى، وكان يقال لمثل هذا الشخص "أبتر" وكان لقب حمق أهل مكة لمحمد ﴿عَلَيْهِ السَّلَام﴾: "الأبتر".

لن يبقى له اسم بعد موته؟ لأنه لا ابن ذكر له، يحل محله، وينوب منابه! كانت هذه عقيدة عميان القلوب من قريش.

لكن وفقاً للمشيئة الإلهية، ورغماً عن أنوف هؤلاء الذين طاش عقلهم وفكرهم واسودت قلوبهم، خلف النبي ﴿عَلَيْهِ السَّلَام﴾ بنتاً، كانت بكلامها وسلوكها ونهجها سواء في

١- كثر العمال، كتاب النكاح عن الأوسط للطبراني. [ج ١٦، ص ٤٤٩]

٢- كثر العمال، كتاب النكاح عن مسند أبي داوود. [ج ١٦، ص ٤٤٧].

حياتها الخاصة أم في مواقفها الاجتماعية كانت سر حديث أبيها، ورمز الإشارات القرآنية للأنايين والمغترين من أهل مكة: ﴿إن شانك هو الأبر﴾^(١).

يا محمد! اسمك خالد، والذي يشينك سيعيش مجهولاً وخاملاً، وسيموت كذلك.

كما أصبحت ذرية أبتته أيضاً رمزاً آخر لتلك البشارة حيث:

وعدت أطفاف الحق النبي المصطفى ﷺ أنه إذا مات، فلن يموت هذا السبق العظيم الذي قام به.

سوف أزيد من رونقك وشهرتك يوماً، وسوف أكتب اسمك وأحفره على الذهب والفضة.

سوف أصنع لأجلك منبراً ومحراباً، وسوف أمنع محبتي وأقطعها عن خاصمك وجفاك.^(٢)

وهكذا كان التقدير الإلهي أن يصب النبي محمد ﷺ كل المحبة الأبوية في حق الزهراء ﷺ، ليُعلم هؤلاء بهذه التربية العملية، أنهم يجب أن يحترموا ويُقدروا البنات تماماً كالأبناء الذكور!

١- الكوثر/١٠٨:٣.

٢- مثوي، الكتاب الثالث، نيكلسن، ص ٦٨ [المذكور هو ترجمة الأبيات الثلاثة المذكورة في الأصل].

السنا نقول أن أحد أقسام السنة النبوية التي يجب على المسلمين اتباعها هو سلوك وسيرة النبي؟ لذا يجب أن يرزق بنتاً، وأن يقوم بتربيتها، واحترامها لدرجة تجعل ذلك درساً لا ينسى لأتباعه، لكي لا يعتبروا هذا الكائن الذي هو سبب البقاء والتكاثر والنسل حقيراً وذليلاً.

ولكن هل كل تلك الحرمة والاحترام والتقدير الذي كان يظهره النبي ﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ لابنته كان لأجل تعليم الآخرين؟

لا، ليس الأمر كذلك! وسوف نتعرض بتفصيل أكثر لهذا الموضوع عند الحديث عن الشخصية والخصال الأخلاقية للسيدة فاطمة ﴿عَلَيْهَا السَّلَام﴾، وسوف يرى القراء الكرام أنها كانت أهلاً وجديرة بكل تلك المعاملة.

الشيء الذي أريد قوله هنا هو أن النبي ﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ وإلى جانب التعاليم القرآنية كان عليه أن يربي أتباعه عملياً.



كما نعلم، فاطمة عليها السلام هي بنت محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله، ونبية، نبي الإسلام، وأمها هي خديجة بنت خويلد.

ليس في أيدينا حول حياة خديجة قبل أن تتزوج من النبي صلى الله عليه وسلم سوى إشارات قصيرة ومقتضبة.

يشاهد اسمها واسم أبيها، واسم ابن عمها في المصادر الأصلية من الدرجة الأولى بين الحين والآخر، بمناسبة علاقتهم وارتباطهم ببعض الأحداث.

خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، من قبيلة معروفة، ومن ذوي المكانة

في قريش، وكان خويلد زعيم طائفته في زمن الجاهلية، وفي حرب الـ"الفجار" (١) الثانية، في اليوم المعروف باسم "شمطة"، والذي استعدت فيه قريش للحرب مع كنانة، كان خويلد رئيس طائفة أسد. (٢)
وقد ذكر أنه لما أراد "تتبع" أخذ الحجر الأسود إلى اليمن وقف خويلد (٣) في وجهه،

١- يقال لهذه الحرب "فجار"؛ لأنها حصلت في الأشهر الحرم، وقيل أنها سميت بهذا الاسم لعد بعض المحرمات حلالاً في تلك الحرب.

راجع: مجمع الأمثال للميداني، فصل أيام العرب؛ وأغرب الموارد؛ وسيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٠١؛ [ط بيروت - لبنان، دار إحياء التراث العربي، ج ١، ص ١٩٨] [ولفظه «وإنما سمي يوم الفجار بما استحل فيه من المحارم بينهم»].

٢- ابن الأثير، ج ١، ص ٥٩٣؛ وراجع أنساب الأشراف للبلاذري، ص ١٠٢، من طبعة دار المعارف؛ ولكن ابن سعد قال حول يوم زواج النبي ﷺ من خديجة: ... فهذا كله عندنا غلط ووهم، والثبت عندنا المحفوظ عن أهل العلم أن أباهَا خويلد بن أسد مات قبل الفجار؛ (طبقات، ج ١، القسم الأول، ص ١٨٥).

ولكن الميداني ذكر أن يوم شمطة هو يوم الحرب بين بني هاشم وبني عبد شمس، (مجمع الأمثال)، ولكن مع الأخذ بعين الاعتبار أن طرفي القتال في حرب الفجار هما قريش من جهة وكنانة من جهة أخرى، فإن ما ذكره الميداني يكون عارياً عن الدقة والصحة؛ كما أن قصة سُكر خويلد في يوم العقد على خديجة، وقبوله للزواج في أثناء ذلك، والتي تشاهد في بعض المصادر، لا أساس لها من الصحة! والذي يُستفاد من أكثر المصادر السنوية، وبعض المصادر الشيعية هو أن هذا الزواج تم بحضور ورقة بن نوفل، وعمرو بن أسد عم خديجة، والظاهر أن أباهَا خويلد لم يكن على قيد الحياة حينها.

٣- العقاد: فاطمة الزهراء، ص ١٠، ولم يذكر العقاد سنده. [المجموعة الكاملة لعباس محمود العقاد، ج ٢، العبقريات الإسلامية - ٢-، دار الكتاب اللبناني - بيروت، ص ٢٩٥؛

«... فأبوها خويلد هو الذي نازع تبعاً الآخر حين أراد أن يحتل الركن الأسود معاً إلى اليمن»].

وتتبع: هو لقب عام للملوك اليمن، وإذا كانت هذه القصة صحيحة، فإن هذا الشخص يجب أن يكون تبع الأصغر (حسان)، لكن المؤرخين خلطوا حوادث أزمان عدد من ملوك اليمن مع بعضها البعض.

وهذا الوقوف يدل على مكانته الممتازة في ذلك العصر.

وكان ابن عم خديجة ورقة بن نوفل من كهنة العرب، وكما ذكر فقد كان مطلعاً على كتب الأديان السابقة. ولما اضطرب الرسول الأكرم ﷺ عند نزول أوائل آيات الوحي أخذته خديجة إلى ورقة، وبعد أن سأله ورقة أسئلة عديدة، بشرّ خديجة بأنه سيكون نبي هذه الأمة. (١)

وكانت خديجة قبل ظهور الإسلام من نساء قريش المشهورات، والوجيهاً إلى درجة أنهم كانوا يدعونها بـ "الطاهرة" و"سيدة نساء قريش". وقبل أن تتزوج من الرسول الأكرم كانت زوجة أبي هالة هند بن نباش بن زرارة (٢)؛ وبعده كانت زوجة عتيق بن عائد من بني مخزوم (٣)، وقد رزقت من أبي هالة ولدين، ومن عتيق بنتاً، فكان

(راجع: تاريخ اليعقوبي؛ حبيب السير؛ ومجمل التواريخ؛ والفصص؛ وتاريخ كزیده)، ولكن بحسب تتبع المؤلف فإن هذا الملك (تبع) عظم الكعبة، وقام بتغطيتها بالستائر على أثر حلم رآه في نومه، وقد قالوا أنه أول شخص قام بتغطية الكعبة وإكسائها. وكان هذه القصة التي جاءت في سيرة ابن هشام نقلاً عن محمد بن اسحاق، ونقل الياقوتي قسماً منها في ذيل كلمة كعبة لا أساس لها من الصحة. والله العالم (راجع: سفينة البحار، ج ٢، ص ٦٤٣).

١- أنساب الأشراف، ص ١٠٦؛ ومصادر أخرى.

٢- الكتاب السابق، ص ٣٩٠.

٣- ابن سعد، طبقات، ج ٨، وقد ذكرت بعض المصادر أن زواجها من عتيق كان قبل زواجها من أبي هالة، (مقاتل الطالبين، ص ٤٨؛ كشف الغمة، ج ١، ص ٥١١) وفي مقابل هذا الرأي المشهور، ذكر ابن شهر آشوب في المناقب؛ والسيد المرتضى في الشافي؛ كانت خديجة عند زواجها من النبي عذراء، وأن التي تزوجت أبا هالة هي أختها، وقد قال ابن شهر آشوب أن أحد مصادره هو كتاب أحمد البلاذري (المناقب، ج ١، ص ١٥٩) وأحمد البلاذري هذا بحسب الأصول يجب أن يكون أحمد بن يحيى مؤلف كتاب أنساب الأشراف، وإذا كان الأمر بهذا الشكل فقد ذكر البلاذري نقلاً عن الإمام الحسين ﷺ: "سألت خالي هند بن أبي هالة" (وذكر في توضيح ذلك أن خديجة بنت

هؤلاء أخوين لفاطمة عليها السلام وأختاً لها من أمها.

بعد هذين الزوجين، ومع أنها كانت ذات جمال وثناء وكان الكثيرون يرغبون في الزواج منها إلا أنها لم تقبل بالزواج من أحد، وشرعت بالتجارة في أموالها إلى أن طلب أبو طالب من ابن أخيه [محمد] أن يعمل عند خديجة كبقية أقاربه، وأن يذهب من قبلها إلى تجارة الشام، وهكذا كان أن رغبت في الزواج من محمد عليه السلام بعد هذا السفر التجاري. وكما نعلم فإنها قبلته زوجاً لها. وكما اشتهر بين المؤرخين، ويؤيد ذلك السنة النبوية أيضاً كان عمرها حين زواجها من محمد عليه السلام أربعين سنة، ولكن مع الأخذ بعين الاعتبار عدد الأولاد الذين رزقت بهم من الزوجين السابقين، يمكن القول أن اختيار المؤرخين للعدد أربعين هو من جهة أنه عدد كامل.

وفي مقابل هذا القول المشهور يروي ابن سعد بأسناده عن ابن عباس أن سن خديجة عند زواجها من محمد عليه السلام كان ثمان وعشرين سنة. ^(١)

وأبناء الرسول عليه السلام عدا إبراهيم الذي ولدته جارية محررة اسمها مارية القبطية هم: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة عليها السلام، والقاسم، وعبدالله؛ وجميعهم من خديجة. وقد توفي القاسم في الثانية من عمره، قبل البعثة النبوية، ومات عبدالله ^(٢) في مكة قبل

خويلد كانت في البداية زوجة أبي هالة الأسدي [أنساب الأشراف، ص ٣٩٠]؛ وجاء أيضاً في ص ٤٠٦، من نفس الكتاب: "قبل أن تصبح خديجة زوجة النبي كانت زوجة أبي هالة هند بن نباش).

- ١- الطبقات، ج ٨، ص ١٠، ولفظه: «عن ابن عباس قال: كانت خديجة يوم تزوجها رسول الله عليه السلام ابنة ثمان وعشرين سنة»؛ وراجع أيضاً: كشف الغمة، ج ١، ص ٥١٣.
- ٢- ذكر بعض كتاب السيرة ومن جملتهم ابن هشام أن أولاد رسول الله عليه السلام الذكور من خديجة هم: ... بنيه: القاسم، ثم الطيب، ثم الطاهر. (السيرة، ج ١، ص ٢٠٦)، وذكر صاحب العقد الفريد أنهم: القاسم والطيب (ج ٨، ص ٩)؛ والبلاذري في (أنساب الأشراف، ص ٤٠٥) أن الطيب

الهجرة أما البنات فقد هاجرن إلى المدينة، وفارقن الحياة جميعهن قبل فاطمة عليها السلام. كانت خديجة أول امرأة آمنت بالنبي ﷺ، وعندما أظهر النبي دعوته ووقف أثرياء مكة في وجهه، وشرعوا بإيذائه وإيذاء أتباعه، كان أبو طالب يحمي ابن أخيه من أذى هؤلاء الأعداء الألداء، وكانت خديجة أيضاً تسانده وتبثه الهدوء والطمأنينة وتشد أزره في داخل البيت، ولهذا الخلق الإنساني الرفيع والخصلة الإسلامية الصادقة كان رسول الله ﷺ يذكرها بالخير دائماً ويقدرها ^(١).

ولدت فاطمة سيدة نساء الإسلام الكبرى من أبوين كهذين أي من محمد وخديجة! متى وفي أي تاريخ؟

إن يوم ولادتها، بل وحتى سنة ولادتها، ليس معلومان على وجه التحديد! أي أن المؤرخين لم يتفقوا على ذلك.

ومع أن تحديد وتعيين تاريخ ولادة ووفاة الشخصيات الكبيرة نساءً أكانوا أو رجالاً من الناحية التاريخية مهم، وحرى بالبحث، وسوف نتعرض نحن لذلك. ولكن مع ذلك فإنه من حيث تحليل ودراسة نفس الشخصيات ليس على درجة كبيرة من الأهمية لأن المهم من حياة الناس العظماء والاستثنائيين بالنسبة للأجيال التالية هو أن يعرفوا:

من كان هؤلاء؟ كيف تربوا؟

كيف عاشوا؟ ماذا عملوا؟

والظاهر هما لقباً عبدالله، لُقّب بهما لأنه ولد في الإسلام، وحدث الخلط بسبب عداهم اللقب اسماً.

ولماذا عملوا الذي عملوا؟

وماذا تركوا من أثر في محيطهم وبيئتهم وماذا خلفوا وراءهم؟

ربما يتساءل البعض أنه لماذا يجب البحث في هذا المجال؟ فمن المعلوم أنهم ولدوا

ذات يوم، وماتوا في يوم من الأيام؟

ربما يكون الحق إلى جانب هؤلاء، فمثل هذه الشخصيات لا تموت أبداً، وهي حية

مادام التاريخ حياً، لكن المؤرخ يعتبر أن تعيين وتحديد سنة الولادة والوفاة لمثل هذه

الشخصيات جزءاً من عمله ومهنته.

من جهة التزاماً بالسنة والتقليد الذي يرى المؤرخون وكتاب السير والتراجم أنهم

ملزومون باتباعها، ومن جهة لأن هذه التواريخ ترتبط بنحو من الأنحاء بكل تلك

الأحداث التي حصلت في حياة أبطال التاريخ.

في هذا الكتاب، إذا كان هناك ضرورة لمثل هذا العمل، يجب أن أقول أنه مع كل

الجهد الذي بذل إلا أنه - وللأسف الشديد - لا يمكن تقديم معلومات صحيحة ودقيقة

عن التاريخ الدقيق لسنة ولادة بنت النبي ﷺ.

وليس هذا هو الشيء الوحيد - تاريخ ولادة بنت النبي - الذي اختلف فيه

المؤرخون، فقد اختلفوا على تواريخ أئمة الدين المعصومين، بل وحتى على تاريخ

ولادة النبي ﷺ ووفاته، وفي جميع هذه الحالات لم يتفقوا على قول واحد.

لماذا حصل هذا الاختلاف؟

أجبنا باختصار عن هذا التساؤل في الفصل الأول.

لم يكن تسجيل الأحداث وكتابتها رائجاً وشائعاً، فكان الرواة يحفظون ما يسمعون،

وكان الناس يقبلون ما كان الرواة وشيوخ القوم يقولونه. كانت الأحداث المهمة أو

الأحداث الجديدة تصبح مبدءاً للتاريخ، وكانوا يجعلون منها مبدءاً لتأريخ وتحديد يوم

ولادة ووفاة الشخصيات الكبيرة. كما سمعنا نحن في حياتنا من المسنين والشيوخ: السنة التي التي حصل فيها السيل الفلاني، أو السنة التي تهدمت فيها المدينة الفلانية، سنة الغلاء، وهكذا.

من المعلوم أنّ الناس المعاصرين لهذه الحادثة، والذين حفظوا هذا التاريخ في ذاكرتهم لمدة فإنهم حفظوا هذا التاريخ وحسبوه على أساس تلك الحادثة التي تصبح بعد مدة هي نفسها في عداد المجهولات .

ذكر المؤرخون أن النبي ﷺ ولد في عام الفيل، وهو العام الذي جاء فيه أبرهة الحبشي إلى مكة بفيله لتخريب بيت الله والكعبة. كان عام الفيل معروفاً ومعلوماً لأهل مكة. أما بالنسبة لنا نحن الذين نريد أن نعرف متى حصلت هذه الحادثة، فإنها بحد ذاتها مسألة معقدة. ثم لو أننا قبلنا وصدقنا صحة هذه الأحداث التي تصبح مبدأً للتاريخ وعضضنا الطرف عن نسيان تاريخها الدقيق بالنسبة لنفس الشهود العيان الذين شاهدوها، فإن هذا التساؤل يطرح نفسه للبحث:

هل يمكن أن تبقى ذاكرة الرواة، مهما كانت قوية، مصونة عن الخطأ والغلط دائماً؟ وعلى فرض أن المجموعة الأولى من الرواة لم تخطيء، طيلة قرن من الزمان يتناوب ثلاثة أجيال، يحل كل منهم محل الآخر، فمن الذي يضمن أن يكون كل واحد من سلسلة هؤلاء الرواة من حيث قوة الذاكرة في غاية الكمال؟

فمدح اثنين أو عدد من الشهود الموثوقين لشخص ما بقوة الذاكرة ليس كافياً! هذا المدح ربما يكون من وجهة نظر علم الرواية أو علم الدراية، أو من جهات عمل الفقيه أو الأصولي دليلاً للقبول في بعض الحالات التي يترتب عليها أثر أو حكم، ولكن في الحالات التي لا يترتب عليها أثر عملي، فإن هذه الضوابط والمعايير ليست كافية.

هذان السببان اللذان ذكرناهما كافيان لحصول الاختلاف في ضبط الأحداث التاريخية، فكيف بإضافة أسباب أخرى عليهما، ومن باب الصدفة، وكما سنرى، فإن

الوضع على هذه الشاكلة في صدد الشخصية التي نتناولها بالدراسة والبحث. وفي حين أن عموم كتاب السيرة، ومؤرخو أهل السنة والجماعة يذكرون أن ولادة فاطمة (ع) كانت قبل البعثة بخمس سنوات، فإن كتاب التذكرة وعلماء الشيعة الكبار يعتقدون أنها ولدت في السنة الخامسة بعد البعثة. وقد قبل التاريخ الأول جماعة منهم: ابن سعد في طبقاته^(١)، والطبري في تاريخه^(٢)، والبلاذري في أنساب الأشراف^(٣)، وابن الأثير في كامله^(٤)، وأبو الفرج الأصفهاني في مقاتل الطالبين^(٥)، ومحمد بن اسحاق^(٦)، وابن عبد البر في الاستيعاب^(٧)، وجمع آخر، وذكروا عموماً أنه في السنة التي كانت فيها قريش تبني الكعبة. روى البلاذري:

«دَخَلَ العباس بن عبد المطلب على علي وفاطمة عليهما السلام وأحدهما يقول لصاحبه: أينا أكبر؟ فقال العباس: ولدت يا علي قبل بناء قريش الكعبة بسنوات، وولدت ابنتي^(٨) وقريش تبني الكعبة،...»^(٩)

وصرح الطبري وآخرون أن عمر الزهراء (ع) عند وفاتها كان في حدود التاسعة

١- طبقات، ج ٨، ص ١١.

٢- ج ١٣، ص ٢٤٣٤؛ وانظر أيضاً: ج ٤، ص ١٨٦٩.

٣- ص ٤٠٢.

٤- ج ٢، ص ٣٤١.

٥- ص ٤٨.

٦- طبقاً لنقل المجلسي في البحار، ص ٢١٤.

٧- ص ٧٥٠.

٨- أي فاطمة بنت رسول الله.

٩- أنساب الأشراف، ج ١، ص ٤٠٣.

والعشرين^(١)، لكنَّ اليعقوبي الذي يتفرد في أغلب رواياته ذكر أن عمرها عند الوفاة كان ثلاثة وعشرين عاماً^(٢)، وبناءً على ما ذكره يكون عام ولادتها هو عام البعثة النبوية.

في مقابل هذا الرأي المشهور ذكر علماء ومحدثو الشيعة من أمثال الكليني في الكافي^(٣)، وابن شهر آشوب في المناقب^(٤)، وعلي بن عيسى الإربلي في كشف الغمّة^(٥)، والمجلسي في البحار نقلاً عن دلائل الإمامة، وكتب أخرى^(٦) ذكر هؤلاء جميعاً أن فاطمة الزهراء(ع) ولدت بعد خمس سنوات من بعثة محمد(ص) بالنبوة، والوحيد الذي يخالف هذا المشهور [الشيعة] هو الشيخ الطوسي في مصباح المتبهد^(٧)، حيث أنه ذكر أن فاطمة(ع) عند زواجها من علي(ع) أمير المؤمنين كانت في الثالثة عشرة من عمرها، وإذا كان زواجها بعد الهجرة بخمسة أشهر، فسوف تكون ولادتها في السنة الأولى للبعثة، وهذا الرأي يوافق ما ذكره اليعقوبي، ومع هذه الاختلافات الكثيرة في نقل الروايات، فإنه من الصعب جداً قبول سند وترك آخر.

كما ذكرنا في المقدمة، في مثل هذه الحالة يجب الأخذ بعين الاعتبار القرائن الخارجية، لعله يمكن بواسطتها، وعن طريق إضافتها إلى إحدى كفتي الروايات وترجيح كفة على الأخرى في نهاية الأمر.

١- ج ٤، ص ٤٥٨.

٢- ج ٢، ص ٩٥.

٣- أصول الكافي، ج ١، ص ٤٥٨.

٤- ج ١، ص ٤٤٩.

٥- ج ١، ص ٤٤٩.

٦- ج ٤٣، ص ٧ وما بعدها.

٧- ص ٥٦١.

هناك قرينة مهمة وقوية في عموم روايات علماء ومحدثي الشيعة، تدل على أن ولادة بنت النبي (ص) كانت بعد البعثة. وهذه القرينة هي علاقة ولادة الزهراء (ع) بمعراج الرسول الأكرم (ص):

جاء في روايات المعراج أن رسول الله (ص) أتى في ليلة المعراج بتفاحة من الجنة، وتكونت نطفة الزهراء منها:

«إن جبرئيل (عليه السلام) أتاني بتفاحة من تفاح الجنة فأكلتها، فَتَحَوَّلَتْ ماءً في صليبي، ثم واقعتُ خديجة، فحملت بفاطمة»^(١).

فلو أن المؤرخين حددوا وعينوا تاريخ المعراج بشكل دقيق وأنه في أي عام مثلاً، لم يكن لدينا أية مشكلة، ولكن هذا التساؤل يطرح نفسه أمامنا أيضاً، وهو: متى كان معراج الرسول وفي أي عام؟

جواب هذا السؤال أيضاً ليس معلوماً على نحو الدقة، فقد اعتبر ابن سعد في رواية أنه قبل الهجرة إلى المدينة بثمانية عشر شهراً، وفي رواية أخرى أنه قبل الهجرة بسنة واحدة^(٢)، في حين ذكر ابن الأثير أنه قبل الهجرة بثلاث سنوات، وفي رواية أخرى قبل الهجرة بسنة واحدة^(٣).

في حين ذكر علماء الشيعة روايات عديدة بعضها يقول أن المعراج كان بعد البعثة بستين، وبعضها الآخر يقول أن المعراج كان قبل الهجرة بستة أشهر، ولما واجهوا هذا الاختلاف في الروايات، قالوا أن هذا الإختلاف بسبب عروج النبي (ص) إلى السماء عدة مرات^(٤).

١ - بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٥ نقلاً عن علل الشرائع.

٢ - طبقات، ج ١، ص ١٤٣.

٣ - الكامل، ج ٢، ص ٥١.

٤ - منتهى الآمال، ج ٢، ص ٣٧.

ولكن القرينة التي تؤيد قول مؤرخي ومحدثي أهل السنة والجماعة، هي أنهم ذكروا أن فاطمة (ع) ولدت في السنة التي كانت قريش تبني فيها الكعبة.

جاءت قصة تجديد بناء الكعبة في جميع التواريخ، ويعرفها جميع المطلعين والعارفين بتاريخ حياة النبي (ص)، وخلاصتها أن الكعبة قد تهدمت على أثر مجيء سيل، وأعيد بناؤها من جديد، وما أن وصلت مرحلة البناء إلى مرحلة وضع "الحجر الأسود" في مكانه، حتى حصلت منافسة شديدة بين زعماء قريش على وضع الحجر في مكانه، حيث رغب رئيس كل طائفة في أن يحصل على هذا الفخر والشرف، واشتد النزاع بينهم إلى درجة الاشتباك والقتال، ولكنهم في نهاية الأمر توافقوا على أن يقبلوا بتحكيم أول شخص يدخل من الباب، وكان محمد (ص) أول شخص يدخل الباب، وأعلنوا جميعهم مرة أخرى قبولهم بهذا الحل، لأن محمداً أمين، وقبلوا جميعاً تحكيمه، وعندما أخبروه بالقصة، قال لهم: اسطوا رداءً أو قماشاً، ثم وضع الحجر الأسود في وسط الرداء، وقال لرؤساء الطوائف الأربعة المتنازعين على ذلك: ليمسك كل منكم بزاوية من الرداء، ثم ارفعه، وبعد ذلك قام بنفسه برفع الحجر من وسط الرداء، ووضع في مكانه المناسب.

وبهذا العمل حال دون حصول اقتتال واسع تراق فيه دماء كثيرة، فلو أن قصة حكومة محمد (ص) وتحكيمه ونصب الحجر الأسود كانت بهذه المقدمات والشكل المذكور فمن المقطوع به والمسلم هو حصولها قبل البعثة، لأن قريشاً في السنة الخامسة للبعثة كانت في حالة خصام وعداء مع محمد، وما كانت لتعهد إليه بأمر التحكيم والحكم.

والقرائن الخارجية الأخرى باختصار هي كالتالي:

١٠ في أحد الأيام ألقى بأمر من أبي جهل فضلات جزور على كتف النبي (ص) [بينما كان ساجداً] وعندما علمت فاطمة (ع) بالأمر أسرع إلى المسجد الحرام، ورفعت تلك

الأوساخ عن النبي (ص) ونظفت ثيابه.

«قال أبو جهل: أيكم يأتي جزوراً لبني فلان قد نحرت اليوم بأسفل مكة: فيجيء بفرثها، فيلقيه على محمد؟ ... فألقاه على ما بين كتفيه [أى كتفي رسول الله] ... فجاءت فاطمة عليها السلام، فأماطت ذلك عنه»^(١).

وهذه التصرفات الشائنة مع النبي (ص) يبدو بحسب الظاهر أنها قد حصلت قبل السنة العاشرة للبعثة، بل قبل هجرة رسول الله (ص) إلى الطائف، وأيضاً قبل الحصار في شعب أبي طالب، وإذا اعتبرنا أن ولادة فاطمة (ع) في السنة الخامسة للبعثة، فسيكون عمرها عند حصول هذه الحادثة بين الثالثة والخامسة، وليس أكثر، ومن المستبعد أن تذهب بنت صغيرة بهذا السن إلى المسجد، وأن تقوم بعمل كهذا.

٢٠ في يوم أحد، عندما سمعت فاطمة (ع) بأن وجه أبيها قد تعرض للجراح، وخضب بالدم ذهبت مع جمع من النساء إليه، ولما رأته وضعت يدها تحت رأسه وبكت، ثم أزال الدم عن وجهه:

«ورأت فاطمة ﴿عَلَيْهَا السَّلَامُ﴾ ما بوجه رسول الله ﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾، فاعتنقته، وبكت، وجعلت تمسح الدم عن وجهه، [وأتى علي ﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ بماء] فجعلت تغسل وجهه»^(٢).

فإذا كان المعراج قبل السنة الخامسة للبعثة، فليس بعيداً أن تكون قد قامت فعلاً بهذا العمل، ولكن لو كانت رواية "ثمانية عشر شهراً" أو رواية "سنة أشهر" قبل الهجرة صحيحة، فيجب أن نقبل أن فاطمة (ع) في غزوة أحد كانت في الخامسة من عمرها، أو أقل من الخامسة، في حين أننا سوف نشاهد أن زواج فاطمة الزهراء (ع) كان في ذي

١ - أنساب الأشراف، ص ١٢٥، ومصادر أخرى.

٢ - أنساب الأشراف، ص ١٢٥؛ مغازي، ص ٢٤٩.

الحجة من السنة الثانية للهجرة، وقبل معركة أحد، أي أنها كانت في التاسعة من عمرها أو أكثر.

٣٠ الروايات الشيعية - كما سنذكر لاحقاً - قالت أن فاطمة (ع) ولدت بعد البعثة بخمس سنوات في السنة التي كانت قريش تبني فيها الكعبة. ومن المقطوع به أن تحكيم النبي (ص) في عمل زعماء مكة كان قبل البعثة، لأن قريشاً لم تكن تراتح لمحمد (ص) في السنة الخامسة للبعثة والسنوات التي قبلها وبعدها، فضلاً عن أن تنعته بأنه أمين، وأن تقبل بتحكيمة، وحكمه في مثل ذلك العمل المهم.

٤٠ نعلم أن سن خديجة عند زواجها من النبي (ص) - بحسب ما ذكر - كان أربعين سنة فإذا قلنا أن فاطمة ولدت في السنة الخامسة للبعثة، فيجب القول أن خديجة وقتها كانت في الستين من عمرها، وهذا وإن لم يكن محالاً، ولكنه مستبعد، فمن جهة جاء المجلسي برواية نقلاً عن أمالي الصدوق بهذا المضمون:

«أنَّ خديجة عليها السلام لَمَّا تزَوَّجَ بها رسول الله ﷺ هجرتها نسوةً مكة، فكنَّ لا يدخلنَ عليها، ولا يُسلمنَ عليها، ولا يتركنَ امرأةً تدخل عليها... إلى أن حضرت ولادتها [أي ولادة الزهراء] فوجَّهت إلى نساء قريش، وبني هاشم: أن تعالين لتلين مني ما تلي النساء من النساء، فأرسلن إليها: أنت عصيتنا ولم تقبلي قولنا وتزوجت يتيم أبي طالب»^(١).

فإذا قبلنا الرواية بهذا الشكل الموجود، واعتبرنا أن ولادة بضعة النبي في السنة الخامسة للبعثة، فإن الفترة الزمنية الفاصلة بين زواج خديجة من النبي (ص) وولادة

الزهراء (ع) سوف تكون عشرين عاماً.

في هذه المدة الزمنية الفاصلة والممتدة لعشرين عاماً، فإن جمعاً من هؤلاء النساء اللواتي قد متن، وصارت النساء الشابات كبيرات في السن، ووصلت البنيات الصغار إلى مرحلة الشباب، وأخذت القصة لونهاً ومنحياً آخر، ولم يعد محمد(ص) في هذا التاريخ يتيم أبي طالب، بل صار نبياً له أنصار يقدونه بأرواحهم ومهجم، ويتمنى رجال قريش أن يمد لهم يد المساعدة، ويعدون مساعدته غنيمة لا تفوت ليجعلوا منها بحسب ظنهم مقدمة للمساومة والمسالمة.

من الممكن أن لا تقبل نساء قريش اللواتي أزواجهن أعداء محمد(ص) رجاء خديجة والتماسها في ذلك الوقت، ولكن هل يمكن أن ترفض نساء بني هاشم؟ وما هي حاجة خديجة لمساعدة نساء قريش الكافرات والمشركات؟

ألا يمكن للنساء المسلمات مساعدة خديجة في هذا العمل البسيط والصغير.

هنا يجب القول أنه لا يمكن الاعتماد والوثوق برواية الرواة الذين يعتمدون فقط على ذاكرتهم فقط.

أورد صاحب كشف الغمة رواية أخرى، ولدت فاطمة(ع) بعد البعثة النبوية بخمس سنوات، وهي السنة التي كانت فيها قريش تبني الكعبة...^(١)، ولكن يبدو أن الراوي الأول أو أحد رواة هذا الحديث أخطأ في روايته وحفظ كلمة بعد البعثة بدلاً من «قبل البعثة» لأنه كما قلنا فإن إعادة بناء الكعبة كانت قبل البعثة بخمس سنوات.

ولو فرضنا أن تجديد بناء الكعبة قد حصل عدة مرات بعد ذلك التاريخ (كما احتمله بعض المتأخرين) فمن المسلم والمقطوع أن قصة اختلاف القبائل ونزاعها لن تحدث مرة أخرى، ولو أنها حصلت وحدثت مرة أخرى، كما ذكرنا أيضاً في السابق، ما كانت قريش

لتدعو محمداً وتعهد إليه بأمر التحكيم بين المتنازعين. وإذا لم يحصل أي من هذه الحوادث في بناء الكعبة للمرة الثانية، فلن يكون لإعادة البناء أي أهمية بحيث أنه يصبح مبدءاً للتأريخ.

وعلى أية حال، فإن المسلم والمقطوع به هو ترافق وتقارن ولادة السيدة الزهراء (ع) مع إعادة بناء الكعبة من جديد في عدد من الروايات الشيعية والسنية.

وكما ذكرنا سابقاً فإن البحث في هذه الروايات ليس له أي فائدة! إلا من جهة تبيين وتوضيح التاريخ، فسواءً ولدت بضعة النبي (ص) بعد البعثة بخمس سنوات، أو قبل البعثة بخمس سنوات، وسواءً أنها تزوجت في التاسعة من عمرها أم في الثانية عشرة، وسواءً أنها انتقلت إلى جوار ربها في الثامنة عشرة، أم في الثامنة والعشرين، فعلى كل الأحوال هي بضعة النبي (ص) والنموذج الكامل والسامي للمرأة التي تربت وتخلقت بالأخلاق الإسلامية السامية، والشيء الذي يجب على كل امرأة مسلمة ورجل مسلم أن يتعلمه من حياة بضعة النبي هو تقواها، وورعها، وصبرها، وفضيلتها، وإيمانها بالله، وخوفها من ربها، وغير ذلك من الخصال الإنسانية السامية التي كانت تتمتع وتحلى بها، وسوف نتعرض لها في مكانها المناسب.

وقد تعرضنا للتفصيل في هذا البحث رعايةً لسيرة وعرف المؤرخين والمحدثين.



ذكر مؤلفو السيرة والمحدثون الإسلاميون ألقاباً عديدة لبنت رسول الله ﷺ: الزهراء، الصديقة، الطاهرة، المرضية، المباركة، البتول، وألقاباً أخرى. ولقب الزهراء أشهرها، وأحياناً يترافق مع اسمها بالشكل التالي: «فاطمة الزهراء». ولقب الزهراء هو أكثر الألقاب شهرة وشيوعاً وهو بمعنى، المشع، أو المنير، أو ما يرادفهما، وهذا اللقب يبين عظمة هذه السيدة التي هي الصورة المشرقة للمرأة المسلمة في عبادة الله

- رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: الفتال النيسابوري، روضة الواعظين، ج ١، ص ١٤٨.

والتقوى.

صفة الإشراق التي اتسمت بها فاطمة الزهراء ﴿ع﴾ بالطبع لم تكن مرتبطة بساعة أو وقت محدد، فكانت دائماً ومنذ اليوم الذي علمت فيه بواجبها وإلى الأبد نموذجاً تربوياً يُقتدى به في التربية الإسلامية كما يقتدى في الظلام بسراج النور.

ذكر المحدثون في ذيل بعض ألقابها روايات عن سبب إطلاق هذه الألقاب، وإعادة كتابة تلك الأقوال تؤدي لإطالة الحديث، ولكن ما يمكننا استخلاصه من كل هذه الأحاديث والأقوال هو عظمة قدر بنت رسول الله، والشخصية الفذة التي امتلكتها فاطمة الزهراء ﴿ع﴾، وذلك من وجهة نظر والدها، وزوجها، والمقام العظيم بين المسلمين أيضاً. تلك هي الحقيقة التي يقرها المسلمون جميعاً من كل المذاهب.

لهذا نجد في معظم كتب الشيعة، وأحياناً في كتب أهل السنة المعتبرة، أبواباً تشتمل على أحاديث عن فضائل بنت رسول الله، أو فصولاً من الروايات التي تتحدث عنها.

اسمها فاطمة، وفاطمة صفة من المصدر فطم، و فطم في اللغة العربية بمعنى «قطع» أو «فصل». هذه الصيغة التي هي على وزن فاعل (فاطمة) تعطي معنى اسم المفعول، أي بمعنى المفضول أو المقطوع، فما هو الشيء الذي فصلت فاطمة ﴿ع﴾ عنه؟ ...

نشاهد رواية في كتب الشيعة والسنة عن رسول الله ﴿ص﴾ أنه قد سماها فاطمة لأنها فطمت هي وشيعتها عن النار، أي أنهم مبعدون عن النار.

روى المجلسي نقلاً عن عيون أخبار الرضا بإسناده عن علي بن موسى الرضا، ومحمد بن علي ﴿ع﴾ وهما عن المأمون، وهو عن هارون، وهارون عن المهدي، وهو بسنده عن ابن عباس أنه سأل معاوية:

- أتدري لم سميت (من قبل رسول الله ﴿ص﴾) فاطمة فاطمة؟

- قال: لا!

- قال (ابن عباس): لأنها فطمت هي وشيعتها من النار. (١)

ونقل الفتحال النيسابوري حديثاً عن الإمام الصادق:

«ترى أي شي تفسير فاطمة ؟

قال: فطمت من الشر». (٢)

وقد جاءت روايات عديدة أخرى بهذا المضمون، كما ذكرت معان أخرى غير الذي كتبناه للصيغة الوصفية هذه (فاطمة). (٣)

قبل ظهور الإسلام وُجد امرأتان أو ثلاث باسم فاطمة، واشتهرن بعد الإسلام بالفواطم مثل: فاطمة بنت أسد بن هاشم، وفاطمة بنت عتبة بن ربيعة (٤) وفاطمة بنت عمرو بن عائذ. (٥)

نشأت فاطمة الزهراء بالقرب من أبيها رسول الله، وفي بيت النبوة حيث محط نزول الملائكة، ومركز نزول الوحي والآيات القرآنية.

هناك حيث آمنت أول فئة من المسلمين بوحدانية الله عزوجل، وثبتوا على إيمانهم. تلك الفئة التي امتحن الله قلوبها، ومدحها في القرآن الكريم، كما تعلمت التربية الدينية

- بحار، ج ٤٣، ص ١٢.

- روضة الواعظين، ص ١٤٨.

- بحار، ج ٤٣، ص ١٢.

- ابن سعد، ج ١، ص ٣٢؛ لسان العرب، ذيل فطم.

- اليعقوبي، ج ٢، ص ٦.

من والدها محمد (ﷺ)، النبي الذي يتوهج مشعل العلم والدين باسمه، ومعلم البشرية إلى الأبد.

فاطمة الطفلة الصغيرة كانت ترى المسلمين الجدد الذين كانوا يأتون إلى منزل أبيها باشتياق كل يوم لتعلم الآيات القرآنية، وأساليب عبادة الله عزوجل.

من هذا المنزل كانت بداية انطلاق كلمات "الله أكبر" التي كانت تقال فيه، وكانت انطلاقا للوقوف بين يدي الله عزوجل والتوجه نحوه، وتعظيمه في كل يوم وليلة في أوقات خاصة وذكر اسم الله الواحد عزوجل.

في تلك السنوات كان هذا المنزل هو الوحيد في كل شبه الجزيرة العربية، وكل العالم الذي يخرج منه هذا الصوت "الله أكبر"، وفاطمة الزهراء كانت فتاة مكة الوحيدة التي تعيش بالقرب من هذه الأنشطة والأمر المميزة.

وقد ترك هذا الصوت السماوي لتلك المراسم أثره في روح الطفلة الصغيرة! أي أثر ترك؟ هذا ما اتضح وتجلّى بعد عدة سنوات.

قضت فاطمة الزهراء مرحلة الطفولة وحيدة، حيث كانت وحدها في المنزل. أختها رقية وأم كلثوم تكبرانها بسنوات عديدة، لذا لم تملك رفيقاً يشاركها مرحلة الطفولة، وربما كانت هذه الوحدة هي أحد الدوافع التي جعلت توجهها ينعطف كلياً إلى الرياضات الجسمية والتعاليم المعنوية الروحية.

"الله أكبر"، "أشهد أن محمداً رسول الله"، وآيات القرآن كانت تصل مسامعها قليلاً، قليلاً، ودروس أوسع وأشمل كانت تتلقاها فاطمة، دروس من أخلاق القرآن وتوصياته من أجل وصول الإنسان إلى قمة الأخلاق الإنسانية الرفيعة.

الناس جميعاً سواء أمام الحكم الإلهي! لا فضل لأحد على الآخر، العبد والسيد متساويان أمام الله تعالى، يجب العطف والرفقة بحال العبيد والأسراء والفقراء، ومن الواجب أيضاً معاملتهم بالشكل اللائق، واحترام البنات مثل الذكور، وعدم التكبر على

البنات؛ وبالإضافة إلى هذه التعليمات التي كان يلقتها والدها للمسلمين، والشوق العظيم الذي ملكه المؤمنون لهذه التعليمات كانت ترى في ذات الوقت العداوة التي يقابل بها أهل مكة والدها رسول الله.

لم يملك أهل مكة مثل هذا الكلام الجميل، ولم يودوا أن يطلع عامة الناس على مثل هذا الكلام الذي لم يسمعوا به من قبل! لأن انتشار مثل هذا الكلام بين العامة سيقوض عليهم حياتهم التي اعتادوها، ولكي يُخفوا خوفهم هذا، ويحولوا -بزعمهم- دون تأثيره على الآخرين اتهموه بالسحر والجنون!

أين هي النبوة من يتيم أبي طالب؟ لم لم ينزل الوحي على رجل عظيم القدر من رجال مكة أو يثرب؟ الوحي ينزل على يتيم أبي طالب! ... كانت تلك هي أقوالهم وأفكارهم. لا بدّ من إيجاد حل لهذه المعضلة قبل فوات الأوان!

لم يكن بمقدورهم قتله بسبب المتاعب التي سيخلفها قتلهم له مع أبي طالب، وبني هاشم. بقي حل واحد هو إبعاد أتباعه من حوله، وجعلهم يتركونه، وينفضون من حوله، وإلا فسيلجؤون معهم لكل أساليب القوة والعنف.

ما هو سلاح الجاهل الآثم؟

الشتم والإيذاء، ومن الممكن أن يكون القتل!

في المدينة الصغيرة تنتشر الأخبار بسرعة، ومنزل أبيها كان مركزاً لتقصي الأحداث في مكة: اليوم عُدّب بلال! واليوم أصيب عمار! اليوم قتلت أم عمار، أبو لهب قال كيت، وأبو جهل قال كيت، والكثير من أمثال هذه الأخبار المؤسفة.

سمعت فاطمة بأن والدها أمر أتباعه بترك مكة والذهاب إلى الحبشة؛ لأنه لم يعد يحتمل رؤيته تعذيب المسلمين أكثر من هذا! لم يجب على هؤلاء الناس أن يتركوا أموالهم وحياتهم ويتحملوا مخاطر ومشاق السفر؟ لم عليهم أن يذهبوا إلى مكان لا يُعرف عنه شيء، وأن يطلبوا الأمان واللجوء عند شخص لا يُعرف من هو؟ ولا يعرف

أسلوبه ولا طريقة تفكيره؟.

قال والدها لأتباعه بأن نجاشي الحبشة يعامل لاجئيه معاملة جيدة.

ما الذنب الذي ارتكبه أتباع والدها حتى يذهبوا إلى نجاشي الحبشة؟ لم عليهم أن يتحملوا مشقة الغربة؟ لأن هذه الأحجار والقطع الخشبية الموضوعة في الكعبة تحت اسم الرب لها كل هذه الحرمة؟ هل أن عظماء قريش لا يعلمون فعلاً أنها من صنع أيدي عمالهم، ولا نفع منها ولا ضرر؟

كلا! إنهم يخشون من أمور أخرى!! إنهم يخشون من الأضرار التي ستلحق بهم من انتشار دعوة محمد ﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ :

﴿ويل لكل همزة لمزة، الذي جمع مالا وعدده، أيحسب أن ماله أخلد، كلا لئيبذن في الحطمة﴾^(١)

نعم! لقد أصاب السهم الهدف، مجموعة تريد أن تفر من طاعة المخلوق إلى طاعة الخالق، وتريد أن تكسر طوق العبودية وتصبح حرة، ولهذا هي على استعداد لتحمل كل هذه المصائب ولن تستبدل طاعة الله بطاعة الشيطان أبداً...

كل حادثة من تلك الحوادث كانت تترك أثراً في قلبها الكبير في واقعه والصغير في ظاهره، وكل واقعة جديدة كانت تعلمها درساً جديداً، درساً في الثبات:

هؤلاء الذين اختاروا حكم الله ورفضوا استبداله بأي شيء، هؤلاء هم الذين تنزل عليهم الملائكة... «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ»^(٢) الأمن، والراحة، والطمأنينة، وجنة العالم الآخر الخالدة بانتظار من زادت الحوادث قوة واستقامة، ولم يخش أو يرهب كيد الشيطان.

١- الهمزة / ١٠٤: ١ - ٤.

٢- فصلت / ٤١: ٣٠.

تلك هي الدروس التي كانت تُعطى للمسلمين، وفاطمة التي كانت ترتبط عن قرب بمتلقي هذه الأوامر من الله كانت تتلقاها منه ﷺ بشكل مباشر وخاص. كان عليها أن ترى وأن تعيش هذه الدروس والتجارب واحدةً تلو الأخرى حتى يزيد ثباتها وصلابتها تماماً كما يفعل مع الفولاذ. ولم تكن التجارب والاختبارات لتنتهي! فكل يوم اختبارٌ جديد، وكل ليلة رياضة جديدة.

كانت مراحل الاختبار تمر الواحدة تلو الأخرى، وكل اختبار أصعب من السابق. كما كانت الاختبارات بشكل دائم تصبح أصعب وألمها يصبح أكبر: التهديد، والعنف، والإيذاء، والتجويع، وشطف الحياة.

تَسْمَعُ في يومٍ من الأيام أن أعداء الإسلام قد رموا جسد أبيها بأحشاء جزور ولوَّثوا ثيابه بها، فتسرع بنفسها جرياً إليه، فتتنظف ثيابه من الأقدار.

وفي يوم آخر يصلها خبرٌ أن قدم والدها قد أصيبت بعد قذفه بالحجارة. ولكن أياً من هذه التصرفات العدوانية لم يعطِ النتيجة التي كان يرجوها أعداء الإسلام، فمحمد ﷺ لم يتخل عن دعوته، والمسلمون لم يتفرقوا من حوله.

لم يمض وقتٌ طويل حتى اتخذت قريش المهزومة والغاضبة تصميماً أخطر، يجب أن يقطع الناس علاقتهم مع بني هاشم، ويجب أن يخضع بنو هاشم لحظر اقتصادي واجتماعي، فالتجويع والفصل عن الناس سيكونان درساً جيداً لهم، ولن يمضي وقت طويل حتى يتعبوا ويملوا ويضيقوا ذرعاً بمحمد، وبالتالي سيكونون عن حمايته من أجل راحة وسلامة أنفسهم.

عند هذا لن يكون أمام محمد سوى أحد هذين الطريقين ليسلكه: إما أن يتوقف عن هذا العمل الذي بدأه، أو أن يُقْتَلَ بيد قريش.

طُوِّقَ آل أبي طالب المبعدون في منطقة معينة يقال لها شعب أبي طالب، وتبعد قليلاً

عن مكة، ومنع عنهم اللباس، والطعام، وحتى الزيارة واللقاء.
ما هي المدة التي قضاها في ذلك الوادي المخيف؟ لا أحد يعلم بالضبط! فابن هشام
ذكر أن مدة الحظر دامت سنتين أو ثلاث.

في هذه المدد ماذا جرى لفاطمة الزهراء، وكيف مرت الأيام عليها؟ الله وحده هو
الذي يعلم!

كان عليها أن تتحمل معظم هذا العبء الثقيل، ولكن الأصب والأشد إيلاماً من هذا
العذاب هو موت الأعزاء!

فقد قدر القضاء الإلهي أن يكون موت خديجة، هذه المرأة المضحية وأول امرأة
مسلمة، في نفس العام الذي توفي فيه أبو طالب، بعد مدة قصيرة، ولكن طبقاً لنقل الشيخ
الكليني كانت وفاة أبي طالب بعد موت خديجة بعام. (١)

فكما تعلمت فاطمة ﴿عليها السلام﴾ من القرآن الكريم عليها أن تجرب هذا الامتحان أيضاً،
كان موت أقاربها اختباراً وامتحاناً من نوع آخر. بالنسبة لها يجب عليها أن تُظهر
الشجاعة والبأس أمام هذه المحنة، وأن تنتظر بشارة الله تعالى.

«وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» (٢)

تلك الاختبارات التي خضعت لها كانت اختبارات جسمية، وهذا الامتحان الأخير كان
اختباراً وامتحاناً من نوع آخر بالنسبة لها. كان اختبار قدرتها النفسية.
كانت أمها هي الوحيدة التي تشارك والدها في همه وغمه، وكان أبو طالب يحميه من

١- أصول الكافي، ج ١، ص ٤٤.

٢- البقرة/ ٢: ١٥٥ - ١٥٦.

الأعداء في الخارج.

مع وجود أبي طالب لم يكن في استطاعة المشركين أن يفكروا في قتل والدها، لأن قبيلة بني هاشم كانت قبيلة كبيرة، وحتى إن لم تكن تضاهي قوة قبائل بني زهرة أو بني مخزوم أو بني حرب في المال والرجال، ولكن في المقابل لم تكن أي قبيلة أخرى تضاهيهم في الشرف والسؤدد.

كبار أهل مكة وأغنياؤها كانوا يعلمون أنهم إذا حاولوا قتل محمد فإن بني هاشم لن ينفقوا متفرجين، حتى أنه من الممكن أيضاً أن تساعدهم القبائل الأخرى.

فلذلك كانوا مضطرين للاكتفاء بإيذاء محمد بالشتيم، والاستهزاء، والقذف بالحجارة، والسخرية، والاتهام تهدئة لقلوبهم المضطربة. وتلك هي الأساليب التي يلجأ إليها العاجز. وكان قدر فاطمة أن تشهد كل هذه المناظر، وبعد تحمل كل هذا العذاب أن تشهد أيضاً موت أمها، وموت عم أبيها وحاميه أبي طالب، وكان موتها مؤلماً.

لم تعد الآن فاطمة فتاة العائلة فقط، بل هي خليفة عبدالله، وعبدالمطلب، وأبي طالب وخديجة. "أم أبيها" يا له من لقب مناسب! "أم أبيها" عليها أن تقوم بدور أم أبيها، عليها أن تكون بنتاً وأماً لوالدها.

إذا قبلنا أن الزهراء عليها السلام ولدت قبل البعثة بخمس سنوات فلكونها سيدة الأسرة الوحيدة لم تستطع، أو لم ترغب أن تتزوج حتى سن السابعة عشرة، لأنها لم تكن تريد أن تترك أباه وحيداً.

كانت تعلم أن عليها أن تبث الهدوء والراحة في منزل أبيها قدر استطاعتها. الآن والدها لا يملك مدافعاً مثل أبي طالب، ولا شريكاً لهمه مثل خديجة، وازداد تطاول

الأعداء عليه فهو بحاجة أكثر للمواساة.

والأب أيضاً عندما كان يرى تلك التضحية من قبلها كان يقابلها بإظهار المحبة وإعلان رضاه عنها.

بعد سنوات من حرب الجمل سألت امرأة عائشة لم قمت بحرب الجمل؟ فقالت:

«دعينا منك إنه ما كان من الرجال أحب إلى رسول الله (ص) من علي (ع) ولا من النساء أحب إليه من فاطمة (ع)». (١)

وتقول أيضاً: «ما رأيت أحداً قط أصدق من فاطمة غير أبيها». (٢)

من الممكن أن يتصور بعض الأشخاص الذين لم يدققوا بشكل جيد في سيرة النبي محمد عليه السلام وأهل بيته، أو من أولئك الذين لم يدركوا عمق الشريعة الإسلامية وروحها بالشكل المطلوب أن هذا الحب مثل أي حب أبوي ناشيء عن الغريزة الإنسانية!

هذا التصور ربما يكون صحيحاً من جهة ما، فنحن لا نقول أن محبة رسول الله لفاطمة كانت خالية من عاطفة الأب نحو ابنته... لماذا؟ لأن محمد عليه السلام كان أباً، وفاطمة كانت ابنته، ولكن هذه الرواية والروايات الأخرى المشابهة وإن اختلفت معها قليلاً بالألفاظ، والمروية عن الرسول تشير إلى حقيقة أخرى: عظمة فاطمة في نظر الرسول، وكبار المسلمين في عصر رسول الله عليه السلام والعصور اللاحقة، والشيء الذي جعلها جديرة بهذا المقام، وتلك الحرمة هو الإيثار، والزهد، والتقوى، والعلم، والملكات الإنسانية الأخرى التي وصلت فيها إلى مرحلة الكمال، والتي ذكرها جميع المؤرخين

١- بحار، ج ٤٣، ص ٢٣، عن أمالي الشيخ الطوسي.

٢- مناقب، ج ١، ص ٤٦٢.

الشيعة والسنة لفاطمة بهذه الامتيازات في كتبهم المعتمدة.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: « يا فاطمة! إن الله تبارك وتعالى ليغضب لغضبك ويرضى لرضاك » قال (الراوي) فجاء صندل، فقال لجعفر بن محمد (ع):

يا أبا عبد الله! إن هؤلاء الشباب يجيئوننا عنك بأحاديث منكرة!
فقال له جعفر (ع): وما ذاك يا صندل؟

قال: جاؤونا عنك أنك حدثتهم «إن الله ليغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها».

فقال جعفر (ع): يا صندل! أستم رويتم فيما تروون أن الله تبارك وتعالى ليغضب لغضب عبده المؤمن ويرضى لرضاه؟
قال: بلى

قال: فما تنكرون أن تكون فاطمة (ع) مؤمنة يغضب الله لغضبها ويرضى لرضاها؟

فقال له: «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ».

آلم موت خديجة وأبي طالب رسول الله بقوة، حيث صار يرى نفسه وحيداً ودون محام ولا مشارك له في همومه، ولكن الله كان عوناً له في كل الظروف، وكان شعاره دوماً هو الدعوة لعبادة الله وحده، وقد سافر إلى الطائف على هداية عدد من أهل هذه المدينة للإيمان، وهم من ثقيف، وكانت قبيلة قوية، ولكن كبار أهل الطائف لم يكتفوا بعدم إجابته بالحسنَى إلى ما دعاهم إليه، بل ولم يتورعوا عن إيذائه أيضاً.



استعملت مكة كل الوسائل من أجل إخماد هذه الدعوة الإلهية، ولكن مساعيها كلها باءت بالفشل. كل يوم كان صوت الدعوة الإسلامية يصل إلى مكان أبعد، ويصل إلى مسامع فئات أخرى وجديدة من القبائل.

فكرة الحظر الاقتصادي التي كانت حيلة قريش الأخيرة لمواجهة محمد عليه السلام فشلت؛ لذلك فقد أبطل كبار القوم تلك المعاهدة المشؤومة، ولكنهم اتخذوا تصميماً جديداً، فالآن محمد لم يعد له حام في مكة، وعليهم أن يتخلصوا منه، ويجب أن تشارك القبائل كلها في قتله، حتى لا يتمكن بنو هاشم من السعي وراء الثأر له، ولكن المكر الشيطاني لا ينفع أمام إرادة الله، فقد كانت الدعوة قد انتقلت من مكة إلى يثرب التي تبعد خمسمائة كيلو متراً عن مكة قبل مدة من هذا المكر. أو من الأفضل أن نقول أنه قد تأسس في يثرب مركز جديد للدعوة الإسلامية. وبدأ أصحاب والداها فرداً فرداً وجماعة جماعة بترك بيوتهم وحياتهم في مكة، والذهاب إلى يثرب.

وقد استقبل أهل هذه المدينة الذين أطلق عليهم بعد هذا لقب "الأنصار" في التاريخ الإسلامي أعوان الرسول وأصحابه بكل مودة ومحبة إلى الحد الذي فضلوهم وآثروهم به على أنفسهم.

في الليلة التي كان مقرراً فيها أن تطبق قريش خطتها وأن تقتل رسول الله بيد فئة متألفة من كل قبائل قريش طلب الرسول من علي عليه السلام أن ينام في فراشه، وتوجه يرافقه أبو بكر إلى يثرب.

ذلك هو الحدث الكبير الذي تحول إلى بداية للتاريخ الإسلامي بعد عدة سنوات، وإلى اليوم أيضاً يُداول تحت اسم «التاريخ الهجري».

ولما كانت الأمور تستقر شيئاً فشيئاً، وأصبح هناك مسجد جاهز، واتخذ المهاجرون بيوتاً جديدة لهم في يثرب، أصدر والدها أمر هجرتها من مكة إلى المدينة. زيد بن حارثة وأبورافع كانا المسؤولين عن مرافقة فاطمة عليها السلام، وأم كلثوم. ذكر البلاذري:

«وَجَّهَ رسول الله ﷺ زيد بن حارثة، وأبا رافع مَوَلِيَّيه، فَحَمَلَا فاطمة وأم كلثوم...»^(١)

أما ابن هشام فقد ذكر أن العباس بن عبد المطلب كان هو المسؤول عن أخذها. وعلى أية حال ركبت الزهراء وأم كلثوم ناقتيهما وأستعدتا للحركة، فجاء إليهما حُوَيْرِث بن نقيذ وهو من أعداء محمد ﷺ وكان دائماً يسبه، فضرب ناقتيهما فسقطتا (فاطمة وأم كلثوم) على الأرض.

لم يذكر ابن هشام وبقية المؤرخين الإسلاميين شيئاً عن الأذى الذي لحق بفاطمة نتيجة هذا الحادث، ولكن من الواضح أن هذا الحادث قد سبب ألماً لفاطمة. كان هذا الرجل الوضع من بين الأشخاص الذين أمر رسول الله ﷺ يوم فتح مكة بإقامة دمائهم حتى ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة، فقتل حويرث بيد علي زوج فاطمة.^(٢)

وفي المقابل فإن اليعقوبي أيضاً الذي يعد من الطبقة الأولى من المؤرخين كتب أن

١- أنساب الأشراف، ص ٤١٤ و ص ٢٦٩. [ووجه رسول الله ﷺ أبا رافع وزيد بن حارثة مولييه إلى مكة، لحمل فاطمه و...]

٢- ابن هشام، ج ٢، ص ٣٠.

علي بن أبي طالب قد أحضرهما إلى المدينة؛ وتؤيد الروايات الشيعية رواية اليعقوبي.
في النهاية تحقق وعد الله، وارتاح المسلمون من أذى المشركين والأعداء، وفتح
فصل جديد في التاريخ الإسلامي، ومنذ هذا الوقت لم يعد أحد يخشى من إجراء المراسم
الدينية، بل وأصبح من واجب المسلمين دعوة الآخرين أيضاً إلى دينهم، وإذا لم يقبلوا أن
يجاهدوهم.



مضى على إقامة المهاجرين في المدينة سنتان أو أكثر بقليل، حدث فيهما تغيير جذري في الوضع السياسي والاجتماعي للمسلمين، وعادت بعض السرايا^(٢) منتصرة، وكانت نتيجة انتصارهم تحسناً نسبياً في وضع المسلمين، وتثبيتاً وتحكماً لمكانتهم في أعين القبائل المخالفة لهم، كما أن بعض القبائل التي كانت تعاني من حالة التردد في اتخاذ الموقف اختارت الحياد أو الالتحاق بالمسلمين بعد أن اشتبك المسلمون مع اليهود

١- الأحزاب / ٣٣: ٢١.

٢- السرية: هي مجموعة من الجنود ترسل للحرب دون أن يشترك الرسول ﷺ شخصياً فيها.

والمنافقين الذين كانوا في المدينة. لكن الحدث الأهم كان هو الانتصار في غزوة بدر الذي حطم أسطورة مكة، وذهب بالهبة المذهلة لزعماء مكة، وعرف من كان يحرص على رضئ مكة، وعدم إزعاجها أن قريشاً وتجارها عرضة للفشل والهزيمة. وعلى صعيد الحياة الشخصية للنبي ﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ حصل تغيير مهم أيضاً، حيث صارت كل من سودة بنت زمعة بن قيس، وعائشة بنت أبي بكر زوجتين للنبي ﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ تعيشان معه في بيته، وقد تزوج سودة قبل الهجرة^(١) بعدة أشهر، وتزوج عائشة في شوال من السنة الأولى للهجرة^(٢). ومع أن أياً من هاتين الزوجتين - سواءً من وجهة نظر النبي ﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾، أم من وجهة نظر فاطمة ﴿عَلَيْهَا السَّلَامُ﴾ - لم تكن لثملاً الفراغ الذي خلفه موت خديجة في حياة النبي ﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾، ولكن على كل حال كانتا تهتمان وتقومان برعاية شأن النبي ﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾.

كانت عائشة بنتاً في التاسعة من عمرها، وكانت سودة أرملة سكران بن عمرو بن عبد شمس الذي ذهب إلى الحبشة مع من هاجر إليها في المرة الثانية، وقد اصطحب سودة معه، ولكنه توفي بعد أن عاد إلى مكة، فخلف النبي ﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ بعده على سودة. فلو انتقلت فاطمة ﴿عَلَيْهَا السَّلَامُ﴾ إلى بيت الزوجية فإن في بيت النبي ﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ من يقوم على رعايته والاهتمام به.

من المسلم به أن الكثيرين كانوا يرغبون في الزواج من فاطمة ﴿عَلَيْهَا السَّلَامُ﴾، ولا داعي لذكر روايات حول هذا الموضوع، فأبوها من قبل أن يُبعث بالنبوة والرسالة كان له مقام ومنزلة كبيرة في أعين أهل مكة. وأختا فاطمة صارتا قبل ظهور الإسلام زوجتين لابني أحد وجهاء بني هاشم، وهو عبد العزى بن عبد المطلب (أبو لهب)، وكانتا مكرمتين عند

١- البلاذري، أنساب الأشراف، ص ٤٠٧.

٢- المصدر السابق، ص ٤٠٩.

زوجيهما، ولو أن سورة ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ لم تنزل في ذم والد زوجيهما، ولو أن ذلك اللجوج العنود وزوجته لم يُصرّا، وبكل عناد على ابنيهما في تطليق زوجتيهما لما فعلا ذلك، لأنهما كانا راضيين وسعيدين في زواجهما، ولكن مع إصرار أبي لهب، وضغوطه تم الفراق والطلاق بينهم.

هاتان المرأتان وبعد أن فارقتا زوجيهما وأسلمتا، تزوجتا الواحدة تلو الأخرى من عثمان بن عفان، رجل قريش الوجيه والثري، وكانت زينب -الأخت الأخرى لهما- زوجة ابن خالتها أبي العاص بن ربيع^(١)، وعندما بعث محمد ﷺ بالرسالة، وآمنت خديجة وبناتها به، بقي أبو العاص على دين قريش، فطلب منه زعماء طائفته أن يطلق زوجته مقابل أن يزوجه من أي امرأة يريد، فلم يقبل أبو العاص، وقال أنها أحسن النساء. ولما أسر أبو العاص في معركة بدر أطلق الرسول سراحه في مقابل أن يرسل زينب (زوجته) إلى المدينة.

هذه المجموعة من الرجال [الذين صاهروا النبي] كانت مجموعة مشهورة لها مكانتها واحترامها بين القبائل، فالآن وقد بعث محمد ﷺ بالنبوة، ودانت له يثرب بالطاعة، وتعيش مكة حالة خوف وحذر منه، فمن الطبيعي أن يتقدم رجال لهم منزلة أسمى وأعلى من هؤلاء لطلب الزواج من فاطمة ﷺ، وإذا كانت كل من زينب وأم كلثوم ورقية قد تزوجن قبل الإسلام، فإن تربية فاطمة -كما ذكرنا سابقاً- في مهبط الوحي ومنزل النبوة [كانت سبباً في رغبة الكثيرين من الوجهاء فيها]، وكما سيرى القراء

١- أنساب الأشراف، ص ٣٩٧. [وولدت أيضاً زينب بنت رسول الله... تزوجها أبو العاص ابن الربيع وهو ابن خالتها... فلما كرم الله نبيّه بالرسالة آمنت به خديجة وبناته وصدقته، وثبت أبو العاص على دين قريش... ففكّت إليه وجوه قريش، فقالوا: أردد على محمد ابنته، ونحن نزوجك أيتة امرأة أحببت من قريش. فقال: لاها الله... فإنها خير صاحبة. ولما سارت قريش إلى بدر، كان معهم فأسر في المعركة... فأطلقه رسول الله ﷺ بعد أن اشترط عليه أن يبعث بزینب إليه].

الكرام في مطاوي صفحات هذا الكتاب، وبأسناد من المصادر الأولى لتاريخ الإسلام، كان كل من عمر وأبي بكر طالباً لفاطمة ﴿عليها السلام﴾، وعندما طلبا ذلك من الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، قال لكل منهما:

«إني أنتظر أمر الله فيها»^(١)

قال النسائي وهو من من كبار محدثي أهل السنة في سننه:

«خطب أبو بكر و... فاطمة، فقال رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم:

إنها صغيرة، فخطبها علي، فزوجها منه»^(٢).

لكن النسائي أتى بهذا الحديث في ذيل الباب الموسوم بـ "باب تزوج المرأة مثلها

في السن".

أجل! لقد ذكر المؤرخون اسمي هذين الرجلين من بين المتقدمين للزواج من

فاطمة ﴿عليها السلام﴾ من جهة أنهما أكثر شهرة من الآخرين، وليس من جهة أن المتقدمين لها

فقط هذان الاثنان المسنان.

ذكر اليعقوبي أن جمعاً من المهاجرين تقدموا للزواج من فاطمة ﴿عليها السلام﴾، وطلبوا يدها

من والدها^(٣).

وقد جاء كل ما سنذكره حول التقدم لطلب يد فاطمة ﴿عليها السلام﴾، وزواجها من علي ﴿عليه السلام﴾

في كتب الشيعة والسنة، وتوجد روايات أخرى أيضاً مضمونها ما سيشاهده القراء الكرام

في هذه الروايات. وغاية الأمر أنها قد تختلف معها في بعض الألفاظ.

هذه الروايات وما ذكره أيضاً المؤرخون من أمثال البلاذري وابن اسحق، وابن

هشام، والطبري، وما ذكره علماء من أمثال الكليني، والمفيد، والشيخ الطوسي، هو السند

١- طبقات ابن سعد، ج ٨، ص ١١.

٢- السنن، ج ٦، ص ٦٨؛ فاطمة الزهراء، ج ٢، ص ٢٥.

٣- ج ٢، ص ٣١٠.

الوحيد لمن جاء بعدهم من الكتاب، سواء كانوا سنة أم شيعة، شرقيين أم غربيين. وأي شخص آخر يريد الكتابة أو البحث والتحقيق فلا بدّ له من أن يرجع إلى هذه الكتب، وهو ما فعله مؤلف هذا الكتاب. وإذا شوهد شيء خلاف هذا في كتب المستشرقين، ولم يأت في أي من الأسناد المذكورة؛ فيجب عدم قبوله، أو على الأقل الشك في صحته. ولا يجوز القول أن لديهم من الإثباتات، أو المستندات، والوثائق ما ليس تحت أيدينا!!

أي مستند؟ ومن أين جاؤوا بمثل هذه المستندات؟ كتابة تاريخ صدر الإسلام ليس من قبيل البحث والتحقيق حول مدينة سبأ، وحمير؛ أو من قبيل قراءة النقوش، والألواح الحجرية للعصر الهاخامنشي، أو البحث حول الأبحاث العلمية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين للميلاد بحيث يمكن القول أن الغربيين لديهم من الأدوات والوسائل ما ليس في متناول أيدينا، والتصديق من جانب واحد بأشياء من هذا القبيل، والتسليم الأعمى ناشيء عن عقدة الحقارة، أو القيام بمهمة ما، أو عدم وجود الفرصة والوقت الكافي للإستقراء، والإستقصاء، والرجوع إلى الأسناد والوثائق الأصلية المختلفة.

وبالطبع فأنا لا أنكر أن أسلوب الغربيين في تحليل المسائل التاريخية في بعض الحالات أدق من أسلوب بعض المؤرخين الشرقيين في الماضي. ولكن حيث أن أصل الحادثة موجود في الأسناد والمصادر التي من الدرجة الأولى فلا معنى لـ« الاجتهاد في مقابل النص».

وليست شكوانا من بعض المستشرقين - يهوداً كانوا أم نصارى - الذين يُجيزون لأنفسهم أن يغيروا الحقيقة، أو أن يفسروها بحيث تتطابق مع عقائدهم، ولا تجوز الشكوى منهم لأنهم معذورون في ذلك، وإنما تعجبنا هو من أصدقائنا المطلعين على

التاريخ كيف يقبلون بما يقوله هؤلاء بشكل كامل ومطلق؟ وكيف أنهم يعتبرون أن كل ما يكتبه هؤلاء حقيقة مُسَلِّمة لا شك فيها ولا تقبل النقض ولا الجرح. وإذا ما بُيِّنَتْ أخطاء هؤلاء الباحثين؛ فإنهم يفضون الطرف عنها بحجة أن هؤلاء لهم علينا حق "المعلم والأستاذ"! ونتيجة هذا الكسل أو التساهل أو الغفلة هي هيمنة اليهود من المستشرقين [وأشباههم] على كرسى تدريس تاريخ الإسلام في عصرنا الحاضر، وأن يكتبوا ما يشاؤون، ثم يُترجم ذلك إلى اللغتين العربية والفارسية، ويصبح مرجع البحث والدراسة والتحقيق للمؤرخين المسلمين.

وأحيانا يقوم اخوتنا الإيرانيون، من باب حسن ظنهم بأخوتهم العرب، بترجمة هذه الكتب -دون أن يُبدوا آراءهم، ووجهات نظرهم حولها- من العربية إلى الفارسية، وتصبح هذه الكتابات التي هي من الأساس معلومات جمع لا خبرة ولا اطلاع لديهم على تاريخ الإسلام كما يجب:

"لَمَّا كَانَتْ فَاطِمَةُ (عليها السلام) [قبيلة المنظر^(١)] بَقِيَتْ فِي بَيْتِ أَبِيهَا حَتَّى سَنِّ السَّابِعَةِ عَشْرَةَ - أَوْ أَكْثَرَ - وَلَمْ يَتَقَدَّمْ لَطَلْبِ يَدِهَا أَحَدٌ، وَعِنْدَمَا قَالَ لَهَا وَالِدُهَا فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ أَنَّ عَلِيًّا (عليه السلام) [يطلب يدك، تجمدت ذهولاً؛ أنه هل يمكن هذا]."

أستجير بالله! إلى أي درجة يصل كتمان الحقيقة، والعداوة وخبث السريرة؟

هؤلاء علماء يريدون بحث وتحليل الحوادث التاريخية على ضوء العلم الجديد؟! ولكن كيف حصلوا على هذا العلم؟ ومن أي مصدر؟ غير معلوم!

إذا كانت ولادة بضعة النبي في السنة الخامسة للبعثة فسناها عند الزواج يتراوح بين التاسعة والعاشر، ولا مجال للحديث.

وإذا كانت ولادتها قبل البعثة بخمس سنوات ولم تتزوج حتى الثامنة عشرة من عمرها

فسبب هذا هو: الوضع الاجتماعي الحرج للمسلمين، والخوف من الأذى والعذاب، والاضطراب العام في الحياة آنذاك، والهجرة إلى الحبشة، وحصار بني هاشم في الشعب من جهة، والحوادث التي تركت أثراً في حياتها الخاصة من قبيل موت أمها خديجة، وعم أبيها طالب من جهة أخرى.

كل هذه الأسباب لم تفسح المجال أمام زواجها، فلم تكن تشاء أن يبقى والدها بعد موت أمها دون أنيس وجليس، كما أننا شاهدنا وجود روايات معتبرة أيضاً ترجع سنة ولادتها إلى السنة الخامسة بعد البعثة النبوية.

وإذا كان الوضع بهذا الشكل فالقصة من أساسها ليست صحيحة.

وإذا تجاوزنا عن هذا الأسلوب، وأردنا اتباع طريقة المؤلف "العالم" وشئنا النظر إلى الحوادث على ضوء الأبحاث الحديثة، ومن زاوية اجتماعية، فإن النتيجة التي نخلص إليها ليست هي التي توصل إليها المستشرق "العالم"! لماذا؟ لأن:

عموم المؤرخين وأصحاب السير مدحوا محمداً ﷺ بجمال الوجه، وتناسب أعضاء البدن، وبحسب ما نعلم فإن خديجة أيضاً كانت امرأة جميلة؛ فمن الطبيعي أن يكون أبناء أب وأم جميلي الوجه ملاح الوجوه؛ وقد تزوجت أخوات فاطمة ؓ الثلاث: وهن زينب، ورقية، وأم كلثوم من رجال شبان، وأغنياء، وذوي منزلة وشهرة؛ ولم يكن أبوهن حينها ذا رياسة أو مال بحيث يمكن القول أن شبان قريش تقدموا لبنات دميمات الوجوه طمعاً في منزلة والدهن.

ما الذي حصل حتى تكون تلك الأخوات الثلاث جميلات وهذه دميمة. وهذا الأمر وإن لم يكن محالاً، ولكنه يحتاج إلى سندٍ ودليلٍ تاريخي. فما هو دليل الباحث المستشرق؟

لقد وصف أصحاب السير بشكل عام البنات الهاشميات حتى الجيل الثاني، والجيل الثالث بجمال الوجه وصباحته.

عندما ذهب الحسن بن الحسن إلى عمّه الحسين ﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ [سيد الشهداء] طالباً إحدى ابنتيه، فقال الحسين ﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ له:

اختر يا بني أحبهما إليك، فاستحيا الحسن، ولم يُحر جواباً.

فقال الحسين (ع):

فإني قد اخترت لك ابنتي فاطمة، وهي أكثرهما شبهاً بأبي فاطمة بنت رسول الله (ص). (١)

وبحسب علمنا كانت فاطمة تتميز بجمال خاص. (٢)

كما ذكر الشيخ المفيد:

«وكانت تُشَبَّه بالبحور العين لجمالها». (٣)

والآن نريد أن نعرف ما هو مصدر ومستند هذا الاكتشاف العلمي لهذا المستشرق "الجليل" الذي يريد أن يبحث كل قصة على ضوء العلم؟ هل هو اجتهاد في مقابل النص؟ أم هو تخبيط في متون التاريخ؟ وهل هو عن عمد أم عن ضعف في عريته؟

لا أعرف! ولكن لما كان "الكذاب ضعيف الذاكرة"، فإن مؤلف الكتاب ترك أثر تخبيط لافترائه وخطئه، فذكر أن مستنده في ذلك هو كتاب البلاذري، وكتاب البلاذري حصراً يجب أن يكون أنساب الأشراف، وهذا الكتاب أمامي الآن:

«كان رسول الله ﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ قال لفاطمة:

- أَنْتِ أَسْرَعُ أَهْلِي لِحَاقًا بِي؛ فَوَجَمْتُ؛ فقال لها: أما ترضين أن تكوني سيدة نساء

١- مقال الطالبين، ص ١٨٠؛ وراجع أيضاً: الأغاني، ج ١، ص ١٤٢؛ إرشاد المفيد، ج ٢، ص ٢٢؛ نسب قريش، ص ٥١.

٢- يرجع إلى: أنساب الأشراف، ص ٥١.

٣- إرشاد، ج ٢، ص ٢٢.

أهل الجنة؟ فتبسمت..» (١)

لا أعرف ولا أعلم هل أن هذا المستشرق "الأمين" قد خلط في نهاية بحثه "العلمي" هاتين الروايتين في بعضهما؟ أو أن ضعف عربيته - كما ذكرت - أدى إلى وقوعه في هذا الخطأ، أم أنه كغالبية المستشرقين يؤدي مهمة خاصة؟ على أية حال النتيجة واحدة، ولدينا الكثير من هذا القبيل من رعاية الأمانة في كتبهم وفي كتب بعض الشرقيين الذين هم "مستشرقون" أكثر من المستشرقين أنفسهم.

هنا يمكن أن يعترض القراء الذين عاشوا على حب آل بيت النبي ﷺ أباً عن جد، ولم يكثرثوا بكلام أعدائهم أو كلام المنحرفين في الأبحاث العلمية بهذا الإعتراض: ما هي ضرورة الاستقصاء والرجوع إلى الأسناد المختلفة حول هذا الموضوع بخصوصه؟ صحيح. هؤلاء القراء رضعوا حب آل بيت النبي ﷺ مع حليب أمهاتهم، وسوف يبقى معهم إلى أن يسلموا أرواحهم لخالقهم، ولن تصغي آذانهم لمثل كلام هؤلاء "الباحثين" وربما لم يقرؤوا، ولن يقرؤوا كتابات هؤلاء أبداً. ولكن يجب علينا أن لا ننسى أن هذا الكتاب، والكتب الأخرى المشابهة التي تكتب حول سيرة آل بيت النبي موجهة لعموم الناس.

منذ مائة سنة أو أكثر اقتربت ثقافتنا من ثقافة الغرب، وفي بعض الحالات وصل الأمر لدرجة الاختلاط، ولا أعلم هل هو من دواعي الأسف أم من دواعي الفرح، فكما نعلم منذ سنوات، وكل واحد من المستشرقين، أو كل مجموعة منهم تولت البحث والتحقيق

والتتبع في حقل محدد من حقول الثقافة الإسلامية، وقد كتبوا كتباً في هذا المجال. وحتى الآن يكتب أساتذة كرسي الإسلام في جامعات أوروبا وأمريكا الشمالية في كل عام عدة كتب حول الإسلام، وتمدنه، وكبريات الشخصيات الإسلامية، وقد نشرت كتب حول حياة الرسول الكريم وبعض الأئمة، وبضعة النبي (ﷺ) أيضاً، وقد نقلت بعض هذه الكتب إلى الفارسية، أو قام البعض باقتباس مضامينها في كتبهم.

وبكل سهولة يمكن شراء ترجمة كتب "لامنس" و"غلديزير" و"دورمنكام" و"لوني ماسينيون" و"برنارد لويس" و"بتروشوفسكي" و"ردينسن" و"كيب" وعشرات المستشرقين الآخرين في دور بيع الكتب في طهران، والمحافظات الأخرى.

أكثر هؤلاء ليست لديهم أمانة علمية، فعالم مثل "بلاشر" الذي صرف سنوات من عمره لنقل القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية، والبحث والتحقيق حول ترتيب نزول الآيات، قام بإضافة آيتين في ترجمته للقرآن، ودون أي إشارة تذكر لذلك، في السورة الثالثة والخمسين - وهما الآيتان اللتان جعلهما ووضعهما القصاصون في أواخر القرن الأول الهجري، وصارتا مستمسكاً لأعداء الإسلام -، وكتب مؤلف هذا الكتاب (١) قبل ثلاثين عاماً فصلاً حول "أسطورة الغرائق".

وقد اكتشفت هذه الحالة من سوء نية "بلاشر" صدفة، وكم ارتكب مثل هذا العمل في أماكن أخرى؟ العلم عند الله.

ونشاهد أشخاصاً من بلادنا يزعمون أنهم يريدون تعريف وتبيين الإسلام بحسب وجهات النظر العلمية والفلسفية فيجعلون من كتابات هؤلاء المستشرقين أو المتخصصين في دراسة إيران سنداً لأبحاثهم، وتكون النتيجة هي أن يصبح علي بن أبي طالب (عليه السلام) واعتماداً على ترجمة خاطئة لـ "فصل ابن حزم" هو «الرأسالي الأكبر لعصره»!! كيف

وصل ابن حزم لهذا الإكتشاف "العلمي"؟

هذا ما لا يهتم ولا يكثرث به مؤلف الكتاب، وبعد مدة يمكن أن تصبح كتابات هذا المؤلف أساساً لأبحاث أشخاص ليس لديهم اطلاع صحيح عن الإسلام، ولا عن اللغة العربية.

وفي نفس الوقت الذي أقدر فيه جهود المترجمين في ترجمة هذه الكتب، أطلب منهم - إذا لم يكن لديهم التزام مسبق ببعض الأفكار والمذاهب الفكرية - أن يكلفوا أنفسهم عناءاً آخر، وهو: أن يقوموا بمقايسة محتويات هذه الكتب مع ما جاء في الكتب التي هي مصادر من الدرجة الأولى (حتى أواخر القرن الخامس الهجري) لئلا يتسببوا - لا قدر الله - عن غير قصد بإبعاد شخص أو أشخاص عن الحقيقة.

وقد تمت ترجمة بعض آثار هؤلاء المستشرقين إلى اللغة العربية، ولما كان الإيرانيون يحسنون الظن بالكتاب العرب، لذلك قبلوا تلك الترجمات دون أي نقاش، وقاموا بترجمتها إلى اللغة الفارسية. وأنا مطلع بشكل أو آخر على نقاط ضعف هذه الترجمات، ولا أقول أن جميع هؤلاء المؤلفين خبيثاء وأعداء للإسلام، من الممكن أن يكون ذلك بسبب عدم الإلمام الكافي باللغة العربية، أو الحكم من خلال أسناد لا تخلو من التعصب؛ ولكنني أعرف بعضهم عن قرب، أو أنني تحاورت وتحدثت مع بعضهم حول هذا الموضوع، وأعلم أنهم يُكنون حقداً في قلوبهم ضد المسلمين لن ينسوه أبداً. لماذا؟

يجب سؤال هؤلاء أنفسهم عن السبب!

أعرف عالماً متخصصاً في دراسة الإسلام لا مثيل له في تخصصه، أو على الأقل أمثاله قليلون؛ وفضلاً عن عدد من اللغات الأوروبية لديه إلمام واسع باللغة العربية، وبناءً على هذا؛ فالمفترض أن يكون مطلعاً على روح الدين الإسلامي، وقوانينه، وتعاليمه، كما هي حقيقته، وهو يعرف أن الفاتحين العرب ليسوا جميعهم على شاكلة واحدة؛ فكثير منهم كانت قلوبهم تتحرق لأجل الدين، والقليل منهم كان همهم الدنيا.

وعرف مؤسس الدين الإسلامي نفسه [محمد (ﷺ)] هاتين الفتيتين جيداً، حيث يقول:

«... قال سمعت رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم يقول:

إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى؛ فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه». (١)

ويحتمل أن يكون هذا المستشرق المحترم قد قرأ هذا الحديث قبلي، ولكن حيث أنه بدأ كتابه بهذه الجملة:

”كانت أرض مصر الخصبة أفضل مخزن غذائي يمكنه أن يُشبع بطون العرب الجائعة“
 أنا لا أقول أن عمرو بن العاص قد وَطَأَ أرض مصر قربة إلى الله تعالى، ورغبة في نشر الدين الإسلامي، فمن المسلم به أنه لم يكن لديه من الإخلاص ما كان عند عقبة بن نافع في أثناء فتح أفريقيا. (مع أنني هنا لا أريد أن أقول أن كل ما قام به عقبة من عمل في شمال إفريقية، ومن جميع الجهات كان صحيحاً)، ولكن كيف كان حال تلك المجموعة من أصحاب النبي (ﷺ) المؤمنين والأوفياء، والتي كانت في ركاب عمرو بن العاص وتوجهت معه إلى وادي النيل؟

هل كان همُّ تلك المجموعة هو ملء بطونها الجائعة؟!

لا أطيل الحديث أكثر من هذا، وأسأل الله لي التوفيق، ولهم الهداية والرشاد.

كما ذكرت سابقاً، وكما ذكر أصحاب الكتب الحديثة والمؤرخون الأوائل والمستندات الأصلية للشيعة والسنة، وبكل صراحة، وما يؤيد كتاباتهم المؤيدات والقرائن الخارجية، كان لبضعة النبي ﷺ من يطلبها ويرغب بها، لكن أباهما اختار لها من بين كل هؤلاء ابن عمها علي بن أبي طالب ليكون زوجاً لها، قال ﷺ: «فو الله لو كان في أهل بيتي خير منه زوجتك، وما أنا زوجتك ولكن الله زوجك، وأصدق عنك الخمس ما دامت السماوات والأرض».^(١)

وقد ذكر ابن سعد:

«قال نفر من الأنصار لعلي عندك فاطمة، فأتى رسول الله، فسلم عليه، فقال: ما حاجة ابن أبي طالب؟ قال: ذكرت فاطمة بنت رسول الله ﷺ. قال: مرحباً وأهلاً».

لم يزد عليه، فخرج علي أولئك الرهط من الأنصار ينظرونه. قالوا: ما وراءك؟ قال: ما أدري! غير أنه قال لي: مرحباً وأهلاً. قالوا: يكفيك من رسول الله إحداهما: أعطاك الأهل وأعطاك الرحب».^(٢)

وكان هذا الاختصاص الذي صار من نصيب علي ﷺ وحصوله على امتياز القبول في طلبه الزواج من فاطمة ﷺ كبر على البعض. وقد نقل المجلسي نقلاً عن عيون أخبار الرضا ما يلي:

١- الرياض النضرة، ج ٢، ص ١٨٢؛ الغدير، ج ٣، ص ٢٠؛ ويرجع إلى فصل "بنت النبي في الشعر العربي" شعر ابن حماد.

٢- الطبقات الكبرى، ج ٨، ص ١٢؛ وانظر: الصواعق المحرقة، ص ١٦٢؛ وارجع إلى أنساب الأشراف، ص ٤٠٢.

« عن علي عليه السلام، قال: قال لي رسول الله ﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾: يا علي! لقد عاتبني رجال من قريش في أمر فاطمة، وقالوا: خطبناها إليك فمنعنا... فَقُلْتُ لهم: والله ما أنا منعتكم وزَوَّجته، بل الله منعكم وزوجه [فهبط علي جبرئيل، فقال: يا محمد إن الله جل جلاله يقول: لو لم أخلق علياً لما كان لفاطمة ابتتك كفو علي وجه الأرض...]»^(١).

وقد أدخلت بعض الروايات أمَّ سلمة في زواج بنت النبي ﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ قال: علي بن عيسى الإربلي في كشف الغمة نقلاً عن مناقب الخوارزمي ضمن قصة طويلة:

«... ولقد خطبها من رسول الله ﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ أبو بكر فقال له رسول الله ﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾: أمرها إلى ربِّها، وخطبها بعد أبي بكر عمر بن الخطاب، فقال له رسول الله ﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ كمقاتته لأبي بكر... فانطلقوا نحوه [أي نحو علي]... فقال أبو بكر... فما يمنعك أن تذكرها [أي فاطمة] لرسول الله ﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ وتخطبها منه؟

قال: ... إنه يمنعني من ذلك قلة ذات اليد.

فقال أبو بكر: ... فإن الدنيا وما فيها عند الله تعالى ورسوله كوياء.

ثم إن علي بن أبي طالب ﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ حلَّ عن ناضحه، وأقبل يقوده إلى منزله، فشده فيه، ولبس نعله، وأقبل إلى رسول الله ﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾، فكان رسول الله ﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ في منزل زوجته أم سلمة ابنة أبي أمية بن المغيرة المخزومي فدق علي ﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ الباب، فقالت أم سلمة: من الباب؟

فقال: لها رسول الله ﷺ قومي يا أم سلمة، فافتحي له الباب، ومريه بالدخول، فهذا رجل يحبه الله ورسوله، ويحبهما...
قالت أم سلمة، فَقُمْتُ مبادرة أكاد أن أعثر بمرطي...»^(١)

هذه الرواية التي هي عبارة عن حديث مرفوع، أي أن سندها ليس متصلًا، باحتمال قوي، بل باطمئنان يمكن القول أنها بهذا الشكل ليست صحيحة، لأن أم سلمة واسمها هند بنت أبي أمية حذيفة بن المغيرة بن عبد الله الأسدي بن هلال بن عبد الله بن عمرو ابن مخزوم قبل أن تتزوج من رسول الله ﷺ كانت زوجة أبي سلمة عبد الأسود بن هلال بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم.

كان أبو سلمة وامرأته من المهاجرين إلى الحبشة^(٢) ورجعوا إلى مكة عندما كان النبي ﷺ لا يزال فيها^(٣)، ثم هاجر أبو سلمة إلى المدينة، وقد شهد معركة بدر^(٤)، وفي معركة أحد رماه أبو أسامة الجشمي بسهم^(٥)، ولكنه خرج من المعركة حيًّا، وبعد هجرته إلى المدينة بثلاثين شهراً قادَ سَرِيَّةً إلى " فطن "^(٦)، وقد غَنِمَ أيضاً من غنائم بني النضير^(٧)، وقد فارق الحياة في جمادى الآخرة من السنة الرابعة للهجرة، وبعد أن قُضت

-
- ١- كشف الغمة، ج ١، ص ٣٥٤؛ وانظر: البحار، ج ٤٣، صص ١٢٥ - ١٢٦؛ ويرجع إلى ناسخ التواريخ، ص ٣٨ وما بعدها.
 - ٢- أنساب الأشراف، ص ٤٢٩.
 - ٣- ابن هشام، ج ٢، ص ٣٩٠.
 - ٤- مغازي الواقدي، ص ١٥٥.
 - ٥- أنساب الأشراف، ص ٤٢٩.
 - ٦- الواقدي، ص ٣٤٠.
 - ٧- الواقدي، ص ٣٨٠.

أم سلمة عدتها تزوجها النبي ﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ في شوال من السنة الرابعة للهجرة (١). ومع ذلك يمكن القول أن أم سلمة كانت تتردد على بيت رسول الله ﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ في حياة زوجها، ولكنَّ ظاهر الرواية أنها كانت زوجة النبي ﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ عندما جاء علي ﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾، وهذا ليس بصحيح. هذا هو المجلسي ينقل عن أمالي الشيخ الطوسي:

«... [قال سمعت] علي بن أبي طالب يقول: أتاني أبو بكر وعمر، فقالا: لو أتيت رسول ﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ فذكرت له فاطمة.

قال: فأتيتها فلما رأني رسول الله ﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ ضحك، ثم قال: ما جاء بك يا أبا الحسن [وما] حاجتك؟ قال: فذكرتُ له قرابتي، وقدمي في الإسلام، ونصرتي له، وجهادي، فقال: يا علي! صدقت، فأنت أفضل مما تذكر. فقلت: يا رسول الله! فاطمة تزوجنيها.

فقال: يا علي إنَّه قد ذكرها قبلك رجال، فذكرت ذلك لها، فرأيت الكراهة في وجهها، ولكن علي رسلك حتى أخرج إليك. فدخل عليها... وقال لها: إنَّ علي بن أبي طالب من قد عرفت قرابته، وفضله وإسلامه... فسكتت، ولم تُول وجهها، ولم يرفيه رسول الله ﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ كراهة، فقام وهو يقول: الله أكبر! سكوتها إقرارها» (٢).

وقد أورد الشيخ الطوسي في الأمالي

عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: لما زوّج رسول الله (صلى الله عليه وآله) فاطمة علياً (عليهما السلام) دخل عليها وهي تبكي، فقال لها: ما

١- أنساب الأشراف، ص ٤٢٩؛ والطبقات، ج ٨، ص ٦.

٢- أمالي، ج ١، ص ٣٩٠.

بيكيك؟ فوالله لو كان في أهل بيتي خير منه زوجتك، وما أنا زوجتك ولكن الله زوجك، وأصدق عنك الخمس ما دامت السماوات والأرض. (١)

وذكر أيضاً مؤلف كشف الغمة، وعنه نقل المجلسي:

« قال علي لرسول الله ﷺ: »

... فذاك أبي وأمي! إنك لتعلم أنك أخذتني من عمك أبي طالب ومن فاطمة بنت أسد وأنا صبي لا عقل لي، فغذيتني بغذائك وأدبتني بأدبك، فكنت لي أفضل من أبي طالب ومن فاطمة بنت أسد في البر والشفقة، واستنقذتني مما كان عليه آبائي وأعمامي من الحيرة والشك، وإنك والله يا رسول الله ذخري وذخيرتي في الدنيا والآخرة.

يا رسول الله! فقد أحببت مع ما [قد] شد الله من عضدي بك [أن يكون لي بيت و] أن تكون لي زوجة أسكن إليها، وقد أتيتك خاطباً راعباً، أخطب إليك ابنتك فاطمة، فهل أنت مرؤجي يا رسول الله؟

قالت أم سلمة: فرأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل فرحاً وسروراً، ثم تبسم في وجه علي ﷺ، فقال:

يا أبا الحسن فهل معك شيء أزوجه بك به؟

فقال له علي: [فذاك أمي وأبي والله] ما يخفى عليك من أمري شيء، أملك: سيفي، ودرعي، وناضحي، وما أملك شيئاً غير هذا.

فقال له رسول الله ﷺ:

يا علي! أما سيفك فلا غنا بك عنه، تجاهد به في سبيل الله، وناضحك تنضح به على نخلك، وأهلك، وتحمل عليه رحلك في سفرك، ولكني قد زوّجتك بالدرع، ورَضيتُ بها منك» (١).

ولكن - كما أسلفنا - لو أنّ أم سلمة كانت حاضرة في أثناء ذلك، فإن حضورها كان مصادفة محضة؛ لأنها في ذلك الوقت لم تكن زوجة للنبي ﷺ.

وقد ذكر الزبير بن البكار في كتابه الموفقيات الذي يُعدّ من المصادر القديمة كلام علي عليه السلام بهذا الشكل:

عن علي عليه السلام ... دخلت على رسول الله ﷺ، وكان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جلالته وهيبته. فلما قعدت بين يديه أفحمت، فوالله ما أستطعت أن أتكلم.

فقال رسول الله ﷺ: يا أبا الحسن (٢) ما جاء بك؟ ألك حاجة؟ فسَكَتَ؛

١- كشف الغمة، ج ١، ص ٣٥٥؛ بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ١٢٦.

٢- يُشاهد هذا التعبير: "أبو الحسن" في بعض الروايات الأخرى أيضاً، وعادة ما تكون الكنية مأخوذة من اسم الولد الأول (مع أن هذا ليس شرطاً)، ويُحتمل أن يكون علي عليه السلام عند روايته للرواية قد أتى بكنيته بدلاً عن اسمه، أو قام الرواة بذلك.

فقال: لعلك جئت تخطب فاطمة؟

فقلت: نعم ...

قال: ما فعلت درع سلحتكها ...

فقلت: عندي،

فقال: قد زوّجتكها، فابعث إليها بها، فاستحلها بها. (١)

وقد ذكر ابن سعد في بعض رواياته بدلاً عن الدرع جلد شاة، وقميصاً يمانياً بالياً. وقال بعضهم أن علياً باع بغيره، وجعل ثمنه مهراً لها.

كم كان ثمن الدرع؟ أو كم كان المهر؟ ذكر الحميري مؤلف كتاب قرب الإسناد أنه ثلاثون درهماً (٢)، وزاد آخرون إلى (٤٨٠) درهماً. وقال ابن سعد في إحدى رواياته أن ثمن الدرع كان أربعة دراهم (٣)، وهو ما أظنه تصحيف أربعمئة، أي أنه ذكر عدد أربعمئة على شكل أربع. وذكر ابن قتيبة أن ثمن الدرع ثلاثمئة، وفي رواية أخرى (٤٨٠) درهماً (٤). نعم كان مهر بضعة النبي ﷺ أربعمئة درهم! يزيد قليلاً أو ينقص قليلاً، هذا هو وحسب.

وقد تم الزواج بهذه البساطة! وهو أي الزواج قرانٌ مقدسٌ يجب أن يقترن فيه

١- الأخبار الموفقيات، ص ٣٧٥، وراجع: كشف الغمة، ج ١، ص ٣٨٤؛ بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ١١٩.

٢- بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ١٠٥.

٣- ابن سعد، طبقات، ج ٨، ص ١٢. (... كان ثمنها أربعة دراهم).

٤- عيون الأخبار، ج ٤، ص ٧٠.

شخصان ليتشاركا هموم الحياة، وأفراحها، وليس بضاعة للبيع حتى يتناول فيها المشتري والبائع حول ثمنها. وأياً كانت تلك البضاعة، درعاً أو جلد شاة، أو قميصاً يمانياً، فقد بيعت، وجُلب ثمنها إلى النبي ﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾، ودون أن يُعدها النبي ﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ أعطى قسماً قليلاً منها إلى بلال، وقال له: اشتر بهذه النقود طيباً، وأعطى ما تبقى لأبي بكر، وقال: هبىء بهذا ما يُحتاج إليه. وذهب عمار بن ياسر وعدد من أصحابه مع أبي بكر ليهيئوا للزهراء جهازاً بحسب ما يرى.

وذكر الشيخ الطوسي فهرستاً (قائمة) للأشياء التي اشترت كجهاز:

«فكان مما اشتروه:

- قميص بسبعة دراهم.
- وخمار بأربعة دراهم.
- وقطيفة سوداء خييرية.
- وسرير مزمل بشريط.
- وفراشان من جنس مصر، حشو أحدهما ليف، وحشو الآخر من جز الغنم.
- وأربع مرافق من آدم الطائف حشوها إذخر. (١)
- وستر من صوف.
- وحصير هجري. (٢)
- ورحى اليد.
- ومخضب من نحاس.

١- عشب مكى، نبات البوريا، عشب ورقه صغير، ولورقه خواص دوائية أيضاً.

٢- وكان المراد من "هجر" هنا هو عاصمة البحرين ومركزها، و"هجر" ضيعة قرب المدينة أيضاً.

- وسقي من آدم.
- وقعب للبن.
- وشيء للماء.
- ومِطْهَرَةٌ (١) مزفتة.
- وجرة خضراء.
- وكيزان خرف» (٢).

حتى إذا استكمل الشراء حمل أبو بكر بعض المتاع وحمل أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) الذين كانوا معه الباقي، فلما عرضوا المتاع على رسول الله (صلى الله عليه وآله) جعل يقلبه بيده ويقول بارك الله لأهل البيت (٣).

وحان وقت خطبة الزواج.

ذكر كل من ابن شهر آشوب في المناقب، والمجلسي في البحار، وجمع من علماء ومحدثي الشيعة الخطبة بعبارات وأشكال مختلفة، وقد اخترت الرواية التالية لها، والتي ذكرها أغلب المحدثين، ومن أراد المزيد من التفاصيل فليراجع بحار الأنوار:

الحمد لله المحمود بنعمته، المعبود بقدرته، المطاع في سلطانه، المرهوب من عذابه، المرغوب إليه فيما عنده، النافذ أمره في أرضه وسمائه، الذي خلق الخلق بقدرته، وميّزهم بأحكامه، وأعزهم بدينه،

- إبريق صغير يستعمل للطهارة.
- أمالي، الطوسي، ص ٤١.
- الأمالي، ج ١، ص ٣٩.

وأكرمهم بنبيّه محمّد؛ ثم إن الله جعل المصاهرة نَسَبًا لاحقاً، وأمراً مفترضاً، وشجّ بها الأرحام، وألزمها الأنام، فقال تبارك اسمه وتعالى جدّه: ﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً، فجعله نسباً وصرها﴾^(١).
ثم إن الله تعالى أمرني أن أزوج فاطمة من علي وقد زوجتها إياه علي أربعمئة مثقال فضة إن رضيت يا علي!
قال: رضيتُ يا رسول الله.

وكما ذكرنا، فإن ابن شهر آشوب ذكر الخطبة بهذه الصيغة في المناقب^(٢)، ونقلها المجلسي^(٣) أيضاً بهذا الشكل نقلاً عن كشف الغمة، وبعدها يوجد سطر اضافي.
في حين جاء ابن مردويه بهذه الخطبة بعبارة أخرى.
يمكن الرجوع إلى تلك الخطبة التي قالها علي ﴿ع﴾ في قبوله الزواج في البحار والمناقب.

وهكذا قرئت خطبة عقد القران، وصارت الزهراء زوجة علي ﴿ع﴾، وأعدّ جهاز بيتها أيضاً بالشكل الذي تعرضنا له سابقاً، ولكن انتقال الزهراء ﴿ع﴾ من بيت أبيها إلى بيت زوجها طال مدة من الزمن، وقال المجلسي في روايته أن تلك المدة كانت شهراً من الزمن في حين أوصلها غيره إلى مدة سنة وأكثر.
أجل! لا يبدو للبحث والتحقيق في هذه الجزئيات كثير أهمية، سواء كانت المدة شهراً أو عاماً.

في آخر الأمر ذهب عقيل إلى بيت النبي ﴿ص﴾، وطلب منه أن يرسل معه فاطمة إلى

١- الفرقان: ٥٦.

٢- ج ٣، ص ٣٥٠.

٣- البحار، ج ٤٣، ص ١١٩.

بيت علي عليه السلام، ووافقته في طلبه بعض النساء، وفي النهاية أخذت فاطمة من قبل مجموعة من النساء إلى بيت علي عليه السلام، وقد أنشد شعراء الشيعة في القرن الأول والثاني الهجريين، كالكميت، والسيد اسماعيل الحميري، وديك الجن أيضاً الذي توفي في أوائل القرن الثالث الهجري قصائد غراء حول خطوبة بضعة النبي، وزواجها من علي عليه السلام، والزواج، ومقدار مهر بنت النبي، وهي موجودة في كتب التذكرة والتراجم. وفي الليلة التي قرر أن تنقل فيها العروس إلى بيت زوجها قال رسول الله (صلى الله عليه وآله):

- يا علي! إنه لا بد للعروس من وليمة. فقال سعد:

- عندي كبش، فبعث إليه كبشاً سمينا، وهياً الأنصار أصعا (عدة ساعات) من الذرة. (١)

وروى الزبير بن البكار عن طريق عبد الله بن أبي بكر عن علي عليه السلام:
قال علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام:

لما أردت أن أجمع فاطمة أعطاني رسول الله صلى الله عليه وآله مصراً (٢)
من ذهب، فقال: اتبع بهذا طعاماً لوليمتك.

فخرجت إلى محافل الأنصار، فجئت إلى محمد بن مسلمة في جرين له
قد فرغ من طعامه، فقلت له:
- بعني بهذا المصر طعاماً.

- الأخبار الموفقيات، ص ٣٧٦.

- المصر بمعنى الستارة أو الظرف والوعاء، ومع أن كتاب الزبير من الكتب التي تعتبر من الوثائق الأصلية الأولية ولكن كيف يمكن القبول بأن مجهول البائع الأنصاري في مدينة صغيرة، وفي السنة الثانية للهجرة، وبعد معركة بدر الكبرى علياً عليه السلام بحيث يضطر لأن يسأله عن نفسه ليتعرف عليه؟! مع أن هذا ليس مستحيل الحصول إلا أنه مستبعد!

- فأعطاني حتى إذا جعلت طعامي قال: من أنت؟
 - قلت: علي بن أبي طالب.
 - فقال: ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله؟
 - فقلت: نعم.
 - قال: وما تصنع بهذا الطعام؟
 - قلت: أعرس.
 - فقال: بمن؟
 - فقلت: بابنة رسول الله صلى الله عليه وآله.
 - قال: فهذا الطعام، وهذا المصّر الذهب فخذ، فهما لك.
 فأخذته، ورجعت، فجمعت أهلي لي.

ودعا النبي بالبركة والذرية الكثيرة المباركة والطيبة فقال عليه السلام: «بارك الله عليكما...
 وأخرج منكما الكثير الطيب»^(١).

وقد ذكر ابن سعد في رواية أخرى ينتهي سندها بأسماء بنت عميس:
 «ولقد أولم علي بن فاطمة، فما كانت وليمة في ذلك الزمان أفضل من وليمته:
 أرهن درعه عند يهودي بشطر شعير»^(٢).

وروى ابن شهر آشوب عن ابن بابويه ما يلي:

١- راجع: المنافق، ج ٣، ص ٣٥١.
 ٢- طبقات، ج ٨، ص ١٤ [ص ٢٣]؛ ويجب الانتباه إلى أنَّ أسماء بنت عميس -كما سنذكر لاحقاً- في هذه الأثناء كانت مع زوجها جعفر بن أبي طالب في الحبشة.

أمر النبي بنات عبد المطلب ونساء المهاجرين والأنصار أن يمضين في صحبة فاطمة وأن يفرحن، ويرجزن، ويكبرن، ويحمدن، ولا يقولن ما لا يرضي الله.

قال جابر: فأركبها على ناقته (وفي رواية على بغلته الشهباء) وأخذ سلمان زمامها وحولها سبعون حوراء، والنبي، وحزمة، وعقيل، وجعفر، وأهل البيت يمشون خلفها مشهريين سيوفهم، ونساء النبي (ص) قدامها^(١) يرجزن.

فقال أم سلمة:

واشكرنه في كلِّ حالات
من كشف مكروهٍ وآفات
أنعشنا ربَّ السَّمَاواتِ
تُفدئُ بعمَّاتٍ وخالاتٍ
بالوحي منه والرَّسالاتِ

سِرْنَ بِعَوْنِ اللَّهِ يَا جَارَاتِي
وَاذْكُرْنَ مَا أَنْعَمَ رَبُّ الْعَالِي
فَقَدْ هَدَانَا بَعْدَ كُفْرٍ وَقَدْ
وَسَرْنَ مَعَ خَيْرِ نِسَاءِ الْوَرَى
يَا بِنْتَ مَنْ فَضَّلَهُ ذُو الْعَالِي

وأنشدت عائشة:

واذكرن ما يحسن في المحاضر

يا نسوة استرن بالمعاجر

بدينه مع كلِّ عبد شاكر
والشكر لله العزيز القادر
وخصَّها منه بطهر طاهر

واذكرون ربَّ النَّاسِ إِذْ خَصَّنَا
فالحمد لله على أفضاله
سرن بها فالله أعلى ذكرها

وأنشدت حفصة:

ومن لها وجه كوجه القمر
بفضل من خصَّ بآي الزَّمر
أعني علياً خير من في الحَضْر
كريمة بنت عظيم الخطر

فاطمة خير نساء البشر
فَصَلَّكَ اللهُ على كلِّ الورى
زَوْجِكَ اللهُ فتىً فاضلاً
فَسِرْنَ جاراتي بها إنَّها

وكانت معاذة أم معاذ بن جبل تقول :

وأذكر الخير وأبديه
ما فيه من كبر ولا تيه
فالله بالخير مجازيه
ذي شرف قد مكنت فيه
فما أرى شيئاً يدانيه

أقول قولاً فيه ما فيه
محمد خير بني آدم
بفضله عرفنا رشدنا
ونحن مع بنت نبي الهدى
في ذروة شامخة أصلها

وكانت نساء أهل البيت يكررن البيت الأول من كل رجز.

وكما - ذكرت سالفاً - ما أتيت به هو نقلاً عن مناقب ابن شهر آشوب الذي ذكر أن سنده هو كتاب مولد فاطمة، ورواية ابن بابويه الذي هو من كبار علماء الإمامية، ولكن قبول هذه القصة بهذا الشكل صعب، وأول ما يجعلنا نتردد هو أنه يقول:

نساء النبي كن يمشين أمام البغلة التي تحمل فاطمة عليها السلام، وهذا المؤلف نفسه يذكر أن زواج فاطمة عليها السلام كان في ذي الحجة من السنة الثانية للهجرة ^(١)، في حين أنه - وكما ذكرنا سابقاً - كان زواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أم سلمة في السنة الرابعة، ومن حفصة بعد معركة بدر ^(٢)، وفي سنة زواج الزهراء عليها السلام، وكما أسلفنا، فإن نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك الحين هن: سودة، وعائشة فقط، ثم اتنا نشاهد عائشة تقول لجاراتها:

"...استرن بالمعاجر..."

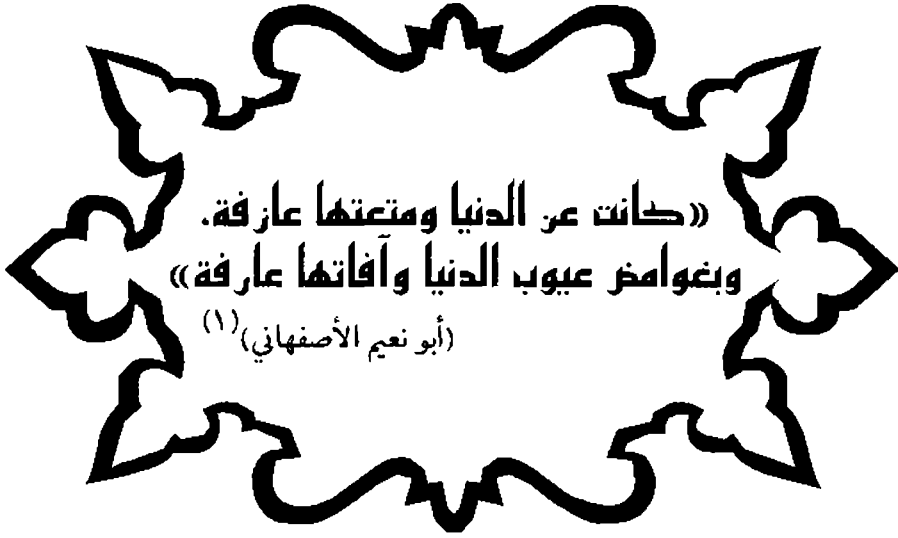
في حين أن الأمر بوجود الحجاب ولبس الجلباب الموجه إلى نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد جاء ضمن سورة الأحزاب ^(٣)، وكما نعلم فإن هذه السورة نزلت في السنة الخامسة للهجرة.

ثم إن الرواية تذكر أن جعفرأ هو من ضمن المشيعين، في حين أن جعفر كان في هذا الوقت في الحبشة، وسوف نذكر المزيد حول هذا الموضوع توضيحاً في الصفحات التالية.

١- ج ٣، ص ٣٥٧.

٢- مات زوج حفصة "خنيس بن حذافة" بعد معركة بدر.

٣- الأحزاب / ٣٣: ٥٣.



حياة فاطمة الزهراء (عليها السلام) في بيتها الزوجي نموذج مثالي، وحياتها بكاملها مثل أسمى؛ لأنها هي بنفسها مثل سام، ولأن أباهما وزوجها وأبناءها نماذج مثالية للمسلم المتحلي بالفضيلة والخلق الإنساني الرفيع. أناس ينهضون من بين الناس، يعيشون مع الناس، يمشون كسبقة الناس، يأكلون ويلبسون، ولكن لهم طبع أسمى من كل الغرائز، وأسمى من الملائكة، فطرة تتصل بالله.

أناس يتألمون لألم الناس، أو أنهم يعرفون الآلام التي يعاني منها الناس؛ فيسعون بعملهم وسلوكهم وتصرفهم وتعاملهم ليمنحوا الناس شفاءً، وإذا لم يتمكنوا فإنهم يشاركونهم التعب والعناء، وفي بعض الأحيان يتحملون الألم ليتعافى الآخرون ويتمثلون للشفاء. أمثال هؤلاء الناس هم الأطباء الإلهيون، وتلامذة الحق، والمصداق الكامل لهذا البيت:

كَلَّ يَرِيدُ رَجَالَهُ لِحَيَاتِهِ يَا مَنْ يُرِيدُ حَيَاتَهُ لِرَجَالِهِ (١)

يرون الفضل في السمو بالروح لا في تربية البدن وما يحتاج إليه؛ وإذا كانوا يعيشون بالبدن؛ فلأجل أن يُعَلِّمُوا الآخرين الحياة الصحيحة.

يقولون لهم: عندما تعيش مع الناس فليس لك وجود، ويجب أن تعيش لأجل خدمة هؤلاء الناس، ويصلون في حدِّ الإنسانية بحيث يقول واحدهم:

«... كيف أبيت مبطناً وحوالي بطون غرثي، وأكباد حرثي؟» (٢)

والزهراء ﴿ع﴾ التي هي خريجة هذه المدرسة حديثة العهد بالزواج، وجهازها يعادل ثمن درع بالغ (٤٠٠) درهم، وأثاث بيتها عدد من الطُّوس والجرار الخَزَفِيَّة.

واضح تماماً كيف ستعيش في بيت زوجها؟

فاطمة ﴿ع﴾ الآن على أهبة الاستعداد للذهاب إلى بيت زوجها، فيقدم لها والدها آخر درس، وقبل هذا تعلمت منه دروساً كثيرة كهذا.

ولكن الدروس الأخلاقية يجب أن تتوالى، وتتابع إلى أن تُصيح على أثر التمرين، والممارسة العملية على شكل مَلَكَة نَفْسَانِيَّة على الرَّغم من عدم حاجتها هي للتمرين. ولكن على كل حال تبقى إنساناً، وعلى ارتباط مع قريباتها من النساء، ومع جاراتها:

١- المتنبي، الديوان، ج ٣، ص ١٩٠.

٢- انظر كتاب أمير المؤمنين ﴿ع﴾ إلى عثمان بن حنيف: [نهج البلاغة، ج ٤، ص ٥٠].

« يا بنية! ما أبوك بفقير، ولا بعلك بفقير، ولقد عرضت عليّ خزائن الأرض من الذهب والفضة فاخترت ما عند الله ربي عز وجلّ.
يا بنية! لو تعلمين ما علم أبوك لسمجت الدنيا في عينك». (١)

وجاء في بعض الروايات :

ثم انصرفت النسوة، ... فتخلفت أسماء بنت عميس:

- [فقال لها رسول الله]: كما أنت عليّ رسلك من أنت؟

- قالت: التي تحرس ابنتك، فإن الفتاة ليلة يُبنى بها لا بُدَّ لها من امرأة تكون قريبة منها، إن عرضت لها حاجة أو أرادت شيئاً أفضت بذلك إليها. (٢)

أورد صاحب كشف الغمة القسم الأخير من القصة بهذا الشكل، كما ذكرها أبو نعيم الأصفهاني عندما ترجم لأسماء بنت عميس (٣)، وكما ذكرنا سابقاً فإن جعفر بن أبي طالب وزوجته أسماء من أوائل المهاجرين إلى الحبشة (٤)، وقد رجعت أسماء مع زوجها جعفر إلى المدينة في السنة السابعة للهجرة عند فتح خيبر، وقد قال النبي ﷺ « عند رجوع جعفر من الحبشة:

« ما أدري بأيهما أنا أسرُّ: بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟ » (٥).

١- كشف الغمة، ج ١، ص ٣٦٣.

٢- المصدر السابق، ص ٣٥١.

٣- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دارالكتاب العربي، بيروت - لبنان، ج ٢، ص ٧٥.

٤- راجع: ابن هشام، ج ١، ص ٣٤٥؛ وابن سعد، ج ٨، ص ٢٠٥.

٥- ابن هشام، ج ٣، ص ٤١٤.

وبناءً على ما سبق، لا يمكن القول أن أسماء كانت في المدينة ليلة زفاف فاطمة. وإذا كانت الرواية صحيحة في الأصل، وإذا لم يُخطئ الراوية في كتابة اسمها، فيُحتمل أن تكون هذه المرأة هي "أسماء ذات النطاقين" بنت أبي بكر، وزوجة الزبير بن العوام؛ وما يبعث على العجب هو أن أبا نعيم الأصفهاني أتى بقصة هجرة أسماء إلى الحبشة ورجوعها ونزاعها مع عمر على أن الذين هاجروا إلى الحبشة لهم أفضلية على المهاجرين إلى المدينة؛ ثم جاء بحديث أسماء مع النبي (ﷺ) مباشرة، ودون أي فصل في ليلة زفاف فاطمة (عليها السلام) (١).

كتب أحد الفضلاء المعاصرين كتاباً تحت عنوان: "فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد" وقد طبع كتابه قبل ثلاث سنوات في بيروت، وبعد أن واجه مثل هذه المشاكل [الروائية]، وبعد أن جاء بأقوال العلماء السابقين التي تبنتني على عدم إمكانية حضور أسماء بنت عميس في هذا الزفاف، قال:

«والذي يقوى عندي أن الحل الصحيح، والجواب المعقول أن أسماء هذه هي أسماء بنت عميس الخثعمية، زوجة جعفر بن أبي طالب، وأنها هاجرت مع زوجها إلى الحبشة، ولكنها رجعت إلى مكة، وهاجرت إلى المدينة، ولعلها كررت سفرها إلى الحبشة؛ لأن المسافة من جدة إلى الحبشة هي مسافة عرض البحر الأحمر، وليس قطع هذه المسافة بالصعب المستصعب ذهاباً وإياباً.» (٢)

ولكن المؤلف الجليل نسي أمراً مهماً، وهو أن الأحداث التاريخية لا تتبع فرضياتنا وتصوراتنا، وإذا كان الأصولي أو الفقيه عند تعارض الأخبار يلجأ إلى الجمع العرفي أو

١- حلية الأولياء، ج ٢، صص ٧٤-٧٥.

٢- فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد، ج ٢ ص ٢٠٤. [الناشر: المعرض الدائم للكتاب].

الفقاهتي ما أمكنه ذلك؛ فلأجل أن مدلول الرواية له أثر عملي، أي أنه مُيَّن لأحد الأحكام التكليفية الخمسة، ولا يجوز للفقهاء أن يرفع يده عن الأمارات ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. ولكن مثل هذا الجمع [الفقهي] لا يمكن قبوله في القصص التاريخية، وعلى فرض قبوله فعلى الأقل يجب أن يكون لدينا سند تاريخي يشير ولو إجمالاً إلى مسألة التردد المتعدد للمهاجرين من مكة إلى الحبشة، ونحن نعلم أن فئة من مهاجري الحبشة قبل الهجرة [النبوية] إلى المدينة عادت إلى مكة، وذلك عندما سمعت، أو توهمت أن قريشاً قد تخلت عن معارضتها للنبي.

وقد سجل ابن هشام أسماء هؤلاء واحداً واحداً، وأنسابهم، ولا يُشاهد في أي سند أقل إشارة إلى رجوع جعفر بن أبي طالب، أو زوجته أسماء بنت عميس؛ ثم إذا كان السفر من الحجاز إلى الحبشة عن طريق عبور البحر الأحمر عرضاً مسيراً في يومنا هذا؛ فإن هذا الأمر بحد ذاته ليس بدليل على أن الأمر كان على هذه الشاكلة من السهولة قبل ألف وأربعمائة سنة، والأشخاص الذين كانوا يلجؤون إلى بلد غريب خوفاً على أرواحهم، أو هرباً من التعذيب الجسدي ليسوا كتاجر، أو رحالة يتنقل دائماً، وباستمرار من مكان إلى آخر.

وفضلاً عن كل ذلك في أيدينا سند من القرن الثاني الهجري جاء فيه قصة هجرة أسماء بنت عميس بالتفصيل، وهو كتاب نسب قريش لمؤلفه أبي عبد الله مصعب بن عبد الله بن مصعب الزبيري، وكتاب مصعب ليس له صبغة دعائية، بل هو تقرير دقيق مأخوذ عن الروايات التي من الدرجة الأولى، وقد جاء فيه حول أسماء: لما ذهب جعفر بن أبي طالب إلى الحبشة اصطحب معه زوجته أسماء بنت عميس، فولدت له في الحبشة: عبدالله، ومحمد، وعون. وبعد عدة أيام من ولادة عبدالله ولد للنجاشي ولد، فأرسل إلى جعفر يسأله:

- ماذا أسميت ابنك؟

- عبدالله !

فسمى النجاشي ابنه عبدالله، وتولت أسماء إرضاعه له، ولهذا صار لها منزلة عنده، فلما عزم جعفر على الرجوع مع من رجع من المسافرين في السفينتين حمل معه أسماء وأولاده الذين ولدتهم له في الحبشة، وجاؤوا جميعاً إلى المدينة، وبقوا فيها إلى أن ذهب جعفر إلى مؤتة واستشهد فيها. (١)

هذا السند من أقدم الأسناد [تاريخياً] وفي الوقت نفسه من أوضح الأسناد حول أسماء بنت عميس، ونحن نعلم أن جعفرأ جاء إلى المدينة في السنة السابعة للهجرة بعد الفراغ من فتح خيبر. كما أن قصة هجرة جعفر باعتباره واحداً من الفئة الثانية التي هاجرت إلى الحبشة، قد جاءت في سيرة ابن هشام (٢) وأنساب الأشراف للبلاذري.

ذكر البلاذري:

« جعفر بن أبي طالب ... هاجر في المرة الثانية، ومعه امرأته ابنة عميس، ولم يزل مقيماً بالحبشة، وكان أبو طالب يتعهده... ثم قدم منها هو وجماعة أقاموا معه من المسلمين، وجماعة أسلموا من الحبش، وقد قَتَح رسول الله ﷺ خيبر» (٣).

إذاً فالروايات التي تذكر أن أسماء كانت حاضرة في مكة عند موت خديجة، أو أنها كانت في المدينة ليلة زفاف فاطمة عليها السلام قائمة ومبتنية على الخلط، واللبس الذي كثيراً

١- نسب قريش، ص ٨١.

٢- ج ١، ص ٣٤٥.

٣- ص ١٩٨.

ما يُشاهد في التقارير [التاريخية].

بعد الزفاف بثلاثة أيام، يذهب [النبي] لزيارة ابنته ويدعو للزوج والزوجة، ويعيد ذكر فضائل علي عليه السلام ثم يرجع إلى بيته، ولكن يبدو أنه لا يستطيع تحمل بُعد ابنته، ولو هذه المسافة القصيرة. سنوات وفاطمة ليلاً ونهاراً إلى جانبه، فضلاً عن كونها ابنته كانت تُبقي ذكري خديجة حية في نفسه.

« خديجة وأين مثل خديجة؟ صدقتني حين كذّبتني الناس ووازرني علي دين الله بإيمانها ومالها... » (١)

كان يريد أن تبقى ذكري خديجة دائماً إلى جانبه، ولكنها الآن زوجة علي، ويجب عليها أن تكون في بيته. إذاً هياً لهما حُجرة قريبة من بيته فسيرتاح باله، ولكن ربما أدى هذا إلى وقوع مسلمي المدينة في المشقة.

في خاتمة المطاف أراد أن يُسكنها في منزله، ولكن هذا أيضاً صعب وشاق؛ لأن زوجته (سودة وعائشة) في بيته الآن؛ فبلغ ذلك الحارثة بن النعمان، فأتى إلى النبي عليه السلام ... فقال:

«... هذه منازلنا وهي أقرب لبيوت بني النجار، وإنما أنا ومالي لله ولرسوله، والله يا رسول الله: المال الذي تأخذ مني أحب إلي من الذي تدع.

فقال رسول الله:

- ... بارك الله عليك.

فحولها رسول إلى بيت حارثة». (١)

كانت السنة الثانية للهجرة، والسنوات التي بعدها سنوات شديدة العسرة على النبي ﷺ والمسلمين، سواء من ناحية الأوضاع السياسية، أم من ناحية الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية.

عندما تمّ عقد عهد المدينة (٢) شرع اليهود بمعاداة النبي مع كونهم يتمتعون بحقوقهم السياسية والاجتماعية كاملة، وذلك لأسباب لا يتسع هذا الكتاب لتفصيلها (٣)، وتمادوا في ذلك إلى أن قطع المسلمون بأمر قرآني علاقتهم معهم بشكل نهائي، وزاد تغيير القبلة من المسجد الأقصى إلى الكعبة من حقد هؤلاء على النبي ﷺ.

كما كان في يثرب فئة أخرى تعمل ضد المسلمين تحت غطاء الإسلام وكان زعيم هذه الفئة هو عبد الله بن أبي سلول.

كان يحلم عبد الله بزعامة المدينة، وحكومتها قبل هجرة النبي ﷺ إليها، كما أنّ مقدمات ذلك كانت قد هيئت له، ولكن هجرة النبي ﷺ من مكة إلى هناك حرّمته من هذا المجد؛ وأسلم عبد الله، وأتباعه في الظاهر، ووقفوا إلى جانب النبي، لكنّ قلوبهم لم تكن معه، ولا سيما شخص عبد الله الذي لم يكن يتوان عن توجيه الضربات للإسلام كلما

١- ابن سعد، طبقات، ج ٨، ص ١٤؛ ويرجع إلى: الإصابة، ج ٨، ص ١٥٨، القسم الأول؛ والأخبار الموفقيات، ص ٣٧٦.

٢- راجع: تحليلي از تاريخ اسلام [=تاريخ تحليلي اسلام= الطبعة العربية تحت عنوان: تاريخ الإسلام التحليلي]، للمؤلف، صص ٣٩-٥٣.

٣- راجع المصدر السابق، ص ٥٥.

سنحت له الفرصة، كما حصل في معركة أحد عندما ساعد بتراجعه على هزيمة المسلمين. حادثتا الرجيع^(١) وبئر معونة اللتان استشهد فيهما أكثر من أربعين مسلماً من خيرة المسلمين ساعدتا على تناول الأعداء أكثر، ولحوق القبائل التي كان همها الدنيا بأعداء الإسلام.

كانت الظروف الاقتصادية صعبة أيضاً، ولم يتوان مسلمو المدينة، والأنصار ما وسعهم الأمر عن مواساة المهاجرين، بل في تقديم المهاجرين على أنفسهم على الرغم من كل الضيق والظنك الموجود... ولكن كم تبلغ القدرة والاستطاعة المالية لحفنة من المزارعين، وصغار الباعة؟

الغنائم الحربية أيضاً لم تكن ذات شأن بحيث تسد حاجة المسلمين الجدد. محمد ﷺ الذي كان يتولى هدايتهم، وزعامتهم يقدمهم على نفسه، وأقاربه، وأرحامه، وإذا حصل يُسر وفرج في الأمر من حيث الغنائم كان ذلك يذهب لصالح فقراء المهاجرين والأنصار.

هذا الدرس علمه القرآن له، ولأهل بيته؛ إذا كانوا يُحبون الله؛ فعليهم أن يؤثروا

١- خلاصة حادثة الرجيع: هو أن رسلاً من طائفة كنانة (من عضل والديش) جاؤوا إلى النبي ﷺ، وقالوا: ابعث معنا نفراً يعلمونا القرآن، ويفقهونا في الدين، فبعث مرثد بن أبي مرثد الغنوي حليف حمزة في ستة نفر، فلما بلغوا بطن الرجيع قاتلهم القوم فقاتلوهم، فقالوا لهم: لكم عهد الله وميثاقه إلا نقتلكم، فلم يزالوا يقاتلون حتى قتل أربعة منهم وأسر اثنان فسلموهم لمشركي مكة فقتلتهم قريشاً حقداً وثأراً لمن قتل منها في بدر. وفي حادثة بئر معونة استشهد ثمانية وثلاثون رجلاً ممن بعثهم رسول الله.

الفقراء والأسرى باللقمة التي في أفواههم دون أن يمتنوا عليهم في ذلك، وأن يعلموا أن هذه اللقمة هي من حق هؤلاء المساكين، حق فرضه الله لهم، وفي مقابل دفع هذا الحق لهم لا يجوز الطمع بالجزاء والشكر على ذلك، وسوف يأخذون جزاء هذا العمل الحسن في تلك الدار، في اليوم الذي تكون الوجوه فيه عبوسة وخاشعة، سوف تكون وجوه هؤلاء نضرة ومسورة:

﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً﴾ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً﴾ إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطيراً﴾ فوقَّيهم الله شرَّ ذلك اليوم﴾ ولقَّيهم نضرةً وسُروراً﴾^(١)

من المسلم أن علياً ابن عم النبي، وفاطمة بضعتُه أولى من الآخرين بتنفيذ هذا الأمر؛ وهذه الآيات نزلت في بيتهم، وعليهم (بشأنهم)، وفي تنفيذ هذا الأمر الأخلاقي تحمل هذا الزوج والزوجة عناءً يفوق قدرة الإنسان العادي.

بعد أربعين سنة من هذا التاريخ عندما أطبق طرفه عن العالم المليء بالمتاعب، وانتقل إلى رحمة الله، ومع أنه كان في السنوات الخمس الأخيرة من عمره حاكماً على العالم الإسلامي، قال ابنه الحسن ﴿ع﴾ في أول خطبة له:

« يا أيها الناس! لقد فارقكم أمس رجلٌ ما سبقه الأولون ولا يدركه الآخرون لقد كان رسول الله ﷺ يبعثه المبعث، فيعطيه الراية فما يردُّ حتى يفتح الله عليه، ان جبرائيل عن يمينه وميكائيل عن يساره، ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة دُرهم...»

وهذا السند سجله ابن سعد في كتابه الطبقات الكبرى^(١)، وهو من أقدم الأسناد التاريخية، ومحل استناد جميع المؤرخين.

ذكر ابن عبد ربه الأندلسي المتوفى في أوائل القرن الرابع الهجري، وألف كتابه في أواخر القرن الثالث الهجري أن ما خلفه ثلاثمائة درهم^(٢)، وغاية الإجحاف والبعد عن الإنصاف أن يكتب شخص كتاباً اعتماداً على ظنه، أو لأجل إضلال الناس البسطاء، وهو يريد أن يصور الإسلام على ضوء الفلسفة، وبناءً على ترجمة خاطئة لمرجع متأخر عن ابن سعد، وابن عبد ربه بعدة قرون، وتكون النتيجة هي أن يصور علي بن أبي طالب على أنه رأسمالي زمانه!!

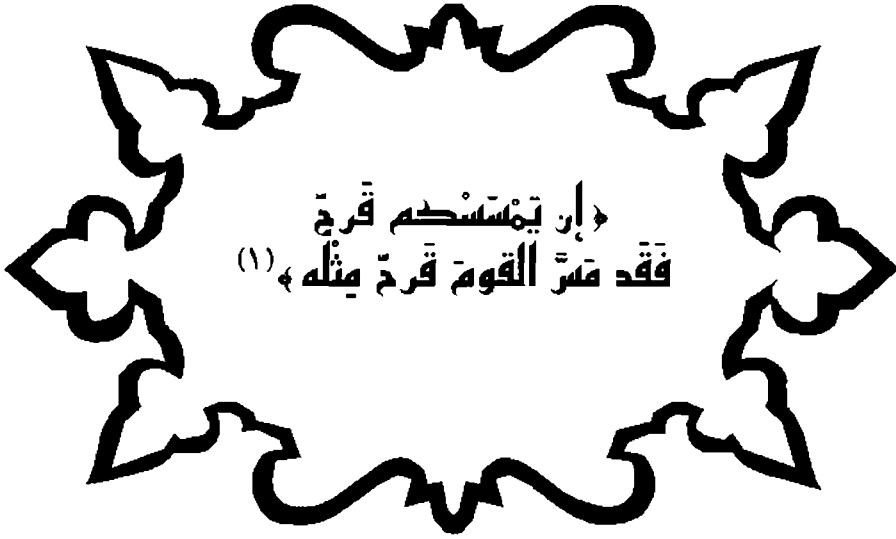
هؤلاء الذين لا إنصاف لديهم، والذين يريدون وفقاً لتفكيرهم الضيق تطبيق الحوادث على عقائدهم، وأفكارهم الخاطئة عن طريق التأويلات الخاطئة، والبعيدة عن الذهن والمنطق العلمي، لا يُحْمَلون أنفسهم عناءً بسيطاً وهو أن يقوموا بدراسة جميع الأسناد التاريخية، ثم تصنيفها، وبعد ذلك أن يقوموا بفصل الصحيح من غير الصحيح بالأسلوب والطريقة التي يعرفها جميع المؤرخين.

لا يستطيعون أم لا يريدون؟
الله هو العالم ﴿ومن يُضلل الله فما له من مَادِه﴾^(٣)

١- الطبقات، ج ٣، ص ٢٦.

٢- العقد الفريد، ج ٥، ص ١٠٣.

٣- الرعد/١٣: ٣٣.



حلّ شهر رمضان من السنة الثالثة للهجرة، وزادت ولادة ابنها الحسن من الذكريات الجميلة لانتصارات معركة بدر التي حدثت في رمضان من السنة الماضية، ولكن بعد عدة أيام من هذه الولادة المباركة حطّ على المدينة غبار النغم والحزن، وأصطفت مكة والمدينة أمام بعضهما البعض من جديد؛ حيث أحاطت بالمدينة جيوش قريش وأبي سفيان الذين لم يكن بإمكانهم أن يتحملوا هزيمتهم في معركة بدر. في هذه المرة وجهت قريش، وخلافا لما حصل في العام الماضي، ضربة قاسية إلى يثرب، لماذا؟

لأن كل اهتمام وانتباه المسلمين في معركة بدر كان هو الله، لكن قسماً من الجيش في معركة أحد نسي الله، وتوجه نحو الدنيا، ولم يعمل بكلام رسول الله، فانطلق وراء الغنائم، فاغتنم العدو الكامن لهم الفرصة، وخرج من مكمته، وهجم على المسلمين، وقسم آخر ممن كان مع عبيد الله بن أبي ترك ساحة المعركة قبل حصولها، ورجعوا إلى بيوتهم.

لم يكن عبيد الله يرتاح للنبي من اليوم الأول لقدوم النبي إلى المدينة! لماذا؟ لأن أهل المدينة كانوا يريدون انتخابه رئيساً عليهم، وبعد أن فشل في الوصول إلى حلمه وأمنيته كان يتصرف، ويتعامل مع النبي بوجهين.

ولم يقبل رأيه في الشورى التي جرت حول سبيل المواجهة في المعركة القادمة (أي معركة أحد)، وكان قد رأى أن تأخذ المدينة حالة دفاعية في داخل المدينة.

وعلى أية حال كان من نتائج هذه المعركة أن صار قسم من أهالي المدينة المسلمين بعد هذه الحرب بلا مأوى، وبيوت بلا معيل ولا مدبر، ونساء بلا أزواج، وأطفال بلا آباء. استشهد الحمزة عم النبي عليه السلام قائد جيش المسلمين الشجاع مع أربعة وسبعين من المسلمين الجدد، وهذا الرقم ليس كبيراً وضخماً لتلك الدرجة، ولكنه كان كارثة للمدينة التي أسلمت لتوها، وللمسلمين الذين يعيشون بين فئتين معاديتين لهما: اليهود، والمنافقين، وكانت فداحة الكارثة لدرجة أن الله تعالى قد واسى المسلمين في آيات من كتابه العزيز:

﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ، وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ، فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾^(١)

وصل الخبر إلى الزهراء: بأن أباهما قد أصيب في المعركة، وأن حجراً أصاب وجهه وأدماه، فنهضت الزهراء مع جمع من النساء، وحملت شيئاً من الطعام والشراب على عاتقها وذهبت إلى ساحة المعركة.

قدمت النساء الماء للجرحى، وضمنن جراحاتهم. وضمدت فاطمة جراح أبيها بعد أن أزالته الدماء عنها. (١)

ولكن الدم لم يتوقف عن النزيف، فتحرق قصبته، وتذرّ رمادها على جرحه؛ لكي ينقطع نزيف الدم. (٢)

شهادة هؤلاء المسلمين المؤمنين، وشهادة الحمزة أيضاً كانت صدمة كبيرة للنبي، وأصحابه، وابنته، وجميع المسلمين؛ ذكر الواقدي أن النبي بكى على الحمزة، وبكته الزهراء أيضاً (٣). ولما رجع النبي ﷺ من أرض المعركة، ووصل إلى طائفة بني عبد الأشهل، فسمع صوت بكائهم، وعويلهم، قال: «ولكن حمزة لا يواكي له». (٤)

كان معنى كلامه هو أن الوقت ليس وقت البكاء والعويل، لأن البكاء يجعل العدو يفرح ويشمت، ولو كان شيئاً غير هذا لكان هو بكائي على عمي الحمزة ولبيكيت؛ ولكن أهل المدينة فهموا أن النبي متألم؛ لأنه لا أحد ينوح على عمه، ولهذا شرعوا بالندب على الحمزة (٥)، ولما سمع النبي بفعلتهم قال: «ما أردت ذلك»، ومنعهم عن ذلك العمل

١- المغازي، ص ٢٤٩؛ راجع أيضاً: أنساب الأشراف، ص ٣٢٤؛ وقد ذكر الواقدي أن عدد النساء كان أربع عشرة امرأة.

٢- المغازي، ص ٢٥٠.

٣- المصدر السابق، ص ٢٩٠.

٤- المصدر السابق، ص ٢٩٠.

٥- ص ٣١٧.

بشدة. (١)

آلمت شهادة أكثر من سبعين رجلاً من الجنود الأتقياء جميع المسلمين، لكن تقريع الأعداء (اليهود، والمنافقين) كان أشدَّ إيلاماً، حيث شرع اليهود بالتطاول، وتقريع المسلمين بأن قائدكم لو كان نبياً حقاً لما لحقتكم هذه الخسارة؛ وسعى المنافقون أيضاً لتفريق القبائل عن النبي.

كان النبي يعمل على إزالة غبار النفاق من جهة بقراءة آيات القرآن، ومن جهة أخرى بمواساة ذوي الشهداء؛ وبين الحين والآخر كان يذهب إلى مزار الشهداء، ويدعو الله لهم بالغفران، وكانت ابنته أيضاً تشاركه في تلك المواساة.

ذكر الواقدي: كانت فاطمة تذهب إلى أحد كل يومين أو ثلاثة أيام تبكي على مزار الشهداء، وتدعو لهم. (٢)



نسيت ذكريات معركة أحد المريرة شيئاً فشيئاً، وأعيد من جديد بناء الأسر التي تهدمت، وتزوجت النساء اللواتي فقدن أزواجهن في معركة أحد. وبدأت الحملات الاعتراضية التأديبية على الانتهازيين، وأنتصرت الجموع التي أرسلت إلى خارج المدينة.

وفي شعبان من السنة الرابعة (للهجرة) أفاضت ولادة الحسين عليه السلام حرارة جديدة على بيت علي، ثم ولد لهما: زينب، وأم كلثوم، ومحسن.

ذكر البلاذري أن الحسن سمي في البداية "حرب"، لكن النبي قال: اسمه حسن، ثم سَمِّيا كلا من الحسين والمحسن باسم "حرب" لكن النبي قال أريد أن يكونوا بأسماء أبناء

هارون^(١).

لكن روايات أهل البيت ذكرت أن علياً وفاطمة أوكلا تسمية أبنائهما للنبي ﷺ، وقام النبي بتسميتهم بهذه الأسماء: حسن، حسين، محسن^(٢).

وتحسن تدريجياً الوضع المالي للمسلمين المُعسرّين؛ وعندما رأت القبائل التي تخلت عن تحالفها مع النبي بعد هزيمة أحد مقاومة المسلمين وانتصاراتهم اللاحقة تخلت عن مكة مرة أخرى، وتوجهت نحو المدينة أو التزمت حالة الحياد في أسوأ الحالات، وساعدت بعض الغنائم الحربية على حل بعض المشكلات. لكن بيت بنت النبي لا يزال خالياً من الأثاث وبسيطاً، وكان علي والزهراء قد جعلوا الزهد، والقناعة، والإيثار، وحتى الجوع شعاراً لهما.
ذكر ابن شهر آشوب:

أصبح علي عليه السلام ذات يوم، فقال: يا فاطمة! أصبح شيء تُغذّينه؟
قالت: لا، والذي أُغذّيكه، وما كان عندي شيء منذ يومين إلا شيء كنت أوثرك به على نفسي، وعلى ابني هذين حسن وحسين.
فقال علي عليه السلام: يا فاطمة ألا كنت أعلمتني، فأبغىكم شيئاً؟
فقالت: يا أبا الحسن! إني لأستحي من إلهي أن تكلف نفسك ما لا تقدر عليه.

فخرج علي من عند فاطمة عليها السلام واثقاً بالله، حسن الظنّ به عزوجل، فاستقرض ديناراً واحداً، فأخذه ليشتري لعياله ما يصلحهم، فعرض له المقداد بن الأسود في يوم شديد الحر، قد لوّحت الشمس من فوقه وآذته

١- أنساب الأشراف، ص ٤٠٤؛ وفاطمة الزهراء، ص ٤.

٢- راجع: إرشاد الشيخ المفيد، ج ٢، ص ٣ و ص ٢٤.

من تحته، فلما رآه علي أنكر شأنه،

فقال: يا مقداد! ما أزعجك هذه الساعة من رحلك؟

فقال: يا أبا الحسن! خلّ سبيلي، ولا تسألني عمّا ورائي،

قال: يا أخي لا يسعني أن تجاوزني حتى أعلم علمك،

فقال: يا أبا الحسن! رغبت إلى الله عزوجل، وإليك أن تخلي سبيلي،

ولا تكشفني عن حالي.

فقال: إنه لا يسعك أن تكتمني حالك.

فقال: يا أبا الحسن! أمّا إذا أبيت، فو الذي أكرم محمداً بالنبوة، وأكرمك

بالوصية ما أزعجني من رحلي إلا الجهد، وقد تركت عيالي جياً، فلما

سمعتُ بكاءهم لم تحملني الأرض، فخرجتُ مهموماً ركباً رأسي، هذه

حالي وقصتي.

فانهملت عينا علي بالدموع حتى بللت دموعه لحيته.

فقال: أحلفُ بالذي حلفتَ به، ما أزعجني إلا الذي أزعجك، وقد

اقترضت ديناراً واحداً، فهأكهُ، فقد آثرتك على نفسي، فدفعتُ الدينار

إليه. (١)

كانت بنت النبي سهيمة في هذه المساواة، بل في بعض الأحيان كانت تتحمل القسط الأكبر منها، وكانت تبقى هي وأبناؤها يوماً أو يومين أو ثلاثة أيام جياً دون أن تعلم زوجها بذلك، وعندما كان يعلم علي بالأمر، كان يقول لها: أفلا أخبرتني؟ فتقول: فإن رسول الله ﷺ نهاني أن أسألك شيئاً، «... لا تسألني ابن عمك شيئاً، إن جاءك بشيء

عفواً، وإلا فلا تسألني» (١).

وقد جاء في رواية ابن شهر آشوب أنها قالت له:

«إني لأستحي من إلهي أن تكلف نفسك ما لا تقدر عليه» (٢).

وقد خصَّ أبو نعيم الأصفهاني، وهو من علماء أهل السنة والجماعة (توفي في سنة ٤٣٠ هجرية قمرية) عندما كتب كتاباً من عدة مجلدات في وصف الأصفياء وجعل اسمه "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" فاطمة بفصل كامل، وذكر في هذا الفصل بإسناده عن عمران بن حصين أن النبي ﴿ﷺ﴾ قال له يوماً: ألا تأتي معي لزيارة فاطمة؟

- فقلت: ولم لا.

ثم ذهبنا إلى بيت فاطمة ﴿ع﴾، فأذنت له،

- فقال لها: أَدْخُلْ وَمَنْ مَعِي؟

- فقالت له: يا أبتاه، والله ليس عندي غير عباءة، فأمر أن تستر بها،

- فقالت له: ليس عندي ما أستربه رأسي!

فأعطاها النبي ﴿ﷺ﴾ عباءة قديمة كانت على كتفه.

- وقال لها: استري بهذه العباءة رأسك.

ثم دخلا إلى حجرتها.

- فسألها النبي ﴿ﷺ﴾: كيف تجدينك يا بنية؟

- قالت: إني لَوْجِعَةٌ، وإنه لَيَزِيدُنِي أَنَّهُ مَا لِي طَعَامٌ آكَلُهُ،

- قال: يا بنية أما ترضين أنك سيدة نساء العالمين؟

- قالت: يا أبة، فأين مريم بنت عمران؟

١- كشف الغمة، ج ١، ص ٤٩٦.

٢- كشف الغمة، ج ١، ص ٤٦٩ (إلى آخر الحديث)، [يبدو أن المؤلف قد اختصر في المتن بعض

العبارات، ولكن أتينا بالحديث كاملاً كما جاء في المصدر تمييزاً للفائدة م.]

- قال: تلك سيدة نساء عالمها، وأنت سيدة نساء عالمك، أما والله زوجتك سيداً في الدنيا والآخرة»^(١).

ويعلم من رواية ابن عمران، الذي رافق النبي ﷺ إلى بيت الزهراء ﷺ، وشاهد ذلك وسمعه، (وهو من قبيلة خزاعة، وممن أسلم بعد حرب خيبر)^(٢) قضية مهمة جداً، وهي أنه في هذه الملاقاة التي يحتمل أن تكون بعد فتح مكة أو قبل ذلك بقليل، ومع تحسن وضع المسلمين من الناحية الاقتصادية نسبياً عما كانت عليه في السابق، أن أسرة آل النبي كانت لا تزال في ضيق وعسر، لدرجة أن ابنة النبي ليس لديها ما تلبسه سوى عباءة، ولكي تستر نفسها كاملاً تحتاج إلى الكساء الذي يُعطىها إياه النبي. يفتح أبو نعيم الأصفهاني الفصل الذي خصه لترجمة بنت النبي ناعثاً لها بهذه العبارة: «كانت عن الدنيا ومتعتها عازقة، وبغوامض عيوب الدنيا وآفاتها عارفة».

انطلق سلمان يوماً إلى باب بيتها، فوجد بين يديها شعيراً، وهي تطحن فيه، وتقول: «وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى»، فسلم عليها، وأخبرها بخبر...، فنهضت، والتفت بشملة لها خِلقة، قد خيطت في اثني عشر مكاناً...، فلما خرجت نظر سلمان الفارسي إلى الشملة، وبكى، وقال:

- واحزنانه! إن بنات قيصر وكسرى لفي السندس والحري، وابنة محمد ﷺ وزوجة ابن عم قائد المسلمين عليها شملة صوف خِلقة قد خيطت في اثني عشر مكاناً!! لماذا؟ من حق سلمان أن يتساءل ويتعجب وهو الذي رأى وشاهد حياة أبناء الأشراف وبها رجاها في بلاد فارس.

١- حلية الأولياء، ج ٢، ص ٤٢؛ انظر: بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٣٧؛ مناقب ابن شهر آشوب، ج ٣، ص ٣٢٣؛ الاستيعاب، ص ٧٥.
٢- أنظر الإصابة، ج ٥، ص ٢٦؛ الأعلام للزركلي، ج ٥، ص ٢٣٢.

فلما دخلت فاطمة على النبي ﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ قالت:

- يا رسول الله إن سلمان تعجب من لباسي فوالذي بعثك بالحق ما لي ولعلي منذ خمس سنين إلا مسك كبش نعلف عليها بالنهار بعيرنا، فإذا كان الليل افترشناه، وإن مرفقتنا لمن آدم حشوها ليف، فقال النبي ﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾:

- يا سلمان إن ابنتي لفي الخيل السوابق. (١)

ولم تكن تكفي بالحد الأدنى من اللباس والطعام وتحمل شظف الحياة فقط، بل وكانت تأخذ على عاتقها أعمال المنزل كلها، ولم تكن لتلقي كلَّها على غيرها من استقاء الماء، وكنس المنزل، وطحن الحنطة أو الذرة بالرحى، والقيام بشؤون الأطفال. جميع هذه الأشياء كانت تأخذها على عاتقها وكانت أحياناً تطحن بيد وتهز طفلها لينام بيد أخرى.

روى ابن سعد بسنده إلى علي ﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾: « قال علي: لقد تزوجت فاطمة وما لي ولها فراش غير جلد كبش، ننام عليه بالليل، ونعلف عليه الناضح بالنهار، وما لي ولها خادم غيرة». (٢)

مع كل هذه التقوى وهذا الزهد ذهب النبي إلى بيتها يوماً، فرأى على جديها قلادة اشتراها لها علي بن أبي طالب ﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ من سهمه من الفيء، فقال النبي ﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾:

« لا يغررك الناس أن يقولوا ابنة محمد، وعليك لباس الجبابة، فقطعها، وباعتها واشترت بها رقبة فأعتقتها».

١- البحار، ج ٤٣، ص ٨٨.

٢- الطبقات الكبرى، ج ٨، ص ٢٢.

قال علي لرجل من بني سعد:

- ألا أخبرك عني وعن فاطمة (رضي الله عنها) كانت ابنة رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم، وكانت من أكرم أهله عليه، وكانت زوجتي، فجرت بالرحى حتى أثمر الرحى بيدها، وأسقت بالقربة حتى أثمرت القربة بنحرها، وَقَمَّت البيت حتى اغبرت ثيابها، و... فأصابها من ذلك ضرر، فقدم على رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم بسبي أو خدم، فقلت لها:

- انطلقي إلى رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم، فاسأليه خادماً يقيك حرماً أنت فيه.

فانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم، فوجدت عنده خدماً أو خداماً، و... فاستحت، فانصرفت، فعلم النبي ﷺ أنها جاءت لحاجة، فغدا علينا رسول الله ﷺ فقال:

- السلام عليكم.

فسكتنا، فخشينا إن لم نردد عليه أن ينصرف، وقد كان يفعل ذلك، يسلم ثلاثاً، فإن أذن له وإلا انصرف، فقلت:

- وعليك السلام يا رسول الله ادخل.

فلم يعد أن جلس عند رؤوسنا، فقال:

- يا فاطمة ما كانت حاجتك أمس عند محمد؟

فخشيت إن لم نجبه أن يقوم، فقلت:

- إنها استقت بالقربة حتى أثمرت في صدرها، وجرت بالرحى حتى مجلت يداها،

وكنست البيت حتى اغبرت ثيابها، وأوقدت تحت القدر حتى دكنت ثيابها، فقلت لها: لو أتيت أباك فسألتيه خادماً.

قال:

- أفلا أعلمكما ما هو خير لكما من الخادم؟ إذا أخذتما منامكما فسبحا ثلاثاً وثلاثين واحداً ثلاثاً وثلاثين، وكبيرا أربع وثلاثين.

فأخرجت عليها السلام رأسها، فقالت: رضيت عن الله ورسوله (ثلاث دفعات).^(١)

وذكر ابن سعد في كتابه أن رسول الله قال في جواب فاطمة بعد أن سأله خادمها: «والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة^(٢) تطوى بطونهم، لا أجد ما أنفق عليهم، ولكني أبيعهم أنفق عليهم أثمانهم».^(٣)

قال الصدوق في أماليه:

كان النبي (ﷺ) إذا قدم من سفر بدأ بفاطمة (عليها السلام) فدخل عليها، فأطال عندها المكث، فخرج مرة في سفر، فصنعت فاطمة (عليها السلام) مسكتين من ورق، وقلادة، وقرطين، وسترأ لباب البيت لقدوم أبيها (ﷺ) وزوجها (عليها السلام)، فلما قدم رسول الله (ﷺ) دخل عليها، فوقف أصحابه على الباب لا يدرون يقفون أو ينصرفون، لطول مكثه عندها، فخرج عليهم رسول الله (ﷺ) وقد عُرِف الغضب في وجهه حتى جلس عند المنبر، فظنت فاطمة (عليها السلام) أنه إنما فعل ذلك رسول الله (ﷺ) لما رأى من المسكتين، والقلادة، والقرطين، والستر، فنزعت قلادتها، وقرطبيها،

١- البحار، ج ٤٣، ص ٨٢؛ وراجع مسند أحمد، ج ٢، ص ٣٩، و ص ١٠٥.

٢- أصحاب الصفة جمع من المسلمين السابقين في الإسلام، من صفوة أصحاب رسول الله (ﷺ) من أمثال: أبي ذر، وسلمان، وعمار بن ياسر، وبلال، كانوا ينامون في ظلة في المسجد، لأنهم كانوا في عسرة شديدة.

٣- الطبقات، ج ٨، ص ١٦.

ومسكتيها، ونزعت الستر، فبعثت به إلى رسول الله ﷺ وقالت للرسول^(١): - قل له تقرأ عليك ابنتك السلام، وتقول اجعل هذا في سبيل الله.

فلما أتاه قال ﷺ:

- فعلت! فداها أبوها - ثلاث مرات - ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما أسقى فيها كافراً شربة ماء. ثم قام فدخل عليها.^(٢)

كان أبوها عندما يرى فيها تلك الصفات الإنسانية العالية السامية، ويشاهد تجسد التربية الإسلامية في عملها، وسلوكها، وقولها يشعر بالسعادة والسرور فكان يمدحها ويثني عليها، ويدعو لها بالخير، ولكي يُعَرَّف المسلمين بمنزلتها ودرجتها كان يقول: «فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني».^(٣) وكان يظهر أحياناً فرط محبته لها بالقيام لها وتقبيل رأسها ويدها.^(٤)

وكان إذا عاد من السفر يصلي ركعتين في المسجد ثم يذهب إلى بيت فاطمة وبعد ذلك يمر على بيوت نسائه.^(٥)

-
- ١- أي للشخص الذي بعثت بالأشياء إلى النبي معه. م
 - ٢- بحار، ج ٤٣، ص ٢٠؛ وانظر أيضاً: مناقب، ج ٢، ص ٤٧١؛ أمالي الصدوق؛ وراجع: مسند أحمد، الحديث ٤٧٢٧.
 - ٣- بحار، [ج ٤٣]، ص ٨١؛ البلاذري، ص ٤٠٣؛ صحيح البخاري، باب فضائل أصحاب النبي، ج ٥، ص ٢٦؛ الاستيعاب، ج ٤، ص ١٨٩٥؛ ومصادر أخرى.
 - ٤- مناقب، ج ٣، ص ٣٣٣؛ ومصادر أخرى.
 - ٥- الاستيعاب، ص ٧٥٠.

ولكي يعرف الآخرون أن نبع محبتها في قلبه ليس من أجل العواطف الأبوية تجاهها وأنه كان يحب فاطمة لأجل حيازتها الصفات التي تتوقع من امرأة عظيمة المنزلة والقدر.

كان يلفت انتباهها - حيث يجب - إلى الوظيفة المهمة والثقيلة التي تقع على عاتقها وكان يحيل ثواب وأجر تلك المهمة إلى أطاف الله والحصول على نعيم الآخرة. وفي أحد الأيام جاء لزيارتها فشاهد ابنته تطحن بيد وترضع ابنها باليد الأخرى، فقال لها: يا بنتاه تعجّلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة. فقالت: أحمد الله على نعمه. عن الصادق (عليه السلام) أنه قال:

«دخل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على فاطمة (عليها السلام) وعليها كساء من ثلة الإبل وهي تطحن بيدها، وترضع ولدها، فدمعت عينا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لما أبصرها، فقال: يا بنتاه تعجّلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة، فقد أنزل الله علي ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾. (١)

وقد جعل مهمة القيام بالأعمال المنزلية في داخل البيت عليها، وجعل واجب القيام بالأعمال خارج المنزل على عاتق زوجها.



نواجه عدة أحاديث في روايات الشيعة والسنة يظهر من خلالها أنه كان يحصل بين فاطمة وزوجها أحياناً شيء من الاختلاف والكدورة، وحتى أنهما كانا يذهبان أحياناً إلى النبي ليتقاضيا عنده.

ذكر ابن سعد:

قسى علي علي فاطمة يوماً، فقالت له: والله لأشكونك إلى النبي، ثم ذهبت إليه، وذهب علي خلفها إلى بيت النبي، وهناك وقف بحيث يسمع صوتها.

اشتكت فاطمة للنبي من شدة علي عليها، فقال النبي في جوابها:
 «يا بنية.. إنه لا إمرة بامرأة لا تأتي هوى زوجها وهو ساكت». فقال علي: فقلت لها:
 والله لا آتي شيئاً تكرهينه أبداً»^(١).
 وذكر ابن حجر:

«كان بين علي (ع) وفاطمة (ع) كلام، فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله ليصلح
 بينهما، فلم يزل حتى أصلح بينهما، ثم خرج، فقيل له: يا رسول الله دخلت وأنت على
 حال، وخرجت ونحن نرى البشرى في جحك. فقال: وما يمنعني وقد أصلحت بين اثنين
 أحب من علي وجه الأرض إلي»^(٢).

وفي مقابل هذه الطائفة من الروايات ينقل علي بن عيسى الإربلي عن علي عليه
 السلام:

«ثم صاح بي رسول الله (ص) يا علي! فقلت لبيك يا رسول الله، قال:
 ادخل بيتك والطف بزوجتك وارفق بها، فإن فاطمة بضعة مني يؤلمني ما
 يؤلمها ويسرني ما يسرها، أستودعكما الله وأستخلفه عليكما.
 قال علي (ع): فو الله ما أغضبته ولا أكرهتها على أمر حتى قبضها الله
 عزوجل ولا أغضبتني ولا عصت لي أمراً ولقد كنت أنظر إليها، فتتكشف
 عني الهموم والأحزان»^(٣).

مع أنه طبيعي جداً أن يحصل شيء من الكدورة في بعض الأحيان بين أعز الأصدقاء

١ - الطبقات، ج ٣، ص ١٦.

٢ - الإصابة، ج ٨، ص ١٦٠؛ بحار، ج ٤٣، ص ١٤٦.

٣ - كشف الغمة، ج ١، ص ٣٦٣؛ بحار، ج ٤٣، صص ١٣٣-١٤٣.

وأكثرهم حميمية، ولكن من وجهة نظر العقائد الشيعية، فإن علياً وفاطمة لهما مقام ومنزلة العصمة، ونسبة الاختلاف إليهما، ولتلك الدرجة التي تنجر إلى قضاء النبي بينهما لا تتناغم ولا تتفق مع تلك المنزلة والمقام.

ولهذا نقل المجلسي عن الشيخ الصدوق قوله: «ليس هذا الخبر عندي بمعتمد ولا هو لي بمعتقد في هذه العلة لأن علياً وفاطمة (ع) ما كانا ليقع بينهما كلام يحتاج رسول الله (ص) إلى الإصلاح بينهما، لأنه (ع) سيد الوصيين وهي سيدة نساء العالمين مقتديان بنبي الله (ص) في حسن الخلق».

ومن جملة الحوادث التي ذكروا أنها جعلت فاطمة تتألم من علي قصة خطبة علي لجويرية بنت أبي جهل، وقد جاءت هذه القصة طبقاً لنقل مسور بن مخرمة بهذا الشكل: «حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال حدثني علي بن حسين أن المسور بن مخرمة قال: إن علياً خطب بنت أبي جهل، فسمعت بذلك فاطمة، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي ناكح بنت أبي جهل، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسمعتُه حين تشهد يقول:

أما بعد، أنكحتُ أبا العاص بن الربيع، فحدثني، وصدقني، وإن فاطمة بضعة مني، وإني أكره أن يسوءها، والله لا تجتمع بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبنت عدو الله عند رجل واحد.

فترك علي الخطبة، وزاد محمد بن عمرو بن حلحلة عن بن شهاب عن علي بن الحسين عن مسور سمعت النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر صهرا له من بني عبد شمس، فأثنى عليه في مصاهرته إياه، فأحسن، قال: حدثني،

فصدقني، ووعدني فوفى لي» (١).

هذه القصة التي نقلها فضلاً عن البخاري ومسلم شخص أو شخصان آخران كذب محض دون أدنى ريب؛ لأن ألفاظها وكلماتها تكذب بعضها البعض، فضلاً عن ضعف سند الحديث.

أولاً: ما يقوله الراوي من أن النبي (ص) قال: «أبو العاص بن ربيع قال لي صدقاً». يلزم منه أن يكون المفهوم المخالف لهذه الجملة هو أن علياً (والياذ بالله) قال لي كذباً، في حين أنه لم يحصل بينه وبين علي حينها أي كلام، كما أن علياً (ع) لم يتعهد حين العقد على فاطمة بشيء حتى يكون قد خالفه.

ثانياً: يقول أن النبي قد قال «لن تجتمع بنت رسول الله مع بنت عدوه عند أحد». ظاهر هذه العبارة أن أبا جهل كان حياً عند شكوى رسول الله، في حين أن أبا جهل قد قتل في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة في معركة بدر، كما أن ولادة مسور - علي ما سنكتب - في ذي الحجة من نفس السنة (أي السنة الثانية للهجرة).

وإذا قلنا أن هذه الحادثة حصلت بعد مقتل أبي جهل، في السنوات التي بعد معركة بدر فإن عبارة «لن تجتمع بنت رسول الله وبنت عدوه عند أحد» لن يكون لها معنى، لأن شرك أبي جهل الذي لاقى جزاءه قبل سنوات مضت من وجهة نظر الفقه الإسلامي لن يكون له تأثير على مصير أبنته.

ثالثاً: حادثة علي هذا المستوى من الأهمية بحيث أن النبي يشكو منها في المسجد، وفي حضور أصحابه يجب أن تنقل من طرق عديدة جداً، بحيث تصل إلى حد التواتر، أو على الأقل إلى حد الشيوع، لا أن يكون الراوي الوحيد لها هو مسور بن مخرمة!

رابعاً: ثم إن مسور بن مخرمة ولد في مكة بعد الهجرة بستين، ثم جاء إلى المدينة مع أبيه إلى المدينة في ذي الحجة من السنة الثامنة للهجرة، وعند وفاة النبي كان عمره ثمانية أعوام، ومات في سنة ٦٤ هجرية في مكة عند محاصرتها من قبل الحصين ابن نمير على أثر إصابته بحجر قذف بالمنجنيق. (١)

وذكر ابن حجر أن ولادته كانت في السنة الثانية للهجرة، وقال أن الجميع متفقون على ما ذكر، ثم علق على حديثه المنقول عنه: أنه قال «سمعت من النبي وأنا محتمل» أن البعض يعتقد أن هذه الصيغة من مادة (حلم) أي كنت عاقلاً، وكنت أضبط الحديث، ولا تنافي بين نقله وبين كونه طفلاً (٢).

كما أن القصة التي نقلت عنه حول رفعه للحجر، وسقوط سرواله قد نقلها كثيرون وهي تشير إلى أنه كان في حياة النبي (ص) طفلاً بحيث لا يقدر على رفع حجر. وبناءً على ما تقدم؛ فإن روايته حول خطبة علي (ع) لبنت أبي جهل عارية عن الاعتبار ولا قيمة لها.

ويجب أن نضيف أيضاً أن العلماء السابقين عند البحث في الأخبار كان أكثر اهتمامهم منصباً على "نقل الرواية"، وقلما تعرضوا إلى نقد الروايات وتمحيصها درائياً، ولو أنهم تعرضوا لنقدها وتمحيصها؛ فإنهم كانوا يقومون بذلك من جهة روايتها: هل اشتهروا بالصدق والعدالة، وعرفوا بها أم لا؟ وإذا عرف شخص ما بالصدق؛ فإنهم كانوا يقبلون روايته كائنة ما كانت.

ولكن يجب أن نأخذ نقطة هامة بعين الاعتبار، وهي أن الشخص أو الأشخاص الذين يريدون وضع الأحاديث وجعلها وإشاعتها بين الناس؛ فإنهم كانوا يراعون جميع

١ - الإستيعاب، ج ١، ص ٦١.

٢ - الإصابة، ج ٦، ص ٩٩.

الجوانب بحيث يمكن قبولها، وهنا، أي في مثل هذه الحالة، يجب الإنتباه والرجوع إلى القرائن الخارجية، فضلاً عن علم الحديث، وأخذ تلك القرائن بعين الاعتبار. بدأت مسألة وضع الأحاديث وترويجها في الربع الثاني من القرن الأول الهجري واستمرت حتى قرنين آخرين من الزمن تقريباً.

وطيلة سبعين عاماً في عهد الأمويين، ومائة عام في عهد العباسيين (أي حتى زمان جمع وتدوين الأحاديث والوثائق في الكتب) قام أعداء علي (ع) وبكل ما أوتوا من قوة بوضع الأحاديث التي تذم علي وتنتقص منه. ومن الطبيعي أن يقوموا بوضع وجعل أحاديث تشير إلى أن عدم الرضى والسخط على علي لم ينحصر في خارج بيته وأسرته، بل وصل حتى إلى داخل بيته، وإلى أقرب الناس إليه، حيث لم يكونوا راضين عنه. مع أننا لو فرضنا صحة هذه الرواية؛ فإننا لا نرى فيها منقصة ولا ذمماً؛ لأنهم بشر وأناس، والإنسان كما نعلم يمر بحالات مختلفة.

هذه الأحاديث الموضوعية - على ما كتبنا - تكتب وتجد طريقها إلى كتب المحدثين البسطاء والسذج، وتنقل من كتبهم إلى كتب أناس يحسبون أنهم يكتبون تاريخ الإسلام من وجهة نظر علمية، ولهذا من الطبيعي أن نقرأ في كتاب "أميل دور منگام":
«لجأ علي إلى المسجد بعد مشاجرته مع فاطمة، ونام هناك، فذهب إليه ابن عمه ونصحه، وصالحه مع زوجته»^(١)

وعلى أية حال؛ فهذه الروايات أصبحت مستمسكاً لهذا النوع من المؤرخين في حين أنها - على ما ذكرنا آنفاً - لا أساس لها من الصحة، مع أنه على القبول جديلاً بفرض صحة بعض هذه الروايات؛ فإنها من نوع الاختلافات العابرة التي تجري بين المرأة والرجل بشكل طبيعي، ولا تترك أي غبار أو أي أثر على مكارم أخلاقهما العالية.



كما كانت بضعة النبي في حياتها الزوجية نموذجاً ومثلاً أعلى، فإنها كانت في طاعتها لربها أيضاً نموذجاً ومثلاً أعلى، على الرغم من أن نفس الحياة الزوجية في حد ذاتها إذا كانت على أساس التقوى والموافقة؛ فإنها طاعة لله. وإنما قصدي هنا من طاعة الرب هو خصوص التعبد بإقامة الصلاة والتوجه نحو الله.

عندما كانت تفرغ من أعمال المنزل؛ فإنها كانت تتوجه نحو العبادة: نحو الصلاة والتضرع والابتهاال إلى الله، والدعاء لا لنفسها! بل لغيرها.

نقل الإمام الصادق عن آبائه الطاهرين عن الإمام الحسن بن علي ﴿عليه السلام﴾:

« قال: رأيت أُمِّي فاطمة عليها السلام قامت في محرابها ليلة جمعتها، فلم تزل راکعة ساجدة حتى انفتح عمود الصبح، وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات، وتسميهم وتكثر الدعاء لهم، ولا تدعو لنفسها بشيء؛ فقُلْتُ لها:

– يا أمّاه! لم لا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك؟

– فقالت: يا بني الجار ثمّ الدار». (١)

والتسبيح المعروف باسم تسبيح الزهراء (ع) مشهور جداً، وجاء في الكتب المعتبرة للشيعة والسنة، وغيرها من الأسناد، وهو معروف للجميع. والملتزمون بالسنن يسبحون به بعد كل صلاة يصلونها على النحو التالي:

«أربع وثلاثون مرة "الله أكبر"، وثلاث وثلاثون مرة "سبحان الله"، وثلاث وثلاثون مرة "الحمد لله"». (٢)

كما نقل السيد ابن طاووس في الإقبال أدعية عنها، كانت عليها السلام تدعو بها باستمرار بعد كل من صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، كما نقل عنها أدعية أخرى يُدعى بها عند بعض الشدائد والكرب، وهذه الأدعية معروفة لدى من يواظب على الأدعية وأداء المستحبات.

١- كشف الغمة، ج ١، ص ٤٦٨.

٢- البحار، [ج ٤٣]، ص ٨٢؛ مسند أحمد، ج ٢، ص ٣٩ و ص ١٠٥.



كانت معركة الأحزاب آخر محاولة قامت بها مكة ضد المدينة وضد دين الله والحكومة الإسلامية. واستطاع فيها أبو سفيان بجهود كبيرة أن يجمع حوله القبائل المتفرقة، بل وحتى اليهود، ثم تحرك بهم نحو المدينة حيث بلغ عددهم عشرة آلاف مقاتل وأحاطوا بالمدينة. وكان عدد جنود المسلمين بالنسبة لهم قليلاً جداً، ولكن عندما تنهض قوة الإيمان فإن جيوش الشيطان تفر، وهكذا كان، فتقهقر المهاجمون إلى مكة دون أن يحصلوا على أي نجاح أو توفيق في مهمتهم.

وبعدها أصبح مسلماً لدى قريش كلها تقريباً أن قوة الإسلام صارت بحيث لا يمكن

القضاء عليها، ولكن أبا سفيان وواحد أو اثنين آخرين من تجار مكة والذين كانوا يرون أنفسهم على حافة الإفلاس والهزيمة كانوا يعدون أنفسهم ويمنونها بالنصر في السنة القادمة، لتعويض هذه الخسارة.

وما أن ترك المهاجمون أطراف المدينة وولوا أدبارهم باتجاه مكة حتى توجه النبي (ص) إلى الذين نقضوا عهودهم معه - أي بني قريظة - فأناهم جزاءهم على نقضهم لعهودهم مع المسلمين وتحالفهم مع قريش.

وفي السنة التي بعدها توجه النبي (ص) مع ألف وخمسمائة من أصحابه إلى مكة، فقامت قريش بسد الطريق عليه بالقرب من الحرم؛ لمنع من الوصول إلى مكة، وبعد تبادل الرسل توصل الفريقان إلى معاهدة تمّ عقدها بينهما، ومفادها أن لا يذهب النبي هذا العام إلى مكة، ولكن في المقابل تقوم قريش بإخلاء مكة له ولأصحابه لمدة ثلاثة أيام ليزوروا بيت الله الحرام في العام المقبل.

انزعج بعض أصحاب النبي (ص)، من الذين اكتفوا بالنظر إلى ظاهر الأمر، وذلك لأن أهمية هذه المعاهدة التي أسماها القرآن الكريم بـ "الفتح المبين" كانت خافية عن أنظارهم حينها. ولكنّ ساسة قريش علموا أن المدينة من الآن فصاعداً سوف تحصل على زعامة العرب والسيادة عليهم، ولن تتمكن قريش من إيصال الأذى إلى الإسلام ولا إلى رسوله، ولهذا سارع عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد بالتوجه إلى المدينة قبل فتح مكة وأعلننا إسلامهما، وقد سميت هذه المعاهدة بـ "صلح الحديبية" والحديبية هو اسم المكان الذي سُدّت قريش فيه الطريق أمام النبي وأصحابه، وهناك وفي نفس المكان تمّ عقد الصلح بينهما.

وفي العام التالي لصلح الحديبية ذهب النبي مع جمع من المسلمين لأداء مناسك زيارة بيت الله الحرام، وقد شاهد أهل مكة عن كذب مدى وقار النبي، وحرمة في أعين المسلمين.

بعد هذا الصلح علم زعماء قبائل قريش أنهم لا يملكون تلك القوة الأسطورية التي تأتي الهزيمة، ولا سيما بعد أن سمعوا أن آخر معقل من معاقل اليهود، وهو معقل خيبر قد استسلم أمام النبي، بعد عدة أيام من الحصار، وقسمت أراضيهم بحسب الفقه الإسلامي بين المجاهدين.

وكانت السنة السابعة في تاريخ النظام الإسلامي سنة مصيرية، وكان أثر انتصار المسلمين في معركة خيبر في أعين غير المسلمين أكبر من نفس الانتصار. وقرب خيبر كانت هناك ضيعة عامرة يقال لها: «قَدَّك»، وما أن رأى أهل هذه الضيعة مصير خيبر حتى سارعوا إلى مصالحة النبي (ص) على أن يكون نصف هذه القرية له، وأن يبقوا هم في مزارعهم.

تمت المصالحة بهذا الشكل الذي ذكرناه^(١)، ولما لم يشترك المسلمون في فتح هذه البلدة، فإن فذك طبقاً لحكم القرآن الكريم صارت ملكاً للنبي (ص)، وكان النبي (ص) يعطي عوائدها لفقراء بني هاشم، ثم وهبها إلى فاطمة (ع). وذكر فريق من المحدثين والمفسرين في ذيل هذه الآية: «وَأَتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ» أنه لما نزلت هذه الآية الكريمة وهب فذكاً لفاطمة (ع).

*** **

وطبقاً لصلح الحديبية الذي تم بين النبي (ص) وقريش كانت القبائل العربية حرة في التحالف مع أي من الفريقين، أي مع المدينة أو مكة، وبالطبع كان كل طرف يتعهد

بالدفاع عن حلفائه.

قامت قبيلة بكر بالتحالف مع قريش، وقبيلة خزاعة بالتحالف مع النبي (ص). وبقي النبي في المدينة في شهري جمادى الأولى ورجب بعد معركة مؤتة، وفي هذه الأثناء وصل خبر مفاده أن طائفة من بني بكر هجموا على خزاعة، وقامت قريش بمناصرتهم. بهذا العمل تكون قريش قد نقضت عملياً صلح الحديبية، وعرف أبو سفيان سريعاً أن قريشاً قد ارتكبت خطأ شنيعاً بمساعدتها لبني بكر، ولهذا عمل على الوصول إلى المدينة بأسرع ما يمكن عله يتمكن من تجديد معاهدة الصلح لمدة أطول. وعندما وصل إلى المدينة ذهب أولاً إلى بيت أخته أم حبيبة زوجة النبي (ص)، ولما أراد الجلوس على فراشها جمعت الفراش ورفعته، فقال لها أبو سفيان:

- لم فعلت هذا؟

- أنت كافر نجس، ولا يجوز لك أن تجلس على فراش النبي!

- لقد ساء خلقك في غيابي!

ثم ذهب إلى كل من أبي بكر وعمر، وطلب منهما التوسط له عند النبي، لكنهما صدّاه ولم يقبلوا منه. في النهاية ذهب إلى بيت علي (ع)، وكانت حينها فاطمة في البيت والحسن طفل صغير يدب بين يديها، فقال: يا علي فاشفع لي إلى رسول الله، فقال: والله لقد عزم رسول الله (ص) على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه، فالتفت أبو سفيان إلى فاطمة (ع)، فقال لها: يا ابنة محمد! هل لك أن تأمري صبيك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ فقالت: والله ما بلغ بني ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم. (١)

وكان معنى كلامها هذا أن ما يقوله رسول الله (ص)، وما يفعله هو حكم الله، وليس هوى نفسه أو رغبته، وعندما يتعلق الأمر بحكم الله؛ فإن عاطفة الأبوة والبنوة لا يحق لها أن تتدخل. وهكذا انقلب أبو سفيان إلى مكة خائباً يائساً.



مضت سنة على فتح خيبر. وحان الوقت لترى قريش و مكة عظمة الإسلام. كان أهالي قريش رجالاً ذوي خبرة ودراية. وإذا استسلموا و قبلوا الإسلام دون مقاومة و عناد، فإن في ذلك سبباً لزيادة انتشار الإسلام، وزيادة في عدته. توجه النبي(ص) في شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة بجيش يبلغ تعداده عشرة آلاف رجل - على مارووا - ولكي لا ينقل الجواسيس خبر توجهه نحو قريش فقد أخفى مقصده و جهته. وفي مرّ الظهران علم العباس عم النبي(ص) أن الجيش يتوجه نحو مكة، فتوهم

العباس أن النبي بصدد الانتقام من قريش بعدما رأى منها كل ذلك الأذى والضرر، وأن مكة سوف تتحول إلى خربة ينقلب عاليها على سافلها مع دخول هذا الجيش العظيم إليها. وفي الليل خرج من خيمته يبحث عن رجل يسأله عن أخبار مكة وأهلها فصادف أبا سفيان الذي خرج من مكة يتقصى الأخبار، فأخبره العباس بحقيقة الموقف، ثم أجاره، وأخذه إلى النبي (ص)، وفي اليوم التالي دخل جيش الإسلام إلى مكة، وأعلن أن بيت الله الحرام وبيت أبي سفيان هي أماكن آمنة، وهكذا أعلنت مكة استسلامها بعد عشرين سنة من المحاربة الشديدة للنبي وللدين الإسلامي. في حين ارتجف زعمائها خوفاً من العقاب الأليم على كل ذلك الإيذاء والتعذيب الذي مارسوه في حق المسلمين وكيف سيكون؟

ولكن هل ينتظر من الرسول سوى الرحمة؟

- «أذهبوا! فأنتم الطلقاء»-

ولقب هؤلاء القوم المتكبرون منذ ذلك اليوم بالطلقاء، وذلت قريش وتحطمت قدرتها المالية، وقوتها العسكرية التي كانت محط إعجاب وإعظام بقية القبائل لسنوات عديدة، ولم يبق من كل تلك الهيبة والعظمة سوى السراب والحسرة.

وبعد هذا الفتح سارع زعيم كل قبيلة إلى الوصول إلى المدينة معلناً طاعته وانقياده لمحمد (ص). وقد سميت السنة التاسعة للهجرة بـ «سنة الوفود» أي السنة التي جاءت فيها رسل القبائل وفوداً إلى النبي (ص) لإعلان قبولهم الإسلام. وفي هذه المدة تمّ تشريع وتفصيل مقدار من الأحكام الجزائية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية التي هي محل ابتلاء الناس وحاجتهم. وقد حان الوقت لتري قريش ثانياً مدى قدرة المسلمين وقوتهم كما يجب، وتعليم الناس فريضة الحج وإزالة آخر الامتيازات التي استأثرت بها قريش قبل الإسلام والأهم من ذلك هو بيان وتحديد مصير الإسلام ومستقبله.



ودخلت السنة العاشرة للهجرة. وتوجه النبي (ص) ومعه جموع كبيرة من المسلمين إلى مكة، وقد ذكر أن عدد تلك الجموع تراوح بين تسعين ألفاً، ومائة وعشرين ألف شخص. قام النبي بنسخ الأعمال التي كان الكفار والمشركون يقومون بها من الطواف والنحر وغيرها من الأعمال [التي كانوا يؤدونها على طريقتهم الخاصة في عهد الجاهلية]. كما أنه أزال تلك الامتيازات التي كانت قريش قد خصت بها نفسها من مراسم هذه العبادة، كما علم المسلمين أنه في بيت الله يجب أن يعبد الله وحده، وجميع الناس متساوون أمام الله، ولا فضل لأحد على غيره، فكان مما قاله في خطبته المعروفة لهم:

أيها الناس! لا تعبدوا إلا الله، كلكم لآدم و آدم من تراب، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالقوى، ولا فضل لقرشي على غيره.
أيها الناس! دماؤكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم.
ولمّا وصل إلى منزل الجحفة في أثناء رجوعه من مكة إلى المدينة، وهو المكان الذي تفرق عنده قوافل الحجيج قام بإبلاغ آخر مهمة له:
- «أيها الناس! إني تارك فيكم الثقلين:

كتاب الله و عترتي أهل البيت، ولن تضلوا ما إن تمسكتم بهما أبداً، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض! من كنت مولاه فهذا علي مولاه».
وقد نقل هذه الرواية أكثر من مائة صحابي من أصحاب رسول الله، فضلاً عن مئات من التابعين، والمحدثين، وكبار علماء المذاهب الإسلامية المختلفة في مروياتهم وفي كتبهم.

وهي موجودة بالتفصيل في المجلد الأول من كتاب الغدير، وفي المجلد الأول من كتاب عبقات الأنوار لمؤلفه مير حامد حسين، وفي غيرهما من الكتب، وسوف يتم الحديث عنها في سلسلة هذه الكتب في حينه. (١)

عاد النبي (ص) من سفره ولم يلبث طويلاً حتى يعلم الزهراء (ع) بخبر مؤلم:
- «فقال: إن جبرئيل عليه السلام كان يعارضني بالقرآن في كل عام مرة، وإنه عارضني به العام مرّتين».

ماذا يعني هذا الكلام؟
- «ولا أراه إلا قد حَضَرَ أَجَلِي»

١- يحتمل أن يكون مراد المؤلف هو ما جاء في كتابه " علي بلسان علي " وقد ترجم الكتاب، وطبع من قبل دار المادى للطباعة والنشر والتوزيع، في بيروت. م

كان كلامه صدمة قوية لها، شعرت بحزن وكآبة عميقة، اغرورقت عيناها بالدمع، بينما ختم أبوها كلامه بهذه الجملة:
- «وإِنَّكَ أَوْلُ أَهْلِي لِحَوْقًا بِي».

فارتسمت على شفثيها ابتسامة، فسألها الحاضرون عن سر تلك الدموع وتلك الابتسامة، فأجابت عن ذلك بعد عدة أيام.^(١)

لم كانت الحياة بعد أبيها صعبة عليها حتى تفرح ذلك الفرح، وتبتسم عندما سمعت أنها أول من يلحق به؟.

أجل! لا تقدر الزهراء (ع) على فراق أبيها.

وربما كان الوحي الإلهي إليه بهذه الآية: «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ»^(٢) في تلك الأيام.

«وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل...».

ثم يذهب إلى البقيع حيث قبور المؤمنين ويطلب لهم من الله الرحمة.

جميع هذه الإشارات تنبئ عن خبر أليم.

وفي النهاية حان أوان ذلك الخبر المشؤوم، وحصلت تلك الفاجعة المؤلمة.

يذهب النبي (ص) إلى بيت عائشة وهو يئن من ألم في رأسه! ولكنه ليس الرجل الذي

يستسلم للمرض. ذلك البحر المواجه المتلاطم الذي لم يهدأ طيلة ثلاث وعشرين سنة

كيف يتوقف عن الحركة؟

لا زالت هناك دروس لم يتعلمها الناس.

١ - الطبقات، ج ٨، ص ١٧؛ الطبري، ج ٣، ص ١١٤؛ البحار، عن كشف الغمة، ص ٥١.

٢ - الزمر/٣٩: ٣٠.

ويسعى للوصول بنفسه إلى المسجد وهو يضع يداً على كتف الفضل بن عباس ويده الأخرى على كتف علي بن أبي طالب (ع) وقدماه تخطان على الأرض.

يطلب الرحمة من الله لشهداء معركة أحد، ثم يقول:

«إن الله خير عبداً من عباده بين الدنيا والآخرة فاختر الآخرة».

يجب أن يذهب جيش أسامة للقيام بالمهمة الموكلة إليه!

أيها الناس! حان الآن الوقت ليستوفي من له حق عليّ حقه.

« وإنه قد دنا مني حقوق من بين أظهركم، فمن كنت جلدتُ له ظهرًا، فهذا

ظهري فليستقد منه ... ألا وإن الشحناء ليست من طبعي، ولا من شأني ألا

وإن أحبكم إلي من أخذ مني حقاً إن كان له أو حللني فلقيت الله وأنا أطيب

النفس.

وقد أرى أن هذا غير مغن عني حتى أقوم فيكم مراراً...

ثم نزل فصلي الظهر، ثم رجع فجلس على المنبر فعاد لمقاتته الأولى في

الشحناء، وغيرها، فقام رجل فقال:

- يا رسول الله إن لي عندك ثلاثة دراهم،

- قال: أعطه يا فضل ...

ثم قال: يا أيها الناس من كان عليه شيء فليؤده، ولا يقل فضوح الدنيا، ألا

وإن فضوح الدنيا أسر من فضوح الآخرة. فقام رجل فقال:

- يا رسول الله عندي ثلاثة دراهم غلتها في سبيل الله.

- قال: ولم غلتها؟

- قال: كنت إليها محتاجاً.

- قال: خذها منه يا فضل.

ثم قال: يا أيها الناس! من خشي من نفسه شيئاً فليقم أدع له، فقام رجل،

فقال: يا رسول الله إني لكذاب، إني لفاحش، وإني لتؤوم!

- فقال: اللهم ارزقه صدقاً وإيماناً وأذهب عنه النوم إذا أراد.
ثم قام رجل فقال:

- ... يا رسول الله إني لكذاب، وإني لمنافق، ولا شيء (أو إن شيء) إلا قد
حببته! فقام عمر بن الخطاب، فقال:

- فضحت نفسك أيها الرجل،

- فقال النبي ﷺ: يا ابن الخطاب! فضوح الدنيا أهون من فضوح
الآخرة».

ثم يرجع من المسجد إلى البيت وهناك يلزم الفراش.

كيف يمكن هذا؟ محمد (ص) وفراش النوم؟

فاطمة رأت أبيها وهو قائم يصلي في الليل. وهذا التهجد والتضرع وقيام الليل بأمر
من الله: «قم الليل إلا قليلاً»^(١).

يجب أن يقل نومه ويزيد وقوفه وقيامه، الليل سبب للراحة بالنسبة لعامة الناس
وليس له، أما الرجال الذين يصنعون المصير، فيجب أن يبقوا دائماً في حالة قيام، وهذا
العالم ليس محلاً لراحتهم.

«تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا
فساداً والعاقبة للمتقين»^(٢)

ورجل كمحمد (ص) يجب أن يكون في حالة حركة دائمة و مستمرة تماماً كالموج.
وقد التزم بهذه الصفة إلى أن جاءه وحي الله ثانية يخفف عنه ما ألزم نفسه «ما أنزلنا

١ - المزمل/٧٣: ٢.

٢ - القصص/٢٨: ٨٣.

عليك القرآن لتشقى» (١).

لماذا يجب أن يقع هذا الرجل طريح الفراش و هو المثل الأعلى في الحركة والنشاط والفعالية؟

الجميع قلقون لهذا الأمر، والجميع يريد نبيه المحبوب أن يأتي إلى المسجد دائماً وباستمرار، وأن يصلي معهم، ويعلمهم، وينصحهم، ويعظهم.

المدينة وأهلها اعتادوا على قرب النبي وأنسوا به لمدة عشر سنوات، وهو الذي اجتث جذور إراقة الدماء والعداوة والحقن من هذه المدينة، وهو الذي آلف بينهم وهو الذي أعظم مكانتهم في أعين العرب، والأهم في أعين قريش، وسكان مكة.

يجب أن ينهض ليمسح كما كان يفعل دائماً بيده العظوفة على رؤوس جميع أهالي هذه المدينة: شيوخاً وشباناً وأطفالاً.



«وما محمد إلا رسول
قد خلت من قبله الرسل» (١)

وفجأة انبعث من بيت عائشة عويل! لقد التحق النبي (ص) بالرفيق الأعلى!
كان الخبر كالصاعقة تسقط على رؤوس الناس.
مات النبي في تلك اللحظات المليئة بالاضطراب والقلق.
وفجأة تناهى إلى الأسماع من بين أمواج الآهات والبكاء والحزن العميق، صوت

جهور:

- لا! أبداً! كذب! ما يقال كذب! محمد لم يمت! محمد لا يموت! ومن يقل ذلك فهو
منافق! لقد ذهب محمد للقاء الله!

- هو كالمسيح عيسى الذي عرج إلى السماء!
هو كموسى بن عمران الذي قضى أربعين ليلة في جبل الطور!
والله سأقطع يدي ورجلي من يقول أن محمداً قد مات. (١)
- ماذا تقول يا عمر؟ ما هذا الكلام؟
- يا أبا بكر! أنت أيضاً تريد أن تقول أن محمداً قد مات؟
- أجل! لقد مات! هل نسيت قول الله تعالى حين قال له: «...إنك ميت وإنهم ميتون». (٢)
- وكأنني أسمع هذه الآية للمرة الأولى. والآن ما العمل؟
- يقول معن بن عدي وعويم بن ساعدة أن سعد بن عبادة ذهب مع أنصاره إلى السقيفة لينتخبوا خليفة للنبي، ومن المحتمل أن يبايع الأنصار سعداً، فيسبقونا، وهو يقول أن فتنة قد اشتعلت فلعل الله يُطفئها بي (٣)، فلنذهب إلى السقيفة قبل فوات الأوان. (٤)

نحو سقيفة بني ساعدة:

ماذا جرى في سقيفة بني ساعدة؟

- ١- الطبري، ج ٤، صص ١٨١٥ - ١٨١٦، وراجع: ابن كثير، ج ٥، ص ٣٤٢.
٢- الزهر / ٣٩: ٣٠.
٣- العقد الفريد، ج ٥، ص ١٠.
٤- عبارة تاريخ الرسل والملوك للطبري، ج ٤، صص ١٨١٥ - ١٨١٦:
لما توفي رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب، فقال إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفي، وإن رسول الله والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع بعد أن قيل قد مات، والله ليرجعن رسول الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله مات.

ما حصل وجرى هناك تعرضت له في كتابي الموسوم بـ "علي بلسان علي (ع) (حياة علي (ع))" وهي قصة قرأتها كثيراً أو سمعتها كثيراً.

قصة عجيبة! ما قاله أولئك الذين اجتمعوا تحت سقف تلك الظلة وما سمعوه يعرفه جميع المطلعين على تاريخ الإسلام والعارفين به. حادثة لا تزال آثارها باقية في العالم الإسلامي مع مرور أكثر من أربعة عشر قرناً عليها. لماذا تصرفوا بذلك الشكل وتلك الطريقة؟

قرأتم مراراً أو سمعتم: كان يُخشى من تفرق المسلمين. كان كلام بطل القصة هو: «أن فتنة اشتعلت ولعل الله يطفئها علي يديه». ولكن ماذا كان يحصل لو صبر يوماً أو عدة ساعات علي الأقل حتى يُدعى أولئك الذين كانوا يبكون في بيت عائشة إلى ذلك الجمع في السقيفة؟

هل كانت الفتنة لتلك الدرجة بحيث لا يجوز الصبر حتى ولو ليوم واحد؟ العلم عند الله، ومن الممكن أن يعلم التاريخ أيضاً.



صارت حجرة عائشة مأتماً. كان علي (ع)، وفاطمة، والعباس والزيير وأبناء فاطمة: الحسن والحسين، وبناتها: زينب وأم كلثوم يبكون. وكان علي منهما كماً بتغسيل الرسول تساعده أسماء بنت عميس.

ماذا جرى على ذلك الجمع الصغير في تلك اللحظات الصعبة والأليمة؟
الله وحده هو العالم.

قبل الفراغ من تغسيل جسد النبي، أو بعده، تناهى إلى الأسماع صوت: الله أكبر.
قال علي للعباس:

- يا عم ما معنى هذا التكبير؟

- معناه أن الذي ما كان ينبغي أن يقع قد وقع. (١)

ولم يمض وقت طويل حتى سُمع من خارج حجرة عائشة أصوات همهمة وصياح. كانت تلك الأصوات تتضح شيئاً فشيئاً:

- اخرجوا! اخرجوا! وإلا أحرقتكم جميعاً بالنار!

توجهت فاطمة نحو باب الحجرة، وهناك تواجهت مع عمر ويده النار.

- عمر! ماذا حصل؟ ماذا حدث؟

- يجب أن يأتي علي والعباس وبنو هاشم إلى المسجد ليبايعوا خليفة النبي!

- أي خليفة؟ ها هو إمام المسلمين داخل حجرة عائشة فوق رأس النبي.

- من هذه اللحظة إمام المسلمين هو أبو بكر! وقد بايعه الناس في سقيفة

بني ساعدة، ويجب أن يبايعه بنو هاشم أيضاً.

- وإذا لم يأتوا؟

- سأ حرق البيت بمن فيه، إلا أن تقبلوا بما قبل به المسلمون.

- أتريد - يا عمر - أن تحرق بيتنا؟

- أجل. (٢)

هل كان الحديث بين بضعة النبي، وهذا الصحابي الكبير والمهاجر والسابق في

الإسلام، بهذا الشكل فعلاً أم لا؟

العلم عند الله.

١ - أنساب الأشراف، ص ٥٨٢. (وسمع العباس وعلي التكبير في المسجد، ولم يفرغوا من غسل رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم، فقال علي: ما هذا؟ فقال العباس: « ما رده مثل هذا قط؛ لهذا قلت لك الذي قلت).

٢ - العقد الفريد، ج ٥، ص ١٢؛ أنساب الأشراف، ص ٥٨٦.

الآن وأنا منهنك بكتابة هذه المسألة، أمامي كتاب ابن عبد ربه الأندلسي (العقد الفريد) وكتاب أنساب الأشراف للبلاذري، وقد نقلت القصة عن هذين الكتائين كما جاء فيهما.

من المستبعد جداً، بل يبدو أنه من المستحيل أن يكون الشيعة أو أنصارهم أو الأحزاب السياسية المؤيدة لهم قد قامت باختلاق هذه القصة؛ لأن أنصار الشيعة كانوا أقلية، ولم يكن لديهم القوة والقدرة في القرون الإسلامية الأولى للقيام بعمل كهذا. وكما نرى فإن هذه الحادثة قد انعكست في المصادر والوثائق الإسلامية في غرب العالم الإسلامي [أي في كتاب العقد الفريد]، وبهذا يتنفي احتمال كون هذه القصة مجعولة، كما أنها تشاهد في الكتب الأخرى أيضاً على هذا النحو أو قريباً منه، على درجات متفاوتة من حيث الرفق والشدة.

أورد الطبري:

فقال الأنصار: لا نباع إلا علياً حدثنا ابن حميد قال أتى عمر بن الخطاب منزل علي وفيه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين، فقال: والله لأحرقن عليكم أو لتخرجن إلى البيعة، فخرج عليه الزبير مصلتاً بسيف، فعثر، فسقط السيف من يده، فوثبوا عليه، فأخذوه.^(١)

حقاً! لماذا حصلت كل تلك الأحاديث والمشاهدات بين أصحاب النبي؟ وهم الذين نصرُوا دين الله في أيام العسرة، وعرضوا أنفسهم للأخطار مراراً، وغامروا بأرواحهم في

سبيله.

ما الذي حصل حتى سارعوا للانتفاض على بعضهم البعض؟
 ما الذنب الذي ارتكبه علي وأهل بيت النبي حتى يجب إحراقهم بالنار؟
 لنفترض - جدلاً - أن واقعة غدِير خم ليست صحيحة، ولنفترض أيضاً - جدلاً - أن النبي لم ينصب أحداً للخلافة، ولنفترض خلو مقدمات الانتخاب في السقيفة عن الطعن والنقاش، فإن الامتناع عن البيعة في الإسلام له سابقة، وليس الامتناع عن بيعة الخليفة من الكبائر.

وفضلاً عن ذلك فإن الحكم الفقهي لا بدّ له من سند شرعي! فماذا كان سند هذا الحكم؟

هل هذا الحديث الذي نقل عن أسامة هو مستند اجتهاده:

«لَيْتَهُينِ رَجَالٌ عَنْ تَرْكِ الْجَمَاعَةِ أَوْ لِأَحْرَقَنِ بِيوتِهِمْ»^(١).

وعلى فرض صحة الرواية متناً وسنداً، هل يقبل هذا الحديث الانطباق على ذلك الجمع؟

هذا الحديث أتى به المحدثون في باب الصلاة! إذن فالمقصود هو التخلف عن صلاة الجماعة.

وفضلاً عن كل هذا لماذا كل هذا الاستعجال في انتخاب الخليفة؟

والأعجب منه، لماذا كل ذلك الأخذ والرد والمشادات بين المهاجرين والأنصار؟

هل كان الأنصار يجهلون حادثة الجحفة^(٢)، أو أنهم لم يكونوا يقبلونها؟

هل يمكن القول بأن أياً من أهل المدينة لم يكن من بين المائة ألف الذين اجتمعوا في

١ - كنز العمال، الصلاة، الحديث رقم ٢٦٧٢.

٢ - أي حادثة غدِير خم. (م).

الجحفة وسمعوا حديث الغدير؟

وهل يعقل أن لا يعلم أحد من قبيلتي الأوس والخزرج به؟

لم يمض على اجتماع الجحفة ثلاثة أشهر، فلماذا طالب رئيس الخزرج وأهل قبيلته

بالرئاسة والزعامة مع أنه كان ممن ناصر الإسلام بكل قوة وحماس؟

ولماذا استسلم لقريش وتنازل لهم بعد ذلك بقوله: «منا أمير ومنكم أمير»؟ فهل كان

يعتبر أن إمارة المسلمين كزعامة القبيلة؟

لماذا لم يسارع هؤلاء المسلمون الحريصون على مصالح الأمة والدين في البداية إلى

تغسيل النبي ومواراته الثرى؟

ربما كان الأمر - على ما ذكرنا آنفاً - بسبب خوفهم من حصول الفتن، فأبو سفيان

لا زال يكمن ويضمر الشر لهم، ولكن لماذا لم يدعوا أحداً من بني هاشم إلى اجتماعهم؟

هل كان خطر أبي سفيان وكمينه لتلك الدرجة من الخطورة بحيث لا يمكن الصبر عنه،

ولو لعدة ساعات؟

من هو أبو سفيان في ذلك الوقت؟

كان حاكماً لبلدة صغيرة تدعى نجران! ولو أن قبائل الأوس والخزرج والمهاجرين

وعشائر بني هاشم وبني تميم وبني عدي، وغيرها من القبائل اتحدت معاً، فماذا كان

بإمكان أبي سفيان والأمويين قاطبة أن يفعلوا؟ وماذا كان بإمكانهم أن يفعلوا ضد

هؤلاء؟

لا شيء!

هل كان هناك خوف من حصول حادث مؤلم ومفاجيء لو لم ينتخب أمير المسلمين

بتلك السرعة؟

لقد طرحت هذه التساؤلات مئات المرات طيلة أربعة عشر قرناً، كما أجيب عنها

بأجوبة ما، ولكن - وكما ذكرت في مكان آخر - كانت تلك الأجوبة تقدم على أساس

إسكات الخصم، وإفحامه في ساحة المناظرة والجدال، ولم تكن على أساس كشف الحقيقة وبيانها على نحو الدقة والموضوعية.

ويبدو أن جمعاً من هؤلاء كان كل همهم في ذلك اليوم هو كيفية انتخاب حاكم بأقصى سرعة ممكنة، ولما فكروا في كيفية إدارة الحكومة^(١)، وبعبارة أخرى: كان أكثر اهتمامهم هو في أحد الأساسين والركنين اللذين قام عليهما الإسلام: (١) الدين، (٢) الحكومة) والذي هو الحكومة وكأنهم كانوا يستدلون لإقناع أنفسهم بالشكل التالي: إذا أمكن تحديد مصير الحكومة المركزية، وتسلم الحاكم مقاليد السلطة، فإن بقية الأمور سوف تجد طريقها نحو الحل!

هذا صحيح، وقد رأينا كيف وقفت المدينة في وجه المرتدين بعد أن تمكنت من الحفاظ على وحدتها، بل وتمكنت من القضاء على المرتدين، ثم تمكنت بعد انتهائها من إخماد الاضطرابات الداخلية من الوصول إلى مرحلة فتح البلدان الأخرى.

ولكن هل يمكن فصل أصل وأساس الدولة والحكومة وانتخاب الحاكم عن الدين؟ وخصوصاً أن الشارح في الإسلام قد ثبت هذا الأصل والأساس؟

وعلى أية حال، فإن أربعة عشر قرناً قد مرت على هذه الحادثة، وأنا لا أعلم ما إذا كان هؤلاء الذين قاموا بذلك العمل، وفتحوا على الأمة الإسلامية ذلك الباب، قد فعلوا ما فعلوا خوفاً وحرقة على الدين أم على انهيار الدولة؟!.

ربما كان لديهم الخوف والحرقة على الاثنين معاً [الدين والدولة]، وربما كانوا يفكرون في أعماق أنفسهم بأنه لو أتيح المجال أمام شخص بارز، وعالم تقي ومن أهل بيت النبي بحيث يتمكن من كسب ثقة فريق [من المسلمين] لأدنى ذلك إلى حصول تزلزل في قوة الحاكم، وهذا ما ترمي إليه هذه الإشارة المقتضبة في تاريخ الطبري:

« فلما توفيت فاطمة انصرفت وجوه الناس عن علي ... فلما رأى علي انصراف وجوه الناس عنه ضَرَعَ إِلَى مِصَالِحَةِ أَبِي بَكْرٍ. »^(١)
 أجل! هذا ما قاله الحسين بن علي (ع):
 «الناس عبيد الدنيا ... إذا محصوا بالبلاء قَلَّ الديانون».

وعلى ما ذكرت في مكان آخر، لا أريد هنا أن أثير مشاعر فريق من المسلمين، ولا أريد أن أدخل نفسي في أمر دخلت فيه طائفة من المسلمين لأجل الدين أو الدنيا،^(٢) وهؤلاء أيضاً قد انتقلوا إلى الرفيق الأعلى وحسابهم عليه. إذا كانوا فعلاً حريصين على الدين وكان هدفهم من وراء أعمالهم وتصرفاتهم هو الله، فإن الله هو أحكم الحاكمين. ولكن كلام الشهرستاني كلام ذو مغزى ودلالة نافذة: «ما سُلَّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سُلَّ على الإمامة في كل زمان»^(٣)
 وكذلك كتبت في مكان آخر: أن لو كان الجيل التالي لجيل الصحابة، والأجيال الأخرى في نفس الدرجة من الإخلاص والفداء والتضحية التي كان عليها المهاجرون والأنصار لكان تاريخ المسلمين اليوم على شاكلة أخرى.

١ - الطبري، ج ٤، ص ١٨٢٥.

٢ - يس از پنجاه سال، ص ٣٠، ط ٢.

٣ - الملل والنحل، ج ١، ص ١٦.



ولم تمض أيام قليلة على هذه الحادثة حتى حصلت حادثة أخرى:
بلدة فدك ليست ملكاً شخصياً، ولا يجوز أن تبقى في يد بنت النبي!
رأى حاكم المسلمين طبقاً لرأيه واجتهاده الشخصي أن: ما كان في يد النبي من
"الفداء" هو جزء من بيت مال المسلمين، ويجب أن يصير الآن إلى يد الخليفة؛ ولهذا
السبب قام بطرد عمال فاطمة (ع) من فدك.

* * *

فذك - على ما ذكرنا - لم تُفتح عنوة، بل قام أهلها بمصالحة النبي؛ ولهذا كانت تعد ملكاً خالصاً له.

كان النبي (ص) في بداية الأمر يصرف عائدات فذك في الإنفاق على مساكين بني هاشم، في تزويج البنات والشبان، وفي مصارف أخرى، ثم أعطاها لابنته فاطمة (١). والآن شخص الخليفة أن النبي كان يتصرف فيها باعتبار أنه رئيس المسلمين وليس بعنوان أنه مالك لها، إذاً فحق التصرف فيها الآن هو للحاكم، وليس لبنت النبي.

اضطرت فاطمة للذهاب إلى أبي بكر، وجرى بينهما الحوار التالي:

- [يا أبا بكر] من يرثك إذا متّ؟

- ولدي وأهلي.

- فما بالك ورثت رسول الله (ص) دوننا؟

- يا بنت رسول الله، والله ما ورث أبوك ذهباً ولا فضة!

- سهمنا بخير وصدقنا فذك؟

- سمعت رسول الله (ص) يقول: «إنما هي طعمة أطعمنيها الله حياتي، فإذا متّ فهي

بين المسلمين» (٢)

- ولكن رسول الله (ص) جعل فذك لي.

- هل لك من بينة؟

- بلى! بعلي علي (ع) (٣) وأم أيمن.

- قد علمت يا بنت رسول الله أنه لا يجوز إلا شهادة رجلين، أو رجل وامرأتين، وأم

١ - تفسير الدر المنثور، ج ٤، ص ١٧٧؛ تفسير ابن كثير، ج ٣، ص ٣٦؛ وراجع فصل "وأت ذا القربى حقه" من هذا الكتاب.

٢ - فتوح البلدان، ج ١، ص ٣٦؛ أنساب الأشراف، ص ٥١٩.

٣ - وفي رواية رباح مولى رسول الله (ص).

أيمن امرأة وشهادتها لوحدها لا تكفي، يجب أن تشهد معها امرأة أخرى، أو اثني برجل بدلاً عنها.

وهكذا دخلت فدك في تصرف الدولة آنذاك.

هل انتهى ما جرى بينهما من كلام فعلاً بهذا الشكل؟

ألم يعط النبي (ص) فدك لابنته؟ ألم يتصرف رواة عصر بني أمية والعباسيين وغيرهم من الفرق بهذه القصة ما أمكنهم ذلك؟ ألم يختلفوا الأحاديث ويتصرفوا بإضافة بعض عبارات الحديث أو التقيص منها؟

كما ذكرت مراراً كان جعل الأحاديث والتغيير بمتون الروايات في تلك الأيام أمراً رائجاً. وقد ذكر نقاد الأحاديث أن عدد الروايات المختلفة والمجعولة وصل إلى أربعمئة ألف رواية^(١)، وهنا لمعرفة الحقيقة لا بدّ من اللجوء إلى القرائن الخارجية.

* * *

نحن نعلم أن فدكاً قد انتقلت طيلة مائتي سنة بعد هذه الحادثة من يد إلى يد، فقد وهبها عثمان إلى مروان بن الحكم، وبناءً على قول آخر معاوية هو الذي أقطعه إياها، وبقيت في أيدي بني أمية حتى نهاية حكم الأمويين.

وعندما وصل الدور إلى عمر بن عبد العزيز قال: فدك هي ملك للنبي كان يأخذ من غلاتها ما يحتاج ويعطي الباقي لفقراء بني هاشم أو أنه كان يصرفه في تزويج عزابهم، وبعد وفاة النبي طلبتها فاطمة من أبي بكر إلا أنه رفض، ثم تابعه عمر على موقفه،

فاشهدوا أنني قد رددتها إلى ما كانت عليه في عهد النبي. (١)

* * *

وفي سنة عشر ومائتين أعاد المأمون فدك إلى أبناء فاطمة، ونصَّ الأمر الذي كتبه إلى قثم بن جعفر عامله على المدينة كما يلي:

«أما بعد، فإن أمير المؤمنين بمكانه من دين الله، وخلافة رسوله صلى الله عليه وسلم، والقراية به أولى من استنَّ سنته، ونفَّذ أمره، وسلم لمن منَّحه منحةً، وتصدَّقَ عليه بصدقةٍ منحتَه وصَدَّقته، وبالله توفيق أمير المؤمنين، وعصمته إليه في العمل بما يقربه إليه رغبته، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فدكاً، وكان ذلك أمراً ظاهراً معروفاً لا اختلاف فيه بين آل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم تزل تدعي منه ما هو أولى به من صدق عليه، فرأى أمير المؤمنين أن يردّها إلى ورثتها، ويسلمها إليهم، تقرباً إلى الله تعالى بإقامة حقه وعدله، وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بتنفيذ أمره، وصدقته، فأمر بإثبات ذلك في دواوينه، والكتاب به إلى عماله، فلئن كان يُنادى في كل موسم بعد أن قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يذكر كل من كانت له صدقة أو هبة أو عِدَّة ذلك، فيُقبل قوله، ويُنفذ عِدته، إن فاطمة رضي الله عنها لأولى بأن يُصدَّق قولها فيما جعل رسول الله صلى

الله عليه وسلم لها، وقد كتب أمير المؤمنين إلى المبارك الطبري مولى أمير المؤمنين يأمره برد فدك على ورثة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بحدودها، وجميع حقوقها المنسوبة إليها، وما فيها من الرقيق والغلات، وغير ذلك، وتسليمها إلى محمد بن يحيى ابن الحسن بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ومحمد بن عبد الله ابن الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب لتولية أمير المؤمنين إياهما القيام بها لأهلها، فاعلم ذلك من رأي أمير المؤمنين، وما ألهمه الله من طاعته، ووقفه له من التقرب إليه، وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم، وأعلمه من قبلك، وعامل محمد بن يحيى، ومحمد بن عبد الله بما كنت تعامل به المبارك الطبري، وأعنهما على ما فيه عمارتها، ومصحتها، ووفور غلاتها، إن شاء الله، والسلام، وكتب يوم الأربعاء لليلتين خلتا من ذي القعدة، سنة عشر ومائتين»^(١).

وفي هذا قال دعبل الخزاعي، الشاعر الشيعي المشهور في القرن الثاني، والنصف الأول من القرن الثالث الهجري:

أصبح وجه الزمان قد ضحكا برداً مأمون هاشم فدكا^(٢)

ونشاهد في أمر المأمون جملة لها أهمية كبيرة:

١ - المصدر السابق، ج ١، صص ٣٦ - ٣٧.

٢ - ديوان دعبل، ص ٢٤٧.

«... وكان ذلك أمراً ظاهراً معروفاً لا اختلاف فيه بين آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليه...»

كتب هذا الأمر في بداية القرن الثالث الهجري، أي قبل وفاة الطبري بمائة عام، وقبل وفاة البلاذري بمائة وثلاثين عاماً. وهو كتاب الخليفة إلى عامله، أي أنه كتاب رسمي وحكومي.

ومن مضمون هذه الجملة التي جاءت في الكتاب يفهم أن ما جرى وحصل في الأيام الأولى بعد وفاة النبي (ص) كان طبقاً لمصالح ورؤى سياسية. وتلك الرؤى السياسية هي التي نسخت السنة النبوية السائدة قبلها.

ولو كان غرض المأمون ينحصر في استعطاف قلوب آل علي (ع) ومشاعر الشيعة فقط لكان عليه أن يفعل كما فعل عمر بن عبد العزيز ويكتفي بإعطائهم عائدات فذك المالية، ولا داعي لتخطئة عمل السالفين عليه.

وفضلاً عن كل ذلك، إذا كانت فذك صدقة فعلاً وكان النبي يتصرف فيها بحسب اختيارات إمرة المسلمين فكيف يقوم خليفة بإقطاعها إلى أقاربه وأسرته في مدة لا تزيد عن خمس وعشرين سنة؟!.

وعلى فرض أن تشخيص عمر بن عبد العزيز (إذا كان ما ذكره البلاذري صحيحاً) بأن ملكية فاطمة لمزرعة فذك ليست مسلمة، فإن من المسلم على أقل التقادير أنها كانت عبارة عن صدقة يجب أن تصرف لها بالذات، ومن بعدها لأبنائها، كما فعل هو بنفسه بحسب الكتاب الذي كتبه في هذا الشأن.

* * *

أجل! وكما ذكرت في بداية الكتاب، الجدل الذي استمر على مر التاريخ الإسلامي

حول هذه المسألة، وملاً فصولاً في الكتب الكلامية، والتاريخية، وكتب السيرة لم يكن لأجل وجوب أن تكون مزرعة فدك في يد بنت النبي (ص) وأبنائها، أو أن تكون في يد الحكومة المعاصرة لهم. وإذا كانت فاطمة قد ذهبت إلى الخليفة الحاكم آنذاك وطالبته بحقها فليس ذلك لأنها كانت تريد مورد رزق لها ولأبنائها، بل كان طلبها هو لأجل أن ذلك الاجتهاد في مقابل النص لن يكون الأول والأخير! بل سوف يتبعه في الغد اجتهاد آخر وهكذا سيتوالى الأمر...

وعندها من الذي يضمن أن لا يجتهد خليفة آخر فيحدث تغييراً أساسياً وجذرياً في الدين؟ تماماً كما شخص المدعى عليه أنه لو أرجع لها تلك المزرعة التي طالبته بها في ذلك اليوم فإنها في الغد سوف تطالبه ببقية حقوقها.

وهكذا صدقت نظرة فاطمة (ع) المستقبلية فبعد أربعين سنة فقط من هذه الحادثة حصلت تغييرات أساسية وجذرية في الدين! ليس فقط خلافاً لسنة النبي (ص) بل خلافاً حتى لما كان عليه الوضع في عصر الخلفاء الراشدين.

يذكر ابن الحديد المعتزلي نكتة ظريفة بأسلوب هزلي حول نفس النتيجة التي استنتجتها، وكانت فاطمة قد خرجت بها من قبل من تصرفات المدعى عليهم في ذلك الوقت :

« سألت علي بن الفارقي المُدرّس في المدرسة الغربية ببغداد:

- أكانت فاطمة صادقة؟

- نعم!

- فلم لم يدفع إليها أبو بكر فدك، وهي عنده صادقة؟

فتبسم ثم قال:

- لو أعطها اليوم فدك بمجرد دعواها، ل جاءت إليه غداً وادعت لزوجها

الخلافة، وزحزحته عن مقامه، ولم يكن يمكنه الاعتذار والموافقة بشيء،

لأنه يكون قد سجّل على نفسه أنها صادقة فيما تدعي كائناً ما كان من غير حاجة إلى بينة ولا شهود.
وهذا كلام صحيح.»

* * *

وهكذا علمت بنت النبي (ص) أن الخليفة مصرّ على رأيه، ولن يتراجع عن اجتهاده، مقدماً له على السنة النبوية الجارية آنذاك، فصممت على طرح شكواها في المكان العام لتجمع المسلمين.



كان المسجد في عصر النبي (ص) و صدر الإسلام هو المركز الوحيد لطلب العدالة، وكل من كان له شكاية وشكوى ضد صاحب قوة وقدرة، وكل من فقد حقاً، وكل من كان يشاهد من حاكم أو عامل من عمال الحاكم تصرفاً بعيداً عن سنة النبي وسيرته كان يتقدم بشكايته أمام ملاء المسلمين في المسجد، حيث كان يجب عليهم ما أمكنهم ذلك أن يقفوا معه وإلى جانبه، ومناصرته إلى أن يحصل على حقه.

وقد أخذ من بنت النبي (ص) حق، وبأخذ هذا الحق منها انتهكت سنة النبي، فكانت ترى بنظرها النافذة والثاقبة أن الحكومة في الإسلام قريبة من أن تأخذ لنفسها صبغة الحكومة القبلية العرقية (وهو ما حدث فعلاً بعد ثلاثين سنة). حيث طرد المهاجرون، وهم من قريش، الأنصار من ميدان السياسة. حينما رغب الأنصار، وهم الذين نصرُوا النبي، في الزعامة والرئاسة.

كانت قريش قبل الإسلام تستعلي عنصرياً على غيرها من العرب، وتخص نفسها بامتيازات معينة، وبمجيء الإسلام زالت تلك الامتيازات.

والآن يقوم هؤلاء الناس مرة أخرى بمدّ أعناقهم تطلعاً نحو زعامة المسلمين ورئاستهم على أنها حق لهم، ليس على أساس امتيازات معنوية من قبيل العلم والتقوى والعدالة، بل على أساس عرقي محض، وهو كونهم من قريش! ولم تكن بنت النبي (ص) لتستطيع السكوت أمام هذه الاجتهادات، أو من الأفضل أن نقول البدع.

يجب تحذير المسلمين من أخطار هذه الانتهاكات للسنة النبوية فإن قبلوا فيها، وإلا فإنها تكون معذورة عند الله تعالى.

هذا ما جعلها تتأهب للتقدم بطرح شكواها أمام الملاء العام، فتوجهت نحو المسجد يرافقها جمع من النساء من أقاربها.

ذكر المؤرخون أنها حينما مشت متوجهة نحو المسجد كان مشيها يشبه مشي أبيها تماماً.

كان أبو بكر جالساً مع جمع من المهاجرين والأنصار في المسجد. أرخيت ستارة بين فاطمة وبين الحاضرين في المسجد، ثم أتت بنت النبي (ص) أنه اهتز لها المجلس، وأن لها الحاضرون، ثم سكنت هنيهة حتى هدأ الناس، وسكنت

الأصوات، عندها بدأت كلامها.^(١)

فكان كلامها خطبة تاريخية، فصيحة، بليغة، مليئة بالشكوى، والإنذار، والتحذير بلهجة نائرة.

أقدم سند - في متناول يد المؤلف - ذكر هذه الخطبة هو كتاب بلاغات النساء الذي قام بجمعه أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر المروزي، المولود في سنة ٢٠٤، والمتوفى سنة ٢٨٠ هجرية قمرية. كتابه - كما يظهر من اسمه وعنوانه - هو مجموعة من الخطب، والأقوال، والأشعار لنساء عربيات في العهد الإسلامي. يبدأ الكتاب بخطبة لعائشة بنت أبي بكر مليئة بالذم، والخطبة الثانية منه هي للسيدة الزهراء (ع).

وقد نقل أحمد بن أبي طاهر هذه الخطبة بشكلين وروايتين. ولكن في المصادر المتأخرة عنه تختلط الروايتان مع بعضهما البعض، فتشاهد الخطبة بشكل وصيغة واحدة تشمل القسمين معاً.

وقد قام المؤلف - مؤلف هذا الكتاب - عند نقله للخطبة برعاية ضبط الكلمات طبقاً لما ذكره أحمد بن أبي طاهر، وبرعاية ترتيب المتن طبقاً لما نقله صاحب كشف الغمة علي بن عيسى الإربلي، المتوفى سنة ٦٩٣ هجرية قمرية.

وأما حول سند ومتن الخطبة فمنذ قديم الأيام (قبل أحمد بن أبي طاهر بسنين) والحديث والنقاش دائر ومستعر. يقول أحمد بن أبي طاهر نفسه:

«ذكرت لأبي الحسين زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) كلام فاطمة (ع) عند منع أبي بكر إياها فدك، وقلت له إن هؤلاء يزعمون أنه مصنوع وأنه من كلام أبي العيلاء؛ لأن الكلام منسوق البلاغة.

فقال لي: رأيت مشايخ آل أبي طالب يروونه عن آبائهم، ويُعلمونه

أولادهم، وقد حدثني به أبي عن جدي، يبلغ به فاطمة (ع)؛ وقد رواه مشايخ الشيعة، وتدارسوه قبل أن يوجد جد أبي العيناء؛ ثم قال: وكيف تنكرون هذا من كلام فاطمة (ع) وهم يروون من كلام عائشة عند موت أبيها ما هو أعجب من كلام فاطمة (ع)، ويحققونه»^(١).

كما نقل ابن أبي الحديد هذا الحوار أيضاً بالشكل نفسه نقلاً عن السيد المرتضى، وهو عن المرزباني، وهو بإسناده عن عبيد الله بن أحمد بن أبي طاهر^(٢). كما رأينا نقلاً عن مؤلف كتاب بلاغات النساء (في النسخ الثلاث التي في متناول يد المؤلف^(٣)) - دار هذا الحوار بينه وبين أبي الحسن زيد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب.

لكن قبول هذه الرواية بهذا السند صعب، بل لا يمكن قبوله! وذلك لأن زيد بن علي ابن الحسين استشهد في سنة ١٢٢ هـ، في حين أن أحمد بن أبي طاهر - علي ما ذكرنا سابقاً - ولد في سنة ٢٠٤ هـ فلا يمكن علي هذا أن يكون قد سأل زيد بن علي ابن الحسين (ع).

ومن المسلم أن كتاب الحديث ورواته سهوا في تسجيل وكتابة السند، وبحسب تبعية فإن العالم الرجالي المعاصر الشيخ محمد تقي الشوشتری هو الوحيد الذي انتبه إلى هذا السهو، فذكر أن هذا الحوار دار بين أحمد بن أبي طاهر، وزيد بن علي بن الحسين

١ - بلاغات النساء، ص ٢٣.

٢ - شرح نهج البلاغة، ج ١٦، ص ٢٥٢.

٣ - ط بيروت، ص ٢٣؛ ط النجف، ص ١٢؛ ط قم، ص ١٢، (وهي مطبوعة بالأوفست عن طبعة النجف).

أبن زيد.^(١) ويؤيد هذا الكلام أن مؤلف كتاب بلاغات النساء جاء في مكان آخر من نفس الكتاب بحديث عن زيد بن علي بن الحسين بن زيد العلوي، وزيد هذا هو نفسه زيد الذي سأله في الحديث السابق.^(٢)

ومن العجيب أن هذا الخطأ قد بقي في طبعتي كتاب بلاغات النساء، والأعجب منه أنه تسرب إلى كتاب شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد. وعلى أية حال، فإن هذه الخطبة قد ذكرت - فضلاً عن ذكرها في هذا المصدر القديم - في الكتب المعتمدة لعلماء الشيعة والسنة.

وأظن أن بعض كتاب السيرة ومحدثي أهل السنة والجماعة قد ذهبوا (إذا لم يتبعوا أهواءهم النفسية - والعياذ بالله -) إلى أن هذه الخطبة موضوعة، لأنها مليئة بالبديع اللفظي والمعنوي، ولا سيما صناعة السجع.

هؤلاء يتصورون أن كل خطيب يخطب في جمع من الناس فسيكون كلامه نشراً مرسلأً، وخصوصاً إذا كان في مقام طرح شكايته وتظلمه. إذا كان موجب وسبب تصورهم هو هذا فعلاً، ومأخذهم ليس من باب الحسد والحقد، فيجب القول أن الحقيقة ليست هكذا.

في خطبة بنت النبي (ص) استعمل التشبيه والاستعارة والكناية، ونحن نشاهد أمثال هذه الصنائع اللفظية والمعنوية في الأقوال القصيرة للصحابة، ولأهل الحجاز في صدر الإسلام بكثرة، فكيف بأهل بيت النبي؟ ويوجد في خطبة بنت النبي من الصناعات اللفظية الموازنة، والترصيع، والتضاد، والسجع، وهو أكثر ما يوجد.

فن السجع والتسجيع في الكلام في كلام آل بيت النبي (ص) أمر طبيعي وعادي جداً،

١ - قاموس الرجال، ج ٤، ص ٢٥٩.

٢ - ط قم، ص ١٧٥.

ونحن نعلم أن التكلم بالسجع كان سائداً في مكة قبل الإسلام، وأوائل مجموعات الآيات المكية تحتوي على هذه الصنعة بكثرة.
وقد تَطَّعَ عليّ خصلة التسجيع في الكلام بنت النبي وزوجها علي بن أبي طالب وأبناؤهما بحكم الوراثة، وتحت تأثير آيات القرآن أيضاً.
وقلما نشاهد عبارة في خطب أمير المؤمنين علي عليه السلام تخلو من السجع، وهكذا كان أبناؤه أيضاً.

عندما كانت زينب (ع) ترد على وقاحات ابن زياد، وشتائمها في مجلسه، قالت:
« لقد قتلت كهلي، وأبرت أهلي، وقطعت فرعي، واجتثت أصلي، فإن يشفك هذا فقد اشتفيت». (١)

فقال ابن زياد: «تقول سجعاً، ولقد كان أبوها سجاعاً».

وفضلاً عن بني هاشم فإن أكثر رجال ونساء عبد مناف كانوا يتقنون هذا الفن.
عندما أراد معاوية أن يرشح ابنه للخلافة سأل عبد الله بن الزبير:
- ماذا تقول؟

- أجابه:

«إني أناديك ولا أناجيك، إن أخاك من صدقك، فانظر قبل أن تتقدم، وتفكر قبل أن تتدم، فإن النظر قبل التقدم، والتفكير قبل التندم. (٢)
فضحك معاوية، وقال له: ثعلب مكار».

١ - الطبري، ج ٧، ص ٣٧٢.

٢ - العنقد الفريد، ج ٥، صص ١١٠ - ١١١.

وأما نص خطبتها عليها السلام فهو:

الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدّم من
عموم نعمة ابتداها، وسبوغ آلاء أسداها، وإحسان منن والاه، جسم عن
الإحصاء عددها، ونأى عن المجازات أمدها، وتفاوت عن الإدراك أبدها،
واستنّ الشكر بفضائلها، واستحمد إلى الخلائق بإجزالها، وثنى بالتدب إلى
أمثالها.

وأشهد أن لا إله إلا الله، كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمّن القلوب
موصولها، وأثار في الفكرة معقولها، الممتنع من الأبصار رؤيته، ومن
الأوهام الإحاطة به. ابتدع الأشياء لا من شيء قبلها، واحتذاها بلا مثال،
لغير فائدة زادته، إلا إظهاراً لقدرته، وتعبداً لبريئته، وإعزازاً لدعوته، ثم
جعل الثواب على طاعته، والعقاب على معصيته، زيادةً لعباده عن نعمته،
وجياشاً لهم إلى جنته.

وأشهد أن أبي محمداً عبده ورسوله، اختاره قبل أن يجتبله، واصطفاه
قبل أن ابتعثه، وسمّاه قبل أن استنجه، إذ الخلائق بالغيوب مكنونة، وبستر
الأهاويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة، علماً من الله عزّ وجلّ بما يل
الأمور، وإحاطة بحوادث الدهور، ومعرفةً بمواضع المقدور، ابتعثه الله
تعالى عزّ وجلّ إتماماً لأمره، وعزيمة على إمضاء حكمه، فرأى الأمم فرقاً
في أديانها، عكفاً على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكراً لله مع عرفانها، فأثار
الله عزّ وجلّ بمحمد صلى الله عليه ظلمها، وفرج عن القلوب بهمها، وجلّى
عن الأبصار غمّمها، ثم قبض الله نبيه صلى الله عليه قبض رافة واختيار،
رغبةً بأبي صلى الله عليه عن هذه الدار، موضوعاً عنه العبد والأوزار،

محتفٍ بالملائكة الأبرار ومجاورة الملك الجبار، ورضوان الرب الغفار، صلى الله على محمدٍ نبي الرحمة، وأمينه على وحيه، وصفيته من الخلائق، ورضيه، صلى الله عليه وسلم ورحمة الله بركاته.

ثم أنتم عباد الله (تريد أهل المجلس) نصب أمر الله ونهيه، وحملة دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم، وبلغاؤه إلى الأمم. زعمتم حقاً لكم لله فيكم عهداً قدمه إليكم، ونحن بقیة استخلفنا عليكم، ومعنا كتاب الله، بيته بصائره، وآي فينا منكشفة سرائره، وبرهان منجلية ظواهره، مديم البرية أسماعه، قائد إلى الرضوان أتباعه، مؤدٍ إلى النجاة استماعه.

فيه بيان حجج الله المنورة، وعزائمه المفسرة، ومحارمه المحذرة، وتبانه الجالية، وجملة الكافية، وفوائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة، ففرض الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك. والصلاة تنزيهاً عن الكبر، والصيام تثبيتاً للإخلاص، والزكاة تزييداً في الرزق، والحج تسلياً للدين، والعدل تنسكاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً، وإمامتنا أمناً من الفرقة، وحبنا^(١) عزاً للإسلام، والصبر^(٢) منجاة، والقصاص حقناً للدماء^(٣). والوفاء بالندب تعرضاً للمغفرة، وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للبخسة، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس، وقذف المحصنات اجتناباً للعنة^(٤)، وترك السرقة إيجاباً للعفة، وحرّم الله عزوجل

١- جاء في بعض المصادر المتأخرة بدلاً عنها كلمة "الجهاد" وهي أنسب مع السياق.

٢- الصبر هنا بمعنى تصبير النفس ومنعها عن الهوى والشهوات. راجع: تفسير التبيان، ج ١، ص ٢٠١، ذيل الآية الكريمة ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾.

٣- إشارة إلى الآية ١٧٩ من سورة البقرة: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾.

٤- إشارة للآية ٢٣ من سورة النور: ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا

الشرك إخلاصاً له بالربوبية ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١) وأطيعوه فيما أمركم به، ونهاكم عنه فإنه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٢).

ثم قالت:

أيها الناس! أنا فاطمة، وأبي محمد، أقولها عوداً على بدء، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٣)، فإن تعرفوه تجدوه أبي دون آبائكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم، فَبَلِّغِ النَّذَارَةَ، صادعاً بالرسالة، مائلاً عن مدرجة المشركين، ضارباً لِتَبْجِهِمْ، آخذاً بكظمهم، يهشم الأصنام، وينكث الهام، حَتَّى هَزَمَ الْجَمْعَ، وَوَلَّوْا الدَّبْرَ، وتفزئ الليل عن صبحه، وأسفر الحق عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاشق الشياطين، وكنتم على شفا حفرة من النار، مُدْقَةَ الشَّارِبِ، ونُهْزَةَ الطَّامِعِ، وقبسة العجلان، ومَوْطَأَ الأَقْدَامِ، تشربون الطُّرُقَ، وتقتاتون الورق، أذلةً خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله برسوله ﷺ بعد اللتيا والّتي، وبعد ما مُنِّي بِهِمُ الرِّجَالُ، وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب.

كلما حشوا ناراً للحرب أطفأها، أو نجم قرن الضلال، وفغرت فاغرة من المشركين قذف بأخيه في لهواتها، فلا ينفكى، حتى يطا صماخها بأخصه، ويخمد لهبها بحدده، مكدوداً في ذات الله، قريباً من رسول الله، سيداً في

والآخرة، ولهم عذاب عظيم﴾.

١- آل عمران/٣: ١٠١.

٢- سورة فاطر/٣٥: ٢٨.

٣- التوبة/٩: ١٢٩.

أولياء الله، وأنتم في بلهنيةٍ وادعون آمنون.
 حتى إذا اختار الله لنبيةٍ دار أنبيائه، ظهرت خلّة التفاق، وسمل جلاب
 الدّين، ونطق كاظم الغاوين، وتبعَ حامل الآفلين، وهدر فنيق المبطلين،
 فخطر في عَرَصَاتِكُمْ وأطلع الشّيطان رأسه من مغرزه، صارخاً بكم،
 فوجدكم لدعائه مستجيبين، وللعزة فيه ملاحظين، فاستنهضكم، فوجدكم
 خفافاً، وأجشمكم فالقاكم غضاباً، فوسّمتم غير إبلكم، وأوردتموها غير
 شربكم، هذا والعهد قريبٌ، والكلم رحيبٌ، والجرح لنا يندمل.

زعمتم خوف الفتنة ﴿ألا في الفتنة سقطوا، وإن جهنم لمحيطةٌ
 بالكافرين﴾^(١)، فبهيات منكم، وأتني بكم، وأتني تُؤفكون، وهذا كتاب الله
 بين أظهركم، زواجه بينة، وشواهدة لائحة، وأوامره واضحة، أرغبةً عنه
 تريدون؟ أم بغيره تحكمون؟

بئس للظّالمين بدلاً ﴿ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو
 في الآخرة من الخاسرين﴾^(٢)

ثمّ لم تريثوا إلا ريث أن تسكن نغرتها، تشربون حسواً، وتسرون في
 ارتغاء، ونصبر منكم على مثل حز المدي، وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث
 لنا، أفحكم الجاهلية تبغون؟ ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم
 يوقنون﴾؟^(٣)

ويهاً معشر المهاجرين، أأبتزُّ إرث أبي؟
 يا ابن أبي قحافة! أفي الكتاب أن ترث أباك ولا أرث أبي؟

١- التوبة/٩: ٤٩.

٢- آل عمران/٣: ٨٥.

٣- المائدة/٥: ٥٠.

لقد جئت شيئاً فريباً!

فدونكها مخطومةً مرحولةً، تلتاقك يوم حشرِك؛ فنعم الحكم الله،
والزعيم محمدٌ، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المُبطلون، و﴿لكلِّ
نبأ مستقرٌّ، وسوف تعلمون﴾. (١)

ثمَّ انحرفت إلى قبر النبي ﷺ وهي تقول:

قد كان بعدك أنباء وهنبتة لو كنت شاهداها لم تكثر الخطب
إنَّا فقدناك فَقَدَ الأرض وابلها واختل قومك فاشهدهم ولا تغيب

معشر البقية، وأعضاد الملة، وحصون الإسلام! ما هذه الغميرة في حقي؟
والسنة عن ظلامتي، أما قال رسول الله ﷺ: «المرء يُحفظ في
وُله»؟!

شرعان ما أجدتكم فأكدتكم، وعجلان ذا إهالة، تقولون: «مات رسول
الله ﷺ»! فخطب جليلٌ استوسع وهيه، واستنهر فتقه، وفُقد راتقه،
وأظلمت الأرض لغيبته، وكتابت خيرة الله لمصيبته، وخشعت الجبال،
وأكدت الآمال، وأضيع الحريم، وأذيلت الحرمة عند مماته، وتلك نازلة
علينا بها كتاب الله في أفئيتكم في مُساكم ومُصبحكم، يهتف بها في
أسماعكم، وقبله حلت بأنبياء الله عز وجل ورسله.

«وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفان مات أو قُتل
انقلبتم على أعقابكم؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرَّ الله شيئاً

وسيجزي الله الشاكرين ﴿١﴾.

إيها بني قيلة! ﴿٢﴾ أهضمُّ ثراث أبي، وأنتم بمرأى ومسمع، تلبسكم
الدعوة، وتملككم الحيرة، وفيكم العدد والعدة، ولكم الدار، وعندكم
الجنن. وأنتم الآن نخبة الله التي انتخبت لدينه، وأنصار رسوله وأهل
الإسلام، والخيرة التي اختيرت لنا أهل البيت، فباديتم العرب، وناهضتم
الأمم، وكافحتم البهيم، لا نبرح نأمركم وتأمرون حتى دارت لكم بنا رحى
الإسلام، ودرّ حلب الأنام، وخضعت نعة الشرك، وبأخت نيران الحرب،
وهدأت دعوة الهرج، واستوسق نظام الدين، فأنى حُرتم بعد البيان،
ونكصتم بعد الإقدام، وأسررتم بعد الإعلان لقوم نكثوا أيمانهم؟!
﴿أتخشونهم؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾ ﴿٣﴾

١- آل عمران/٣: ١٤٤.

٢- جاء في بعض المعاجم العربية وغيرها من كتب اللغة أن قيلة هو اسم امرأة يرجع الأنصار في
نسبهم إليها. وعندما تحدث أبو الفرج الأصفهاني عن نسب الأوس والخزرج، قال: أمهم قيلة بنت
جفنة بن عتبة بن عمرو، وقال: قضاة هي قيلة بنت كاهل بن عذرة بن سعد. الأغاني، ج ٣،
ص ٤٠. ولكن يجب الانتباه إلى أن "قيلة" هي كلمة جنوبية أي أنها كلمة كانت تستعمل على السنة
سكان "اليمن السعيد". وأهل يثرب (المدينة) هم مهاجرون سكنوا يثرب بسبب دمار سد مأرب أو
لسبب آخر، وفي المرحلة الثانية من حكومة السبئيين على الجنوب كان لمملوكهم مستشارون
سياسيون ينتخبون من بين الأشراف والوجهاء، وكان يقال لواحدهم "قيل"، فبناءً عليه فإن
كلمة "قيلة" ترادف الأعيان والوجهاء والكبار، وأمثالها.

٣- التوبة/٩: ١٣.

ألا قد أرى أن أخلدتم إلى الخفض، وركنتم إلى الدعة، فعُجِّتُم عن
الدين، ومَجَّجْتُم الَّذِي وَعَيْتُم، ودَسَعْتُم الَّذِي سَوَّعْتُم ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ
وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً، فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾. (١)

ألا وقد قلت الذي قلته على معرفةٍ منِّي بالخذلان الذي خامر صدوركم،
واستشعرته قلوبكم، ولكن قلته فيضة النفس، ونفثة الغيظ، وبثة الصدر،
ومعذرة الحجّة، فدونكموها، فاحتقبوها مدبرة الظهر، ناكبة الحقّ، موسومةً
بشئار الأبد، موصولةً بنار الله الموقدة التي تَطَّلَعُ على الأفئدة، فبعين الله
ما تفعلون ﴿وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون﴾ (٢) وأنا ابنة
نذير لكم بين يدي عذاب الله، ﴿فاعملوا إنا عاملون، وانتظروا إنا
منتظرون﴾.

١- سورة إبراهيم/١٤: ٨.

٢- الشعراء/٢٦: ٢٢٧.



ماذا تركت تلك الخطبة المؤثرة التي كانت تصدر عن قلب حرى في ذلك الجمع الذي كان نصفه مُطَمَّعاً ونصفه الآخر مُخَوَّفاً؟ العلم عند الله.

لم يذكر التاريخ والوثائق التاريخية الأصلية الأولى سوى إشارات مبهمّة وغامضة. ولو أنها ذكرت فإنها لم تصلنا بسبب التلاعب والتحريف الكثير الذي طرأ عليها. ولكن من المسلم به أن خطبة بنت النبي (ص) وزوجة ابن عمه في ذلك المجلس لم تمرّ دون أثر.

كل ما لدى هؤلاء في ذلك اليوم هو من بركة أبيها الذي توفي بالأمس، وههم اليوم

يسلبون من أبنته حقها.

وإذا كان المهاجرون في ذلك اليوم قد رأوا أن مصلحتهم تقتضي أن يلتزموا الصمت تجاه تلك الخطبة، فإن الأنصار لم يكن موقفهم كذلك. الأنصار الذين خرجوا من اجتماع السقيفة ساخطين جاءت هذه الخطبة بما فيها من مأخذ على الطرف الآخر لتشكل دافعاً وحافزاً لهم.

ولكن ما هو بالتحديد رد فعلهم؟ ماذا قالوا؟ وماذا سمعوا؟ وهل كان موقفهم واحداً وكلمتهم واحدة؟ وهل هبوا للاعتراض؟ لا نعلم.

هل اكتفوا بالتأسف والتحسر؟ العلم عند الله.

ربما قالوا: قضي الأمر، وقامت الدولة حالياً، ويجب مساندتها، ومصلحة المسلمين تقتضي أن يكونوا كلمة واحدة إذا كانت قلوبهم متفرقة، وذلك لأن رائحة العصيان والتمرد تشم من كل الأماكن في خارج المدينة.

وطبقاً لما ذكره المؤرخون كان جواب أبي بكر لبنت النبي هو التالي:

- يا ابنة رسول الله! لقد كان [أبوك (ص)] بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً وعلى الكافرين عذاباً أليماً، وإذا عزوانه كان أباك دون النساء، وأخا ابن عمك دون الرجال، آثره على كل حميم، وساعده على الأمر العظيم، لا يحبكم إلا العظيم السعادة، ولا يبغضكم إلا الرديء الولادة، وأنتم عترة الله الطيبون، وخيرة الله المنتخبون: على الآخرة أدلنا، وباب الجنة لسالكنا؛ وأما منعك ما سألت، فلا ذلك لي؛ وأما فذك، وما جعل لك أبوك، فإن منعك فأنا ظالم، وأما الميراث فقد تعلمين أنه (ص) قال: «لا نورث، ما أبقيناه صدقة».

- فقالت ﴿ﷺ﴾:

إن الله يقول عن نبي من أنبيائه ﴿يرثني ويرث من آل يعقوب﴾، وقال: ﴿وورث سليمان داوود﴾ فهذان نبيان، وقد علمت أن النبوة لا تورث، وإنما يورث ما دونها، فما لي أ منع إرث أبي، أنزل الله في الكتاب: إلا فاطمة بنت محمد، فتدني عليه، فأقنع به.

- فقال:

يا بنت رسول الله! أنت عين الحجة ومنطق الرسالة، لا يد لي بجوابك، ولا أدفعك عن صوابك، ولكن هذا أبو الحسن بيني وبينك.

وذكر ابن أبي الحديد أن ردّ الفعل الذي تركته الخطبة كان بشكل آخر، فقال أن جواب أبي بكر على خطبة الزهراء (ع) كان كما يلي:

يا ابنة رسول الله! والله ما خلق الله خلقاً أحب إليّ من رسول الله (ص) أ بيك، ولوددت أن السماء وقعت على الأرض يوم مات أبوك، والله لئن تفتقر عائشة أحب إليّ من أن تفتقري، أتراني أعطي الأحمر والأبيض حقه، وأظلمك حقه، وأنت بنت رسول الله (ص)، إن هذا المال لم يكن للنبي، وإنما كان مالاً من أموال المسلمين يحمل به النبي الرجال، وينفقه في سبيل الله، فلما توفي رسول الله (ص) وليته كما كان يليه.

- قالت: والله لا كلمتك أبداً.

- قال: والله لا هجرتك أبداً.

- قالت: والله لأدعون الله عليك.

- قال: والله لأدعون الله لك ^(١).

كما حدّث ابن أبي الحديد نفسه عن محمد بن زكريا أنه لما سمع أبو بكر خطبتها شقّ عليه مقاتلتها فصعد المنبر، وقال:

أيها الناس! ما هذه الرعة ^(٢) إلى كل قالة؟ ^(٣) أين كانت هذه الأمانى في عهد رسول الله (ص)؟ ألا من سمع فليقل، ومن شهد فليتكلم، إنما هو ثعالة ^(٤) شهيدة ^(٥) ذنبه، مرب ^(٦) لكل فتنة، هو الذي يقول: «كروهاً جذعه ^(٧) بعدما هرمت». يستعينون بالضعفة، ويستنصرون بالنساء كأم طحال ^(٨) أحب أهلها إليها البغي، ألا إني لو أشاء أن أقول لقلت، ولو قلت لبُحت، إني ساكت ما تُركت.

ثم التفت إلى الأنصار، فقال:

قد بلغني يا معشر الأنصار مقالة سفهائكم، وأحق من لزم عهد رسول الله (ص) أنتم، فقد جاءكم فأوتم ونصرتم، ألا إني لست باسماً يداً، ولا

١ - شرح نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٤.

٢ - الاستماع والإصغاء.

٣ - القول.

٤ - اسم الثعلب.

٥ - شاهده.

٦ - ملازم.

٧ - كروها جذعه: أعيدوها إلى الحال الأولى.

٨ - امرأة بغيّة يُضرب بها المثل في الجاهلية، فيقال: "أزنى من أم طحال".

لساناً علي من لم يستحق ذلك منا.

* * *

بعد سماع هذا الجواب انصرفت فاطمة (ع) إلى منزلها.

يقول ابن أبي الحديد:

قرأت هذا الكلام على النقيب أبي يحيى جعفر بن يحيى بن أبي زيد

البصري، وقلت له:

- بمن يعرض؟

- فقال: بل يصرح!

- قلت: لو صرّح لم أسألك!

- فضحك، وقال بعلي بن أبي طالب (ع).

- قلت: هذا الكلام كله لعلي يقوله؟!

- قال: نعم! إنه المُلْك يا بني!

- قلت: فما مقالة الأنصار؟

- قال: هتفوا بذكر علي، فخاف من اضطراب الأمر عليهم فنهاهم.^(١)

هل قال الخليفة فعلاً ذلك الكلام في ذلك اليوم؟ وهل كانت فاطمة (ع) حاضرة في

المسجد حينها وسمعت ذلك التوهين لزوجها وهو ابن عم النبي، وأول المسلمين؟ هل

كانت دراية الخليفة وخبرته ومصالحته تسمح له بأن يقول مثل ذلك الكلام؟ وإذا كان هذا

الكلام قد قيل فعلاً، فماذا كان رد فعل الحاضرين عليه؟ هل قبلوا به؟ هل اعترضوا؟ هل التزموا الصمت؟

هل يمكن القول أن هذا الكلام لا صحة له ولا أساس؟
ولكنّ ابن أبي الحديد والنجيب البصري لم يكونا شيعيين، وهو ما يعني أن هذا الكلام لم ينقله الشيعة فقط.

هل يمكن القول أن المعتزلة هم الذين وضعوه واختلقوه، ثم نسبوه إلى الخليفة؟ وبالطبع فإن الجواب هو النفي، لأنه لا مصلحة لهم في هذا العمل.
ولكن إذا صدر كلام على سبيل الاعتراض، ولا يُستبعد أن يكون قد صدر مثله، فيجب القول أن الحكومة قد أبدت إزاءه ردة فعل صارمة، خوفاً من حصول اعتراضات لاحقة!!

وعلى أية حال إذا لم يمكن الوصول إلى جواب قاطع وشفافٍ لكل واحد من هذه الأسئلة، فإن أمراً واحداً قد اتضح، وهو أن موت النبي كان بالنسبة للمسلمين امتحاناً صعباً وكبيراً. وهو ما أشار إليه القرآن الكريم مسبقاً في الآية الكريمة:

﴿وما محمد إلا رسول ... أفان مات أو قتل انقلبتم على

أعقابكم﴾.

وقد قام أصحاب تلك السياسة وأنصارهم ومؤيدوهم بالبحث عن أدلة لكل ما قاله هؤلاء، وما فعلوه، ولا زالوا يكتبون وبيتغون التوفيق بين ذلك، وبين مصلحة المسلمين: يجب حفظ وحدة الكلمة؛ إذا وقفت بعض الفئات في وجه الحكومة الجديدة فستكون النتيجة إضعاف الحكومة المركزية؛ يجب تطويع هؤلاء وإخضاعهم لما عليه جماعة المسلمين؛ أبو سفيان العدو للدود للإسلام يكمن بحثاً عن فرصة يغتنمها، وقد شرع

بحياكة المؤامرات، حيناً يذهب إلى بيت العباس وحيناً يذهب إلى بيت علي، وهو يريد أن يحرض هذين الاثنين من أقارب رسول الله؛ إذا نجح أبو سفيان في عمله واستطاع إيجاد تحزبات داخل المدينة، ووقف الأنصار في وجه المهاجرين، فإن اضطراباً كبير سيضعف بالمدينة؛ سعد بن عباد رئيس طائفة الخزرج يطمح إلى الخلافة، وهو لم يبايع الخليفة حتى الآن؛ الأنصار يعتبرون أنفسهم أحق من المهاجرين برئاسة المسلمين؛ إذا لم تتعامل الحكومة مع الأمور بحزم وصرامة فكل يوم سوف تظهر دعوة جديدة من زاوية ما في المدينة^(١).

تكررت مثل هذه التأويلات والتوجيهات وأمثالها منذ اليوم الأول وحتى يومنا هذا مئات المرات، عبارات شتى والمعنى واحد.

ما هو مسلم هو أنه قلما يوجد إنسان لا يغير منطقته بحسب مقتضيات الظروف السياسية والاقتصادية ليتناغم مع الوضع الحاضر والموجود فعلياً. وكما ذكرت في مكان آخر^(٢) يمكن القول أن تلك الفئة أباحت لنفسها ما فعلت زعماً منها أن صلاح المسلمين

١ - انظر إلى: فاطمة الزهراء [ع]، عباس العقاد، ص ٥٧؛ المجموعه الكامله لعباس محمود العقاد، ج ٢، ص ٣٢٧ و ٣٢٦. ونأتي هنا بنص ما ذكره العقاد تسهيلاً على القارئ الكريم: وكانت السيدة فاطمة ترى حق علي في الخلافة أو ترى أن قرابة النبي أحق المسلمين بخلافته، وأن بلاء علي في الجهاد، وعلمه المشهود به يؤهلانه لمقام الخلافة، وكان هذا رأي طائفة من الصحابة الصالحين أدهشهم أن يجري الأمر على غير هذا المجرى، فاجتمعوا عندها، واجتمعوا في غير بيتها يشاورون فيما بينهم: أبايعون أم يتخلفون؟ وبعد مساجلات بينهم وبين أبي بكر وعمر سمرت الفتنة عن مقصدها، وتكشفت الدسيسه التي بينها أبو سفيان؛ فقد عاد أبو سفيان يعرض مبايعته علي علي، ويتحفزه للوقية، فصدده علي، وعرض له بذكر الغشمة والمخادعين... فلما يئس من هذا الباب طرق باباً آخر لعله يبلغ منه إلى مأربه، وذهب إلى العباس... فبرده العباس كما رده علي.

٢ - پس از پنجاه سال، [= نهضة الحسين (ع)]، ط ٢، ص ٣١.

ومصالحهم في ذلك، ولكن هل ما تصورته صلاحاً للمسلمين كان فعلاً مصلحة للمسلمين أم لا؟ هذا بحد ذاته محل بحث.

في ظنهم أنهم أرادوا المنع من ظهور الاختلاف وحدوث الفتنة أو على الأقل تبرير سلوكياتهم وأعمالهم بمثل هذا الكلام؛ ولكن - على ما ذكرت - إذا غُيِّر أصل مسلم في مجتمع (لأي غرض وبأي نية) فإن ذلك سيصبح مستمسكاً للأجيال التالية، وهي الأجيال التي لم يكن لديها (مع الأسف) من التفاني والإيثار والتضحية ما كان لدى الجيل الأول، ولو كان لديها فمن المسلم أن التاريخ الإسلامي سيكون له صورة أخرى.

* * *

ذكر المؤرخون أن فاطمة بنت النبي المصطفى لما سمعت ذلك الكلام في الجواب على خطبتها عادت إلى بيتها حزينة ومتألّمة وساخطة، وهناك قالت لزوجها:

يا ابن أبي طالب! اشتملت شملة الجنين، وقعدت حجرة الطيبين، نقضت قادمة الأجدل، فخانك ريش الأعزل. هذا ابن أبي قحافة يبتزني نحلة أبي، وبليغة ابني، لقد أجهر في خصامي، وألفيته ألدّ في كلامي حتى حسني قبيلة نصرها، والمهاجرة وصلها، وغلّضت الجماعة دوني طرفها، فلا دافع ولا مانع، خرجت كاظمةً، وعدت راغمةً، أضرعت خدك يوم أضعت خدك، افترست الذئاب وأفترشت التراب! ما كفت قائلًا، ولا أغنيت باطلاً، ولا خيار لي.

ليتني متّ قبل هنتي ودون ذلتي، عذيري الله منك عادياً، ومنك حامياً، ويلاي في كلّ شارق، ويلاي مات العمّد، ووهنت العَضد وشكواي إلى

أبي، وعدواي إلى ربّي! اللهم أنت أشدّ قوّة.

فأجابها أمير المؤمنين:

لا ويل لك، بل الويل لشائتك، نهني عن وجدك يا ابنة الصّفوة، وبقية التّبوة، فما ونيت عن ديني، ولا أخطأت مقدوري، فإن كنت تريدين البلغة فرزقك مضمون، وكفيلك مأمون، وما أعدّ لهم خير ممّا قطع عنك، فاحتسبي الله.

فقالت: حسبي الله ونعم الوكيل.

وقد أتى ابن شهر آشوب بهذا الحوار الذي دار بين فاطمة (عليها السلام) وزوجها في كتاب المناقب من دون أن يذكر سنده ^(١). ويشاهد الحوار نفسه في كتاب البحار مع اختلاف بسيط ^(٢).

هل حصل مثل هذا الحوار بين فاطمة وزوجها فعلاً؟

كيف يمكن أن يحصل مثل هذا الحوار بينهما؟

الشيعة تقول بالعصمة لكليهما.

هل يمكن القبول بأن بنت المصطفى تقوم بتأنيب ولوم زوجها بهذا الشكل؟

ولأي شيء، لأجل رزق أطفالها؟

من البديهي أنه يمكن البحث والوصول إلى جواب لهذا التساؤل كما يمكن تبرير

وتسوية كل ما قيل وما دار بينهما.

- ج ٢، ص ٢٠٨.

- ج ٤٣، ص ١٤٨.

ولكن لو انتهى التبرير والتسويغ والتأويل إلى أبحاث منطقية واستدلالات طويلة ومفصلة فإننا سنصل إلى نتيجة لصالح الطرف الذي يتمتع بمنطق أقوى وأسلم. أو الذي يتمكن من شرح وتفسير الروايات من حيث المعنى أو التأويل لصالح منطقه. ومثل هذا الأسلوب خارج عن مهمة الباحثين في التاريخ.

كل ما نراه هنا هو أن الخطبة المنسوبة للسيدة الزهراء بنت رسول الله مليئة بالصناعات البدعية؛ معنوية ولفظية من الاستعارة، والتشبيه، والكناية، والطباق، والسجع. وهي الأمور التي تضيء على أي خطبة تحتوي عليها جمالاً وروعة. الكلام الذي يوجه إلى جمع من الحضار يجب أن يأخذ طريقه إلى أعماق قلوبهم. وفي مثل هذا النوع من الخطب يهتم الخطيب في الوقت نفسه بالمعنى، وجمال الكلمات، والبديع فيها أيضاً.

ولكن لماذا يجب أن يكون الحوار الذي يدور بين امرأة وزوجها ولا سيما أنه مليء بالشكوى والعتاب على هذه الشاكلة؟ اللهم إلا أن يقال أن ابنة النبي (ص) أرادت أن تستعرض قدرتها ومهارتها في فن الخطابة والكلام أمام زوجها؟ وعلى أية حالة، وكما يقال: في مثل هذه الظروف يفتح الباب على كثير من الاحتمالات والفرضيات، ويبقى العلم بالحقيقة عند الله تعالى وحده.



وفاة أبيها، مظلومية زوجها، سلبها حقها، والأهم من جميع ذلك التغييرات التي أحدثت في السنة الإسلامية - في فترة قصيرة - كل ذلك أثر في روح و جسم بنت النبي المصطفى (ص) عميق الأثر. طبقاً للوثائق والمصادر التاريخية لم تكن فاطمة تعاني من أي مرض أو علة جسدية.

ومع أن الوثائق القديمة والمصادر الأساسية لا تقول مطلقاً أن الزهراء (ع) كانت في ذلك الوقت مريضة^(٢) إلا أن بعض المعاصرين كتب: فاطمة من الأساس كانت

١ - منسوب للسيدة فاطمة الزهراء (ع).

٢ - أنساب الأشراف، ص ٤٠٥.

ضعيفة البنية الجسدية. (١)

العقاد مؤلف كتاب "فاطمة الزهراء" مع أنه لم يصرح بأنها كانت مريضة في ذلك اليوم إلا أنه يلمح بذلك، فقد كتب :

« وكانت الزهراء نحيلة سمراء، يمازج لونها شحوب في كثير من الأوقات، وقد رآها النبي عليه السلام في مرض وفاته، فقال لها انها أسرع أهله لحوقاً به». (٢)

ولم يذكر أي من هذين المؤلفين سنده فيما أورده.

وظاهر عبارة العقاد هو أن النبي (ص) عندما رأى اعتلال بدنها، أو ضعفه أخبرها بذلك [أي بأنها أول من يلحق به من أهل بيته].

لا أريد هنا أن أقول كما قال بعض القدماء أن فاطمة عليها السلام كانت تكبر في كل يوم بمقدار ما يكبره غيرها في شهر، وتكبر في كل شهر بمقدار ما يكبره الآخرون في سنة. (٣) ولكن أقول بحسب علمي واعتقادي، وبحسب ما تذكره المصادر المعتبرة أنها لم تكن ضعيفة البنية، ولا متغيرة اللون، ولا مبتلاة بأي مرض من قبل. ومرضاها طراً عليها بعد هذه الأحداث.

فكانت في الأيام التي عاشتها بعد موت أبيها متألمة، وذابلة وباكية. لم تكن أبداً لتطبيق فراق أبيها، ولأجل هذا عندما سمعت من أبيها خبر موتها، ولحاقها به ابتسمت، فكانت ترى الموت سعادة تفضلها على العيش دون أبيها.

ذكرنا سابقاً قصة أولئك الذين جاؤوا إلى بيتها، وأرادوا إحراقه بكل من كان فيه وكانت هي نفسها فيه - وكما رأينا - فإن المصادر القديمة سجلت تلك الحادثة وذكرتها. نفس هذه الحادثة بحد ذاتها كافية لإيلاها وإحزانها، فكيف إذا أضيف إليها الأحداث

١ - فاطمة هي فاطمة، ص ١١٧.

٢ - فاطمة الزهراء، ص ٦٦: المجموعة الكلمة لعباس محمود العقاد، ج ٢، ص ٣٣٣.

٣ - روضة الواعظين، ص ١٤٤.

المؤلمة الأخرى التي حصلت.

هل صحيح أن عضدها ضرب بالسوط؟ هل أرادوا الدخول إلى البيت عنوة وقهراً حينما كانت تقف خلف الباب، فأدّى ذلك إلى صدمها وإيذاؤها بدنياً؟ في تلك اللحظات المليئة بالأحداث والمشادات أليس من الممكن أن تحصل تلك الحادثة لها؟ وإذا كانت تلك الحادثة فعلاً صحيحة، وقد حصلت على أرض الواقع، نتساءل هنا: حقاً لماذا حصل ذلك؟ ولماذا اللجوء إلى العنف والخشونة؟ كيف يمكن أن نقبل حصول تلك الحادثة، وكيف يمكن تحليلها؟

المسلمون الذين تحملوا أقصى أنواع التعذيب لأجل الحفاظ على عقائدهم، وفي سبيل الله، ونيل رضاه؛ المسلمون الذين ضحوا بأموالهم، وضحوا بقطع أعز وأغلى علاقات القربى مع ذويهم؛ المسلمون الذين تركوا أوطانهم ومنازلهم وهاجروا - قربة إلى الله - إلى بلد أجنبي عنهم، أو إلى مدينة بعيدة عن مدينتهم.

المسلمون الذين خاطروا بأنفسهم، وأرواحهم في مختلف الميادين، كيف أمكن لهم أن يشاهدوا كل تلك الأحداث والمشاهد ويقفوا مع كل ذلك متفرجين؟ هنا يتبادر إلى الأذهان الكلمة الحكيمة والمعبرة للإمام الحسين (ع) ابن فاطمة الزهراء البار: « فإذا محصوا بالبلاء قلّ الديانون ».^(١)

حتى ذلك الحين كان قد مرّ على نشوء الدعوة الإسلامية ثلاث وعشرون سنة، وعلى هجرة الرسول (ص) عشر سنوات، وخلال هذه المدة دخل في الدين الإسلامي جمع من طلاب وعبدة الدنيا الذين لم يجدوا بداً من الدخول في الدين الإسلامي، ومن بينهم أناس ممن اعتادوا على حياة الرفاهية، وراحة الجسد والرئاسة وحياة الأشراف، فكانت طبيعتهم تأبى الخضوع التام لتشريعات وقوانين الدين التي تحد من هذه الأخلاق، ولكن

لم يكن لديهم خيار آخر غير الدخول في الإسلام؛ لهذا دخلوا في الإسلام على مضض. قريش تلك القبيلة المغرورة التي كانت تعتبر زعامة ورياسة مكة وشبه الجزيرة العربية من حقها وحدها، وجدت نفسها بعد فتح مكة أمام قوة كبيرة اسمها "الإسلام" فدخلت في الإسلام خوفاً على أرواحها، أو طمعاً بالوصول إلى الجاه في الإسلام نفسه، لذا عملت جهدها على الوصول إلى القدرة والانفراد فيها. وأما الاعتقاد بأن هؤلاء ومن مجرد مجالستهم للنبي (ص) جلسة أو جلستين صاروا في غاية التقوى والسيطرة على زمام أهوائهم، ومسلمين حقيقيين، وعلى هذا الأساس قام المحدثون بإضفاء لقب "الصحابي" على هؤلاء، هذا الاعتقاد هو قمة إخفاء الحقيقة أو السذاجة بعينها.

نحن نعلم بالتنافس الشديد، بل بالعداوة القائمة بين العرب الجنوبيين والعرب الشماليين في القرون السابقة على ظهور الإسلام.^(١)

كان أهل الحجاز وطبقاً لأخلاقهم وعقليتهم البدوية يعدون أهل يثرب القحطانيين الذين كانوا يعملون في الزراعة أقل درجة ومنزلة منهم.

القحطانيون أو عرب الجنوب الذين كانوا يقطنون مدينة يثرب قاموا بدعوة النبي (ص) من مكة إلى مدينتهم، وآمنوا به، وتحالفوا معه وعقدوا معه عهداً، ثم قاتلوا معه قريشاً في معارك "بدر" و "أحد" و "الأحزاب"، والغزوات الأخرى، وفي خاتمة المطاف فتحوا مدينة هؤلاء أي مكة.

لم تكن قريش لتقبل أبداً بذلك الذل والهوان. ومن جهة أخرى طمح أهل المدينة في اجتماع السقيفة بأبصارهم إلى الخلافة، ولكنهم تراجعوا إلى الخلف من سماع الحديث الذي ذكره أبو بكر لهم، وهو أن النبي (ص) قد قال: «الأئمة من قريش».

لو التفت الأنصار حول أهل بيت النبي كما التفتوا حول النبي (ص)، ولو أن حرمة أهل

بيت النبي بقيت محفوظة، فمن الذي يضمن أن لا يُمرغ القحطانيون مرة أخرى أنوف العدنانيين بالتراب؟

كانت هذه الحقائق معروفة جيداً لساسة أولئك الزمان.

وإذا قبلنا هذه الحقيقة الواقعية أو تجاهلناها وألقينا أنفسنا في السذاجة، وصدقنا أن جميع أصحاب النبي في درجة واحدة من التقوى والفداء، ولا يمكن أن يحدث في حقهم خلاف ذلك، فإن تلك الحقائق التي حصلت على أرض الواقع لا تتغير وتبقى هي نفسها. زالت العداوة مؤقتاً بين العرب الجنوبيين والعرب الشماليين بعد عقد ميثاق الأخوة والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ثم ما لبثت علائقها بالظهور بعد وفاة النبي مباشرة، ثم ظهرت بكل وضوح في السنوات التالية، وكما يعرف الملمون بالتاريخ الإسلامي استمرت هذه المنازعات بين هذين الفريقين في كافة أنحاء العالم الإسلامي حيثما تواجدوا إلى زمان المعتصم العباسي.

ولا أقول أن جميع أصحاب النبي (ص) - والعياذ بالله - كانوا يفكرون بهذا الشكل، فقد كان من بين المضربين أو القرشيين من كان يراقب الله في أعماله وتصرفاته وأقواله دون الدنيا، وكان أحياناً يضحى بالأهل والولد لأجل رعاية حكم الله، ولكن عدد هذا القبيل كان قليلاً.

هل يمكن القبول بكل بساطة بأن أمثال عمرو بن سهيل، وعمرو بن العاص، وأبي سفيان، وسعد بن عبد الله بن أبي سرح كان يهمهم أمر الدين حقاً؟ كما أن من غاية السذاجة أن نقول أن الشخص الذي صاحب النبي (ص) يوماً أو عدة أيام وحتى شهراً أو عاماً فإنه مشمول للحديث الذي جاؤوا به «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم».

ولا أنوي هنا التعرض والبحث في هذا الحديث من حيث المتن والسند: أنهما

صحيحان أم لا؟ فأنا أفوض هذا الأمر للمحدثين. (١)

ما هو مسلم في تلك الأيام، أو على الأقل بعد عدة سنوات، وقوف أصحاب النبي في مقابل بعضهم البعض في معارك مختلفة، فكيف يمكن القول أن من شايح وتابع علياً، ومن شايح وتابع طلحة والزبير ومعاوية جميعاً قد ساروا في طريق الهداية والصواب؟ سيقال أن الخليفة وأصحابه من أوائل الذين دخلوا في الإسلام، ومن طبقة المهاجرين الأولى، هذا صحيح! ولكن لو تجاوزنا الخليفة وواحد أو اثنين غيره، فعلى من اعتمدت الحكومة في تثبيتها وتدعيمها سوى قريش؟

ومن أي طائفة كان عمال الحكومة، وجهازها التنفيذي؟

ومن أجل استقرار الحكومة يجب أن تكون القدرة نسيجاً واحداً ومتناغماً، وللوصول إلى هذه القدرة والقوة يجب القضاء على أي نوع من المعارضة، وطبعي جداً أن يتغير المنطق مع تغير الظروف والمعادلات.



لازمت بنت النبي الفراش على أثر آهات الحزن والمصائب.
في مدة مرضها كم رجلاً من أولئك الرجال الذين كانت أرواحهم على أكفهم، ومن
أولئك المسلمين المستعدين للتضحية، من أولئك الذين كل ما لديهم هو من بركة أبيها،
كم واحداً من كل أولئك خفف عنها حزنها وآلامها، أو قام بعيادتها؟
لا أحد!!

سوى واحد أو اثنين من المحرومين والمستضعفين من أمثال بلال وسلمان.
وأيا كان، فإن النساء أرق عاطفة وإحساساً من الرجال، ولا سيما في ذلك الزمان
حيث كانت النساء خارج ساحة السياسة، ولم يكن يتدخلن مباشرة فيما يجري في ميدان

السياسة.

ذكر الصدوق بإسناده إلى فاطمة بنت الحسين بن علي (ع):
 «اجتمع عندها نساء المهاجرين والأنصار»^(١)، ولكن في عبارة أحمد بن أبي طاهر فقط «النساء»، ولا ذكر للمهاجرين والأنصار^(٢)، ولو كانت هناك واحدة من نساء المهاجرين قد جاءت مع من جئن لعيادة الزهراء (ع)، فمن المقطوع به أنها لم تكن من نساء طبقة الأشراف الممتازة، بل من الفئة التي لم تكن منخرطة في أمور السياسة. أما الأنصار فكان لهم موقفهم، ومكانتهم الأخرى، فهم قد وطدوا علاقاتهم ومنذ الأيام الأولى لهجرة النبي (ص) إلى مدينتهم مع أقاربه وأهل بيته. وكما سأذكر فيما يأتي، فإن أكثرية الأنصار قد استمرت على حبها لعلي وأبنائه وأهل بيته.

وعلى أية حال، فإن الجواب الذي أجابت به فاطمة بنت النبي رداً على سؤالهم يبين الروحية المتغيرة والمتلونة لأناس ذلك الزمان، تماماً كما هو الحال في غيره من الأزمان. بنت النبي المصطفى (ص) ناقمة على تصرف رجالهم.

مقالة الزهراء (ع) لم تكن جواب استفسار عن حالها وصحتها، بل هي خطبة بليغة تبين أوضاع الزمان في المدينة وقتها، وتنبئ عما سيحصل ويجري بعد ربع قرن. أقدم متن في متناول يد الكاتب لهذه المقالة هو كتاب "بلاغات النساء" ولكن نص هذه المقالة جاء في كتب كثيرة أخرى من قبيل: أمالي الشيخ الطوسي، وكشف الغمة، والاحتجاج للطبرسي، وبحار الأنوار للمجلسي، وغيرها من الكتب، وما نقلته هنا هو لفظ أحمد بن أبي طاهر:

١ - بحار، ج ٤٣، ص ١٥٨.

٢ - بلاغات النساء، ص ٣٢.

« كيف أصبحت من علتك يا بنت رسول الله؟ »

- أصبحت والله عاتفةً لديناكم، قاليةً لرجالكم، لفظتهم بعد أن عجمتهم وشأتهم بعد أن سبرتهم، فقبحاً لقلول الحدّ، وخطل الرأي ﴿وبئس ما قدّمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم، وفي العذاب هم خالدون﴾. ^(١) لا جرم لقد قلّدتهم ربقتها، وشننت عليهم عارها، فجدعاً وعقراً، وبعداً للقوم الظالمين.

ويحهم أنّي زحزحوها عن رواسي الرّسالة، وقواعد التّسوية، ومهبط الرّوح الأمين، الطّيبين بأمر الدّنيا والدين، ﴿ألا ذلك هو الخسران المبين﴾!

وما الذي نعموا من أبي الحسن؟

نعموا والله نكير سيفه، وشدة وطأته، ونكال وقعته، وتنمره في ذات الله.

وبالله لو تكافؤوا عن زمام نبذّه إليه رسول الله ﴿ﷺ﴾ لسار بهم سيراً سَجَاحاً لا يكلم خشاشه، ولا يتتبع راكمه، ولأوردهم منهلاً نَميراً فضفاضاً تطفح ضفتاه، ولأصدرهم بطاناً قد تحيّر بهم الرّي، غير متحلّي بطائل، إلاّ بغمر النّاهل، ورذعة سورة السّاعب، ولفّحت عليهم بركات من السّماء والأرض، وسيأخذهم الله بما كانوا يكسبون.

ألا هلتمنّ فاسمعن، وما عشتنّ أراكنّ الدّهر عجباً! إلى أيّ لجأ استندوا،

وبأي عروة تمسكوا؟ ﴿ولبئس المولى ولبئس العشير﴾^(١) و﴿لبئس للظالمين بدلاً﴾^(٢).

استبدلوا والله الذنابي بالقوادم، والعجز بالكاهل، فرغماً لمعاطس قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾^(٣).

ويحهم! ﴿أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدي﴾^(٤)؟

فما لكم كيف تحكمون؟

أما لعمر إلهكن! لقد لقيت فنظرة، ريشما تبتج، ثم احتلبوا طلاع القعب دماً عيباً، وذعافاً مقراً، هنالك يخسر المبطلون، ويعرف التالون غب ما أسس الأولون.

ثم طيبوا عن أنفسكم نفساً، وطامنوا للفتنة جاشاً، وأبشروا بسيف صارم، وبقرح شامل، واستبداد من الظالمين، يدع فيئكم زهيداً، وجمعكم حصيداً، فيا حسرة لكم! وأنى لكم! وقد ﴿عميت عليكم، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾^(٥).

هذا الكلام الذي بدا في ذلك اليوم أنه كلام يعبر عن آلام القلب، والتذمر والسخط

١- الحج/٢٢: ١٣.

٢- الكهف/١٨: ٥٠.

٣- البقرة/٢: ١٢.

٤- يونس/١٠: ٣٥.

٥- هود/١١: ٢٨.

الذي كانت تشعر به بنت النبي (ص) بسبب المصيبة التي ألمت بها، والظلم الذي تعرضت له، هو في الحقيقة ناقوس خطر مُحدق، ليس فقط بالمهاجرين والأنصار، بل محدق بالنظام الإسلامي بكامله، ويهدد مستقبل النظام الإسلامي بأكمله.

ولم يمض زمن طويل حتى تحقق فعلياً كل ما أخبرت به فاطمة بنت المصطفى، وحذرت، وخوفت الناس من مغبة عاقبته، وهي على فراش المرض، وفي الأيام التي سبقت اعتقالها.

قيل في ذلك اليوم أن النبوة والإمامة لا ينبغي أن تكون في بيت واحد، وأن قريش، تلك القبيلة الأنانية، والطامحة إلى الزعامة، يجب أن ترأس على الناس، ومن قال ذلك لم يكن يرى ما ستؤول إليه الأمور، ولم يعلم أن زعامة قريش على المسلمين سوف تختزل في بني أمية، ثم في أبناء أبي سفيان، وذرية الحكم ابن العاص، والمروانيين. ولم يعلم أن عاصفة هذا القرار العجول سوف تزيل بكل قوة وباتجاه واحد كل الغبار المتراكم على العداوة والمنافسة القديمة بين العراق والشام، ولم يعلم أن المنافسة القحطانية والعدنانية سوف تبعث من جديد، وأن الفريقين سوف يقفان في مقابل بعضهما البعض متصارعين، وسوف تزهب أرواح الخلفاء في هذا الصراع، وفي النهاية سوف تشتعل نار تستوعب أصقاع وأنحاء المشرق، ثم الحجاز والشام والمغرب الإسلامي. ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَتْ حَتَّىٰ يَغْيِرُوا مَا بَأْسَهُمْ ﴾ (١).

ولمزيد من الاطلاع على هذه التغييرات، والنتائج التي ترتبت عليها، سوف نأتي بفصل مستقل تحت عنوان " لبرة التاريخ "



كم يوماً بقيت بنت الرسول المصطفى (ص) طريحة الفراش؟
دقيقاً لا نعلم!

كم شهراً بقيت بعد النبي المصطفى (ص) حتى فارقت الحياة؟
ليس معروفاً علي وجه التحديد.

أما ما ذكره المؤرخون، فهو أربعون ليلة^(٢) في الأقل، وثمانية أشهر في الأكثر^(٣).

١- سورة ص / ٣٨: ٤٩ - ٥٠.

٢- بحار، ج ٤٣، ص ١٩١؛ روضة الواعظين، ص ١٥١.

٣- الاستيعاب، ص ٧٤٩.

وبينهما يوجد روايات مختلفة تتراوح المدد التي تذكرها بين شهرين^(١)، وخمسة وسبعين يوماً^(٢)، وثلاثة أشهر^(٣)، وستة أشهر^(٤).

لماذا كل هذا الاختلاف، ولماذا جميع هذه الروايات المختلفة؟

ذكرنا سابقاً أن تاريخ الحوادث في تلك السنوات كان ينقل من ذهن شخص إلى ذهن آخر. ومن الذي يستطيع أن يدعي أن جميع الرواة والناقلين كانوا معصومين عن الخطأ؟ وهذا فيما لو لم تتوفر دواعٍ أخرى! ونحن نعلم أنه في تلك الأيام المليئة بالاضطرابات لم تكن التحزبات السياسية قد فقدت قوتها من جهة، ومن جهة أخرى كان المسلمون منشغلين بالحروب في داخل الدائرة الإسلامية نفسها، وفي مثل تلك الظروف من الذي كانت لديه الجرأة على كتابة تاريخ الحوادث بشكل صحيح وحيادي؟ وعلى فرض أن أياً من هذين العاملين لم يكن له أي دخل أو تأثير في هذه الحادثة فمما لا شك فيه أن التحزبات السياسية التي وصلت إلى السلطة بعد ذلك لم تتوان أبداً - ما وسعها الأمر - عن التلاعب في التأريخ للأحداث، والحوادث الحاصلة.

طبقاً لنقل المجلسي عن دلائل الإمامة أراد صحابيا رسول الله (ص) في فترة مرض الزهراء (ع) مرة أن يعوداها، ولكن الزهراء (ع) كانت ترفض السماح لهما بذلك، وكان علي (ع) قد وافق من جهته، وعلق السماح على قبول الزهراء من جهتها، ثم كان جواب

١ - بحار، ج ٤٣، ص ٢١٣.

٢ - عيون المعجزات طبقاً لنقل المجلسي، ص ٢١٢.

٣ - طبقات، ج ٨، ص ١٨.

٤ - أنساب الأشراف للبلاذري، ص ٤٠٢.

فاطمة النهائي هو أن البيت بيتك^(١).

مع أن ابن سعد كتب أن أبا بكر لا زال يكلم فاطمة حتى أرضاها^(٢). ولكن بحسب الظاهر فإن النتيجة التي كان أبو بكر يتوخاها لم تحصل.

قالت لهما فاطمة (ع) أما سمعما النبي يقول: «فاطمة بضعة مني، فمن آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله»؟
قالا: بلى.

قالت: فوالله لقد آذيتما.

فخرجا من عندها، وهي ساخطة عليهما.

وذكر البخاري في صحيحه: بعد أن طالبت بنت النبي الخليفة بميراثها من أبيها، وقال لها الخليفة أنني سمعت النبي يقول لا نورث، لم تكلمه الزهراء (ع) بعد ذلك حتى ماتت^(٣).

طلبت - ﴿ﷺ﴾ - في أواخر أيام حياتها أسماء بنت عميس، وهي ممن هاجر إلى الحبشة، ومن المقربات منها. وذكرنا سابقاً أن أسماء كانت أولاً زوجة جعفر بن أبي طالب، فلما استشهد جعفر في معركة مؤتة تزوجت من أبي بكر بن أبي قحافة. قالت بضعة النبي (ص) لأسماء:

- «إني قد استقبحت ما يُصنع بالنساء، أنه يطرح على المرأة الثوب، فيصفها لمن رأى».

١- البحار، ج ٤٣، ص ١٧٠ نقلاً عن دلائل الإمامة؛ وراجع أيضاً: علل الشرائع، ج ١، ص ١٧٨.

٢- الاستيعاب، ٧٥١؛ طبقات، ابن سعد، ج ٨، ص ١٨؛ أنساب الأشراف، ص ٤٠٥؛ بحار، ج ٤٣، ص ١٨٩.

٣- صحيح، ج ٥، ص ١٧٧.

- يا بنت رسول الله! أنا أريك شيئاً رأيته بأرض الحبشة، فدعت بجريدة رطبة فحسنتها، ثم طرحت عليها ثوباً.

- ما أحسن هذا وأجمله! لا تعرف به المرأة من الرجل، فإذا متُّ فاغسليني أنت، ولا يدخلن عليّ أحد». (١)

في آخر يوم من عمرها طلبت ماءً، وغسلت جسمها كأحسن غسل، ولبست ثياباً جدداً، ودخلت حجرتها، وطلبت من جاريتها أن تمدّها لها فراشها في وسط الغرفة فاضطجعت، واستقبلت القبلة، وجعلت يدها تحت خدها، ثمّ قالت: «إني مقبوضة الآن». (٢)

طبقاً لنقول وروايات علماء الشيعة، فإنّ زوجها علياً هو الذي قام بتغسيلها، وهذا أيضاً اختيار ابن سعد (٣)، ولكن علي ما ذكرنا آنفاً، وطبقاً لما قاله ابن عبد البر، فإن بضعة المصطفى قد أمرت أسماء بأن تتولّى تغسيلها، ويبدو أن أسماء ساعدت علياً في تغسيل فاطمة (عليها السلام).

ذكر ابن عبد البر أن عائشة أرادت الدخول إلى حجرة فاطمة بعد أن فارقت الحياة، فمنعتها أسماء تنفيذاً لوصية فاطمة (عليها السلام)، فاشتكت عائشة إلى أبيها قائلة أن: «هذه الخثعمية» (٤) تحول بيننا وبين ابنة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد جعلت لها مثل هودج

١ - استيعاب، ص ٧٥١؛ راجع: طبقات ابن سعد، ج ٨، ص ١٨؛ أنساب الأشراف، ص ٤٠٥؛ بحار، ج ٤٣، ص ١٨٩.

٢ - بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ١٧٢ نقلاً عن أمالي الشيخ الطوسي؛ راجع: أنساب الأشراف، ص ٤٠٢؛ طبقات، ج ٨، صص ١٧ - ١٨.

٣ - طبقات، ج ٨، ص ١٨.

٤ - خثعم من القحطانيين، أي من العرب الجنوبيين، وهذه كلمة كان العدنانيون (ومن جملتهم قريش) يعيرون بها القحطانيين.

العروس».

- لماذا تمنعين نساء النبي من الدخول على ابنته؟

ولماذا صنعت لها هذه الحجلة؟

- أمرتني [فاطمة (ع)] أن لا يدخل عليها أحد، وأريتها هذا الذي صنعت، وهي حية،

فأمرتني أن أصنع لها ذلك.

- فقال لها أبو بكر: «اصنعي ما أمرتك»، وانصرف. (١)

وذكر ابن عبد البر أن أول امرأة في الإسلام صنع لها نعش بهذا الشكل هي

فاطمة عليها السلام ابنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم هُبيء آخر على هذا الشكل لزینب بنت جحش (إحدى

زوجات النبي صلى الله عليه وآله وسلم).



اتفق العلماء وأصحاب التراجم وكتاب التذكرة الشيعة على دفن نعش بنت النبي ومواراته الثرى ليلاً.

كما أن ابن سعد يقول في رواياته التي عن طريق ابن شهاب، وعروة، وعائشة والزهري وغيرهم أن فاطمة دفنت ليلاً، وأن علياً هو الذي واراها الثرى (٢).

كما أن البلاذري أيضاً قد ذكر نفس الشيء في كلتي روايته في هذا المجال (٣)، وقال البخاري أيضاً:

١- البقرة / ٢: ٥٦.

٢- طبقات، ج ٨، صص ١٨-١٩.

٣- أنساب الأشراف، ص ٤٠٥.

دفنها بعلمها ليلاً، ولم يسمح لأبي بكر أن يحضر الصلاة على جنازتها. (١)

الكليني وهو من كبار العلماء والمحدثين الشيعة والذي توفي في بداية القرن الرابع الهجري، وصنف كتابه في النصف الثاني من القرن الهجري الثالث، وتعد كتبه من أقدم المصادر الشيعة ذكر ما يلي:

«لما قبضت فاطمة (ع) دفنها أمير المؤمنين سرّاً، وعفا على موضع قبرها، ثم قام فحوّل وجهه إلى قبر رسول الله (ص)، فقال:

«السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِّي، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ عَنِ ابْنَتِكَ، وَزَائِرَتِكَ، وَالْبَائِئِةِ فِي الثَّرَى بِبِقَعَتِكَ، وَالْمَخْتَارِ لِلَّهِ لَهَا سُرْعَةُ اللَّحَاقِ بِكَ.
قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِ صَفِيَّتِكَ صَبْرِي، وَعَفَا عَنِ سَيِّدَةِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ تَجَلُّدِي، إِلَّا أَنْ فِي النَّاسِي لِي بِسَنَتِكَ فِي فِرْقَتِكَ مَوْضِعَ تَعَزٍّ، فَلَقَدْ وَسَّدْتِكَ فِي مَلْحُودَةِ قَبْرِكَ، وَفَاضَتْ نَفْسُكَ بَيْنَ نَحْرِي وَصَدْرِي.

بلى! وفي كتاب الله (لي) أنعم القبول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (٢).
قد استرجعت الوديعه، وَأَخَذَتِ الرَّهِيْنَةَ وَأُخْتَلِسَتِ الرَّهْرَاءُ فَمَا أَقْبَحَ الْخَضْرَاءُ وَالْغَبْرَاءُ.

يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَمَا حُزْنِي فَسَرَمَدٌ، وَأَمَا لَيْلِي فَمُسَهَّدٌ، وَهَمٌّ لَا يَبْرَحُ مِنْ قَلْبِي أَوْ يَخْتَارَ اللَّهُ لِي دَارَكَ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا مُقِيمٌ، كَمَدَّ مُقْبِحٌ، وَهَمٌّ مُهَيِّجٌ سُرْعَانَ مَا فَرَّقَ بَيْنَنَا، وَإِلَى اللَّهِ أَشْكُو.

١ - الصحيح، ج ٥، ص ١٧٧؛ راجع أيضاً: البحار، ص ١٨٣.

٢ - البقرة / ٢: ٥٦.

وَسْتَنْبِكَ ابْنَتِكَ بِتَطَافُرِ أُمَّتِكَ عَلَى هَضْمِهَا، فَأَخْفِهَا السُّؤَالَ، وَاسْتَخْرِهَا الْحَالَ، فَكَمْ
مِنْ غَلِيلٍ مُعْتَلَجٍ بِصَدْرِهَا لَمْ تَجِدْ إِلَى بَيْتِهِ سَبِيلًا، وَسَقُولُ وَيَخُكُّمُ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ
الْحَاكِمِينَ.

سَلَامٌ مُودَعٌ لَا قَالٍ وَلَا سَمٍ، فَإِنْ أَنْصَرِفَ فَلَا عَنْ مَلَالَةٍ، وَإِنْ أَقِمَ فَلَا عَنْ سُوءِ ظَنٍّ
بِمَا وَعَدَ اللَّهُ الصَّابِرِينَ.

وَأَهَا وَأَهَا، وَالصَّبْرُ أَيْمُنٌ وَأَجْمَلُ، وَلَوْلَا غَلَبَةُ الْمُسْتَوَلِينَ لَجَعَلْتُ الْمَقَامَ وَاللَّبْثَ لِرِزَامًا
مَعْكُوفًا، وَلَا عَوْلْتُ إِعْوَالَ الثَّكَلَى عَلَى جَلِيلِ الرَّزِيَّةِ.

فَبِعَيْنِ اللَّهِ تُدْفَنُ ابْنَتُكَ سِرًّا، وَتُهَضَّمُ حَقَّهَا، وَتُمنَعُ إِرْثُهَا، وَلَمْ يَبْأَعِدِ الْعَهْدُ، وَلَمْ
يَخْلُقْ مِنْكَ الذَّكْرُ، وَإِلَى اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْمُشْتَكَى، وَفِيكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحْسَنُ
الْعَزَاءِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ، وَعَلَيْهَا السَّلَامُ وَالرِّضْوَانُ.

في مقابل هذه الشهرة جاء ابن سعد برواية أخرى تقول أن أبا بكر صلى على بنت
النبي (ص)، وكبر عليها أربع تكبيرات. (١)

من الواضح أن هذه الرواية، وحديث أو حديثين غيرها في مقابل تلك الشهرة لا قيمة
لها، وليس بعيداً أن تكون مجعولة لمصالح محددة.

أثر فقدان ابنة النبي على علي كثيراً وآلمه، ونموذج هذا الألم رأيناه في الكلام الذي
قاله مخاطباً به النبي (ص) وهو إلى جانب قبر فاطمة.

ونموذج آخر في هذين البيتين من الشعر اللذين ينسبان إليه في المصادر القديمة، ويظهر فيهما حرقه قلبه عليها، ولكن عدد هذه الأبيات في المصادر المتأخرة صار أكثر، حيث وصل عددها في الديوان المنسوب إليه إلى تسعة عشر بيتاً^(١).

يقول المدائني:

لَمَّا فرغ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه من دفن فاطمة، وقف على قبرها وأنشأ هذين البيتين:

وكل الذي دون الممات قليل	لكل اجتماع من خَليلين فرقة
دليل علي أن لا يدوم خليل	وإن افتقادي واحداً بعد واحد

وفي بعض المصادر نصّ البيتين هو:

وكل الذي دون الفراق قليل	لكل اجتماع من خليلين فرقة
دليل علي أن لا يدوم خليل	وإن افتقادي فاطماً بعد أحمد

وللمصحح الفاضل للطبعة الأخيرة من كتاب بحار الأنوار (طبعة طهران) في ذيل الصفحة السابعة والثمانين بعد المائة من المجلد الثالث والأربعين عبارة هي:

« جاء في بعض النسخ: «وإن افتقادي واحداً بعد واحد» وهو الصحيح؛ لأنّ علياً عليه السلام تمثّل بهذين البيتين تمثلاً، ولم يُنشئهما إنشاءً. لكنّ عبارة الزبير بن بكار هي هكذا: «وأنشأ يقول». وفضلاً عن هذا فإن البيتين في الديوان المنسوب إليه هما كما ذكرتهما. وذكر المجلسي: «روي أن هاتفاً أجابه، ثمّ ذكر أربعة أبيات»^(٢).

١ - راجع أيضاً: البحار، ج ٤٣، ص ٢١٦.

٢ - البحار، ج ٤٣، ص ١٨٣.



وللأسف أيضاً أن بقعة مزار ابنة النبي ليست معلومة المكان على وجه التحديد! مما تقدم حول وفاتها، ومن السعي الذي بُذل لكتمان هذا الخبر يُعلم أن أهل البيت كانوا قلقين، ومضطربين لهذا الموضوع، لماذا هذا القلق؟ لا أعلم دقيقاً.

من الممكن أن يكون أحد الأسباب هو امتثال وتنفيذ وصية السيدة الزهراء (ع) نفسها، إذ لم تُرد أن يحضر تشييع جنازتها، والصلاة عليها، ومراسم دفنها أولئك الذين كانت غاضبة وساخطة عليهم.

ولكن، لماذا أزيلت معالم قبرها؟ أو لماذا تمّ تمويه قبرها بأن جعل ما يشبه سبعة قبور، أو أربعين قبر في مقبرة البقيع، أو في بيتها؟

لماذا كل هذا الإصرار على إخفاء مزارها؟

وإذا كان أبناؤها قد قاموا بإخفاء قبر أبيهم عن أعين الناس في سنة أربعين هجرية، فبسبب الخوف من هتك حرمة من قبل أعدائه، ولكن لا يمكن أن نقول أن وضع المدينة بعد أربعين ليلة من وفاة النبي، أو بعد ثمانية أشهر على الأكثر هو نفس وضع الكوفة بعد أربعين سنة من وفاة النبي (ص)!

فالذين نازعوا علماً للحصول على بعض المناصب والمكاسب السياسية ليسوا بالأشخاص الذين عاشوا في سنة إحدى عشرة هجرية.

والذين كانوا في المدينة كانوا يُفرون بين نظرهم لعلي ونظرهم لفاطمة. وحتى لو كان الأمر لمجرد رعاية الظواهر فإنهم كانوا يرعون لفاطمة حرمة، ومن المسلم به أنهم ما كانوا ليتعرضوا لقبرها بالسوء، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا يمكن القول أن الرواة قد نسوا مكانه، أو أنه قد نسي مكان مزار الزهراء (ع) على أثر مرور الزمان، وذلك لأن محل قبري صحابي رسول الله (ص) إلى جانب قبره بقي محفوظاً ومعروفاً، ومحل مزار ابن الزهراء في البقيع أيضاً يمكن تحديده على وجه التقريب.

إذاً من كل ما تقدم نستنتج أن سبب هذا الإخفاء والكتمان شيء آخر! وهو السبب الذي تقدمت الإشارة إليه في الفصل السابق بإجمال، وهو نفس السبب الذي ذكرته الزهراء (ع) في المقالة التي يُحتمل أن تكون آخر كلامها، وهو ما قالتها للنسوة اللواتي قاموا بعيادتها: «... أصبحت - والله - عاتقة لدنياكم، قالية لرجالكم...»، فكانت تريد أن تدفن بعيداً عن أعين الذين لم يكونوا من الشاكرين، ولم يعرفوا الحق، وحتى "علامات قبرها" أرادت أن تكون بعيدة عن أنظارهم.

ذكر ابن شهر آشوب أن أبا بكر وعمر عاتبا علياً (ع) كونه لم يؤذنهما بالصلاة على

فاطمة، فاعتذر أنها أوصته بذلك، وحلف لهما، فصدقاه وعذراه. (١)

وطبقاً للرواية التي أتى بها الكليني عن أحمد بن أبي نصر عن الرضا(ع):
«سألت الرضا(ع) عن قبر فاطمة(ع)؟، فقال: دفنت في بيتها، فلما زادت
بنو أمية في المسجد صارت في المسجد» (٢).

ونقل ابن شهر آشوب عن الشيخ الطوسي قوله: أن الذي يبدو أنه الأصح أنها دفنت
في بيتها أو في روضة النبي(ص). (٣)

في مقابل هذه الرواية روى ابن سعد المتوفى في بداية القرن الثالث الهجري عن
عبد الله بن الحسن أنه قال:

«وجدت المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام واقفاً ينتظر
بالبقيع نصف النهار في حرٍّ شديد، فقلت له:
- ما يوقفك يا أبا هاشم ها هنا؟
- انتظرتك، بلغني أنّ فاطمة دفنت في هذا البيت في دار عقيل مما يلي
دار الجحشيين، فأحبُّ أن تبتاعه لي بما بلغ، أَدْفنُ فيها.
- والله لأفعلن.
فجهد عبد الله بالعقلين، فأبوا.

قال عبد الله بن جعفر:

- المناقب، ج ١، ص ٥٠٤.
- أصول الكافي، ج ١، ص ٤٦١.
- المناقب، ج ٣، ص ٣٦٥.

وما رأيت أحداً يشك أن قبرها في ذلك الموضع. (١)

لو لم يكن هناك قرينة تعارض رواية أحمد بن أبي نصر لُقبِلت، ولكن علماء الشيعة ذكروا روايات تشير إلى أن دفن بنت النبي كان في البقيع، وفضلاً عن هذا جاء فيها أيضاً تسمية سبعة قبور. (٢)

وفي رواية: «أربعين قبراً للتمويه على قبرها عليها السلام»، وهذا قرينة على أن القبر لم يكن داخل البيت، لأن البيت المتواضع الصغير لبنت النبي لم يكن ليتسع لكل هذه القبور الوهمية، وأيضاً هناك رواية في البحار تقول: «أن المسلمين لما علموا وفاتها جاؤوا فجرأ إلى البقيع، فوجدوا فيه أربعين قبراً جديداً، فأشكل عليهم قبرها من سائر القبور». (٣)

ونقل المجلسي (صاحب البحار) عن دلائل الإمامة، والأخير بإسناده عن الإمام الصادق عليه السلام أن ولاية الأمر من الناس الذين جاؤوا إلى البقيع قالوا:

— هاتم من نساء المسلمين من ينش هذه القبور حتى نجدها، فنصلي عليها.
 قبلغ ذلك علياً أمير المؤمنين صلوات الله عليه، فخرج مغضباً قد احمرت عيناه، ودرت أوداجه، وعليه قباه الأصفر الذي كان يلبسه في كل كراهة، وهو متوكئ على سيفه ذي الفقار ...

— [وقال:] وأما قبر فاطمة، فو الذي نفس علي بيده لئن رُمت وأصحابك شيئاً من ذلك لأسقين الأرض من دمائكم.

— ... فإننا غير فاعلين شيئاً تكرهه ...

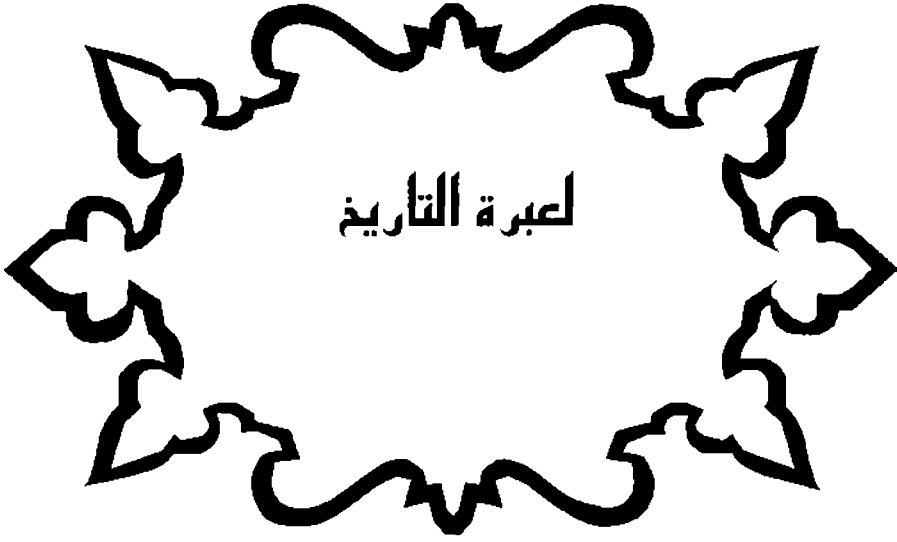
١ - الطبقات، ج ٨، ص ٢٠.

٢ - البحار، ج ٤٣، ص ١٨٢.

٣ - ج ٤٣، ص ١٧١.

وتفرّق الناس، ولم يعودوا إلى ذلك. (١)

وعلى أية حال، فإن إخفاء قبر بنت النبي المصطفى يُظهر سخطها وغضبها على عدد من الأشخاص، ومن الواضح أنها أرادت بهذا العمل أن تُظهر للملأ سخطها وغضبها عليهم.



« وتالله لو تكافؤوا عن زمام نَبَذَهُ
إليه رسول الله (ص) لَسَارَ بِهِمْ سِيراً
سُجْحاً لا يكلم خَشَاشَهُ، ولا يتعتع
راكبه،...»

ولأصدرهم بِطَاناً قد تَخَيَّرَ بِهِم الرِيَّ
... ولفُتحت عليهم بركاتٌ من
السماء والأرض ...»

فَنَظَرُوا رِيثاً تُنتج، ثم احتلبوا طلاع
القعب دماً عَيْطاً، وذعافاً
ممقراً...»

لم يمض على الكلام المليء بالشكوى الذي قالته ابنة الرسول وهي على فراش المرض لئساء الأنصار ربع قرن حتى تبدلت الجزيرة العربية الهادئة والناعمة البال والمتوحدة إلى أرض للصراع والاضطراب والثورات.

وظهرت من جديد العداوات التاريخية القديمة التي كانت في مرحلة ما قبل الإسلام، والتي نُسيت لمدة تزيد عن عشرين عاماً، أو أنها لم تجد المجال والفرصة السانحة للظهور.

وظهر من جديد عصر الامتيازات القبلية والعرقية، وكشفت التحيزات والانقسامات عن وجهها القبيح، فوقف القحطاني والعدناني في مقابل بعضهما البعض من جديد، واشتبكوا مع بعضهم البعض، وكان "أيام العرب"^(١) بعثت فيها الروح من جديد.

وأما الناس من غير العرب، والذين دخلوا الإسلام أملاً برحمته ورأفته، أو طمعاً بنعمه وخيراته، والذين جاؤوا من خارج شبه الجزيرة العربية إلى المدن الإسلامية المهمة كالكوفة والبصرة، وانضوا كموالي تحت حماية القبائل العربية، فلما لم يصلوا إلى ما كانوا يصبون إليه، أو أنهم لم يروا الشيء الذي آمنوا به، فقد استفادوا من الجو الملتهب والمضطرب، ودخلوا في التحيزات والانقسامات الموجودة، أو أنهم وقفوا إلى جانب الفريق الذي كانوا يرون أن مصالحهم ومنافعهم وأهدافهم تتحقق في ظله.

وقد مرّ ذكر العدناني والقحطاني في هذا الكتاب مراراً، وقد منا في مكان أو مكانين توضيحاً مختصراً حولهما.

بالنسبة للمسلمين والمتبعين في التاريخ الإسلامي فإن معنى هاتين الكلمتين،

هي الحروب التي كانت تشتعل بين القبائل المختلفة داخل شبه الجزيرة العربية، وكانت كل واقعة منها تسمى باسم خاص. راجع: مجمع الأمثال، للميداني، ذيل كلمة "يوم".

والمقصود منهما واضح، ولكن يمكن أن يكون هناك غموض حولهما لقسم من القراء مما يؤدي إلى عدم فهم هدف الكاتب ومراده منهما، أو غموض في فهم العلاقة والربط بين هاتين الكلمتين والموضوع الذي هو محل البحث، لذا من المناسب أن نتحدث بتفصيل نوعاً ما عن هذين الفريقين من العرب.

لو ألقى القراء الأعزاء نظرة على خارطة الجزيرة العربية فسيشاهدون في جنوب شبه الجزيرة منطقة مثلثة الشكل، ضلعها الشرقي هو ساحل بحر العرب وضلعها الغربي هو البحر الأحمر، وإذا رسمنا خطاً من الظهران (في الغرب) إلى وادي حضرموت (في الشرق) فسيتشكل لدينا مثلث، في داخله قطعة من الأرض، كان يقال لها في القديم "اليمن السعيد" وهي نفسها ما يقال لها في يومنا هذا "اليمن" (بعد أن توحد اليمن الجنوبي مع اليمن الشمالي).

كانت هذه المنطقة قبل ظهور الإسلام بقرون عديدة منطقة خصراء خضراء ومناسبة للزراعة بسبب موقعها الجغرافي المناسب، والأمطار الموسمية الوفيرة التي تهطل فيها، وكان أهلها يشتغلون بالزراعة وما يتعلق فيها بمهارة عالية. كما كانت تشتهر فيها تجارة "الكندر" بعد العبور من الطريق المعروف بـ "طريق البخور"، وكان يُصدر من هناك إلى موانئ صور وصيدا والعقبة، ومنها إلى أوروبا ليستعمل في معابدها، وهذا ما كان يدر الأرباح الوفيرة على سكان جنوب شبه الجزيرة "اليمن السعيد".

من الواضح أن وفرة الماء وهو عنصر أساسي في الحياة، وتوافر الظروف الطبيعية والمحيطية المناسبة من قبيل المناخ والأرض الخصبة كانت تساعد على وفرة إنتاج المحاصيل والعلات المختلفة.

كل هذه الأمور كانت تجذب الناس وتشدهم للعيش هناك. وهذا أيضاً ما أدى إلى ازدياد الكثافة السكانية، وبالتالي إلى ظهور الحياة المدنية والحضرية ببناء المساكن الثابتة، وبالتالي القرى والأرياف والمدن المختلفة من حيث الاتساع والكثافة.

ومن لوازم مثل هذه الحياة الرفاهية والنعيم وظهور الحياة المدنية والقانون والحكومة والدولة.

ونتيجة لهذه الظروف والعوامل المساعدة تأسست فيها منذ الألف الثانية قبل ميلاد السيد المسيح (عليه السلام) وحتى القرن الرابع الميلادي دول عديدة من قبيل: معين، وقتبان، وسبأ، وحمير، وكانت بعض هذه الدول تمد سلطانها وسيطرتها إلى مناطق بعيدة عنها.

ومن الطبيعي أن ينظر الناس في هذه المنطقة المتمدنة إلى البدو الرحل على أنهم غير متمدنين، وأن ينظروا إليهم بعين الإهمال وعدم الاكتراث.

في مقابل الجنوب أو "اليمن السعيد" تقع المنطقة الشمالية من الجزيرة أو الصحراء اليابسة القاحلة والحارقة، وهي أرض غير قابلة للزراعة، وكل ما فيها هو بحار من الرمال والكتبان الرملية والأودية المنفصلة عن بعضها البعض؛ وأما أهلها - كما ذكرنا سابقاً - فهم في حالة حركة دائمة ومستمرة يكافحون ويسعون جهدهم للحفاظ على أرواحهم.

والحياة الصحراوية تعلم الإنسان المتنقل في الصحراء من مكان إلى آخر أن يكون أنانياً محباً لنفسه، ومغروراً، ومستتهزئاً بحياة المدينة، غير آبه بقوانينها وأعرافها، بحيث تجده يفرّ من المدينة، ولو اضطر وأجبر على المجيء من الصحراء إلى المدينة، واضطر للعيش بين أهل المدينة، وأخلاقهم، فإنه يهزأ من المدينة وأهلها.

وقبل ظهور الإسلام بقرنين طرأ على الحياة الاجتماعية لسكان شبه الجزيرة العربية تحول وتغير كبيرين، ففي الجنوب، وعلى أثر تهدم سدود السقاية والري، وهجوم الأعداء على هذه المنطقة، قام أهلها بترك بلادهم، وهاجروا منها جماعات جماعات، فقامت جماعة منهم بالتوجه نحو الشمال، واختارت السكنى في الأماكن المناسبة لهم، ومن بين هذه الفئة من المهاجرين اختارت جماعة السكنى في مدينة "يثرب" وذلك

لكونها تحتوي على الماء، وأسباب السقاية والري.

وحياة أهل الصحراء أيضاً تحولت وتغيرت! وذلك على أثر التحولات والتغيرات التي طرأت على شبكة طرق القوافل التجارية، وأوضاع الموانئ، وهذا ما اضطرّ التجار، ولكي يضمنوا سلامة بضائعهم، وقوافلهم التجارية، للبحث عن فرق حماية لهم، وهذا ما جعلهم يستفيدون من سكان الصحراء في تأمين هذه الحماية، فصار بعض سكان الصحراء يعملون في خدمة التجار، وإيصال أموالهم، وبضائعهم التجارية من نقطة ومكان إلى آخر، وكنتيجة لهذا العمل، ظهرت أماكن على طرق القوافل صار يتم فيها استقبال القوافل، وتسييرها، وعلى أثر هذا التغير والتبدل الاجتماعي اشتغل عدد من شيوخ القبائل أنفسهم بالتجارة، والبيع والشراء.

وكان من بين الأماكن التي بدت أنها مناسبة كنقطة مساعدة لهؤلاء الناس مدينة مكة التي تقع على بعد ستين كيلو متراً عن البحر الأحمر.

وفضلاً عن امتياز الموقع الجغرافي، تتمتع مكة بمكانة دينية متميزة، ويتجمع الحجاج فيها سنوياً مرة في العام. هاتان الميزتان جعلتا عرب الصحراء يتوجهون نحوها ويسكنون فيها، وبهذا الشكل نرى أن سكان مكة في سنوات ما قبل الإسلام يتكونون من العرب الشماليين، وهم العرب الذين كانوا يتصفون بصفات الإباء والتمرد على الحياة الثابتة في الحضر، ولا سيما حياة الزراعة.

ويعتبر كل من الفريقين الشمالي والجنوبي أنفسهم أنهم من نسل إسماعيل بن النبي إبراهيم (ع)، وكل منهما له شجرة نسبه، أو من الأفضل القول: صنع شجرة نسبه.

وبحسب ما يظهر من هذه الأنساب الموجودة لديهم، فإن افتراقهم تمّ عند جديهما

عدنان وقحطان.

وكما أن هذين الفريقين كانا يتقابلان من جهة الوضع الاجتماعي، وكان كل منهما يحقر حياة الآخر؛ كانا أيضاً يتقابلان من حيث النسب، فكل منهما يعتبر نفسه وارث

إسماعيل بحق، ويرى الآخر غاصباً لحقه.

ومع أن كل فريق منهما كان ينقسم إلى قبائل، وبطون، وأسر مختلفة ومتعددة إلا أنهم لم ينسوا علاقاتهم وصلاتهم النسبية وقراباتهم.

وكثيراً ما كان يحدث أن البطون والقبائل المختلفة داخل دائرة القحطانيين أو العدنانيين تشتبك مع بعضها البعض، وتستعر الحروب والمعارك والغزوات فيما بينها، ولكن ما أن يتعرض أحدهما إلى هجوم من إحدى قبائل الدائرة الأخرى حتى تنسى هذه القبائل المتحاربة والمتعادية حروبها وعداواتها وتتوحد مع بعضها البعض في مواجهة القبيلة المهاجمة من الدائرة الأخرى، وكمثال: من الممكن أن تتقاتل قبيلتا همدان وقضاعة لسنوات طويلة مع بعضهما البعض، ولكن لو أن قبيلة ربعة هجمت فجأة على إحدى هاتين القبيلتين، فإنهما تتركان الحرب فيما بينهما وتتوحدان للقتال ضد ربعة! وهذه الحالة يعبر عنها المثل الرائج لدى العرب: "أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب"^(١).

كما ذكرنا غير مرّة، فإن العرب الشماليين، أو بعبارة ثانية: العرب العدنانيين كانوا بحكم الضرورة، والسعي من أجل استمرار حياتهم في حالة حركة دائمة، ومستمرة، وفي خلال ذلك كان لا بدّ من الاشتباك والغارة والقتل.

قلنا أن الصحراء تعلم ابنها درسين:

١. حارب وقاتل من يقف في وجهك؛

٢. دافع عمن يرتبط بك سواء كان قريباً أو مولياً (جار).

وهذان الدرسان أو الخُلُقان هما ما عبّر عنهما بالعصبية، أو التعصب، الذي عبّر عنه

أيضاً القرآن الكريم بالحَمِيَّة، حَمِيَّة الجاهلية: ﴿ففي قلوبهم الحمية، حمية الجاهلية﴾^(١).

وعلى أثر هذه التربية، يرى الصحراوي نفسه حراً من كل قيد وشرط، ويسخر من الحياة الحضرية في القرى والمدن، ويعد العمل والسعي - الذي يعتبره أهل القرى والمدن شعاراً لهم - عاراً.

الناس الذين تجمعوا في مكة منذ بداية القرن الخامس الميلادي بسبب موقعها الجغرافي كانوا من هذا النوع من الناس. حيث تمكن قصي بن كلاب من انتزاع رئاسة مكة وزعامتها من أيدي المهاجرين الجنوبيين (خزاعة)، كما قام بإسكان قومه (قريش) الذين كانوا يعيشون في الأودية المحيطة بمكة داخلها، وهكذا تسلم العرب الشماليون أو العدنانيون إدارة شؤون مكة، ومع أنهم اتخذوا من التجارة، أو حماية القوافل التجارية مهنة لهم إلا أنهم لم ينسوا خصالهم وأخلاقهم القديمة، ولا سيما التنافس، بل وحتى العداوة مع القحطانيين، أي العرب الجنوبيين، وفي ظروف كهذه، من الطبيعي أن لا تكون علاقة مكة مع المدينة حسنة.

كما تعلمون، فإن الدعوة الإسلامية ظهرت في البداية في مكة، وهي المدينة التي تدار من قبل الشيوخ من رؤساء العدنانيين، فدعا الرسول أهل مكة إلى التوحيد طيلة ثلاثة عشر عاماً، ولكن الذين استجابوا له كانوا من فئة المضطهدين والمحرومين والعييد. وأما الأثرياء المغرورون والمستكبرون وأصحاب العبيد والإماء الذين كانوا يمارسون في حق من تحت أيديهم مختلف صنوف التعذيب، فلم يُظهر أحد منهم شيئاً من الرضى أو الموافقة، وليس هذا وحسب، بل لم يدخروا وسعاً في إيذاء محمد عليه السلام.

وأتباعه.

وفي المقابل ما أن وصل صدق دعوة الدين الجديد إلى يثرب حتى قام أهلها بمبايعة محمد ﷺ والتحالف معه، ودعوته إلى مدينتهم. ومنذ هذا التاريخ لقب أهل يثرب - التي دعيت فيما بعد بمدينة الرسول، ثم خففت إلى المدينة - بالأنصار، وأولئك الذين أسلموا في مكة، وهاجروا إلى المدينة بالمهاجرين. وبالطبع لا يغيب عن بالنا أن أكثر المهاجرين هم من العدنانيين، أو ممن دخل تحت حمايتهم، أي من مواليهم.

وما أن أقام المهاجرون في يثرب حتى قام الرسول (ص) في الأشهر الأولى للهجرة بعقد المؤاخاة بينهم (أي المهاجرين) وبين الأنصار، وهكذا صار العدنانيون والقحطانيون أخوة في الإسلام.

علاقة الأخوة والألفة التي تبعتها أزالَت مشاعر الحقد والكراهية لدى الفئتين، وهذا ما نقرؤه في القرآن الكريم نفسه:

﴿واذكروا نعمة الله عليكم، إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾^(١).

ولكن، هل يمكن حقاً أن تزول نهائياً تلك العداوة المتوارثة من جيل إلى آخر طيلة مئات الأعوام في مدة عشر سنوات؟

وإذا تمكن عدد من المسلمين بالتخلق بالأخلاق الإسلامية بحيث تزول الأخلاق الجاهلية من أعماق نفوسهم نهائياً فهل يمكن للجميع أن تتوفر لهم عوامل نجاح مثل هذه التربية؟

مما يؤسف له حقاً أن جواب هذه التساؤلات هو السلب والنفي.

والسبب في تاريخ الإسلام يُرينا أنه حتى في نفس حياة النبي الأكرم (ص) مع أن

الفريقين كانا تحت إشراف النبي المباشر، وتربيته المباشرة، وكانوا جميعاً يسمعون بأذانهم مواعظه، إلا أنهم أحياناً إذا سنحت لهم الفرصة كانوا يتفاخرون بأحسابهم، وأنسابهم، وينتقصون من خصومهم!

وكان يحدث أيضاً أن يتشاجر اثنان من القحطانيين، أو من العدنانيين، ومع كونهما من طائفة واحدة إلا أنهما كانا يتنازran بالألقاب، وينتقصان من أحساب بعضهما البعض، كما كان يُفعل في عصر ما قبل الإسلام.

ذكر المؤرخون:

كان بين عمرو بن العاص وبين المغيرة بن شعبة كلام في الوهط (نزاع لفظي)، فسبه المغيرة، فقال عمرو: يا آل هصيص! (اسم أحد أجداده، كناية عن استنجاهه بقومه، ودعوتهم للتعصب له) أيسبني ابن شعبة؟! فقال ابنه عبد الله: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾^(١) دعوت بدعوى القبائل (يعني لقد عدت بها جاهلية)، وقد نهى رسول الله (ص) عن دعوى القبائل، فأعتق ثلاثين رقبة.^(٢)

وفي يوم فتح مكة، كان سعد بن عبادة رئيس قبيلة الخزرج الذي كان يتقدم قومه عند دخول مكة يصيح مرتجراً:

اليوم يوم الملحمة
اليوم تُسبى الحرمة^(٣)

وكانه ظن أن عليه أن يعلن انتهاء زمن حكم العدنانيين، وأن يستعرض عظمة الأنصار، أي طائفته من القحطانيين أمام هؤلاء، وأن ينتقم لهم عن السنوات التي كان العدنانيون يترأسون عليهم فيها، فلم يتحمل النبي هذا النوع من المفاخرات العصبية وأمر

١- البقرة/٥٦:٢.

٢- كنز العمال، ج ١، ص ٣٦٢، ط ٢.

٣- ابن هشام، ج ٤، ص ٢٦.

علياً (ع) أن يسارع إلى أخذ الراية من سعد، وأن يزرجه عن هذا النوع من الرجز؛ لأن: «اليوم يوم المرحمة».

لو دام ظلّ النبي (ص) بعد معركة حنين التي كانت آخر حرب في عهد رسول الله (ص) داخل شبه الجزيرة العربية على رؤوس أهلها لمدة عشر سنوات أخرى، بحيث ينعم كل من دخل في الإسلام ببركات تربيته لهم، ثم لو قام ذلك الجيل بنقل تلك التعاليم التربوية النبوية إلى الجيل الذي بعده، لو حصل كل ذلك، لكان من المسلم، والمقتطوع به، أن جذور ذلك التنافس، والتفاخر، والعداوات سوف تبيس في ظلال التعاليم الإسلامية، والأخوة الدينية، والعدالة الاجتماعية، ولَعَلِمَت الطائفتان أن عليهما العمل سوية من أجل إعلاء كلمة التوحيد، ولكن مع الأسف عندما فهمت القبائل المتفرقة، والمختلفة بأن زمن الزعامات القبليّة قد ولى وانتهى، وأن عليهم أن يتركوا حروبهم القبليّة جانباً، وأن يطيعوا الحكومة التي تأسست في المدينة باسم الله كان الرسول (ص) قد التحق بالرفيق الأعلى.

نعلم أنّ الحكومة الإسلامية قد قامت وتأسست على أساس الدين، ورئيس هذه الحكومة لم ينتخب من قبل الناس، بل إنّ الله تعالى اصطفاه بالرسالة، وكل ما كان يقوله كان وحياً سماوياً، وإخباراً عن قول الله (إلا في الموارد التي كان يستشير فيها أصحابه، وكان يقبل ما يشيرون به عليه)، وبعد وفاة النبي (ص) لو لم تنحصر رئاسة المسلمين في طائفة خاصة، ولو لم يُعتبر معيار الامتياز هو كون الرئيس قَرَشياً، ولو لم تُتجاهل وصية الرسول (ص) لكان من المسلم، أو المطمأن به، أن الأنصار ما كانوا ليفاخروا العدنانيين، ثم يصلحونهم على أن يكون منهم أمير، ومن العدنانيين أمير.

وكما نعلم، فإن العامل الأساسي الذي أسكت دعوى الأنصار هو العامل الديني

(الرواية المنقولة عن النبي) عندما قال أبو بكر أنني سمعت النبي (ص) يقول: أن الإمام يجب أن يكون من قريش.

وعلى أية حال، فإن هذا الامتياز هو أول امتياز كان لصالح الفريق الشمالي. قريش التي فقدت جميع الامتيازات التي كانت تخص نفسها بها، وذلك في حجة الوداع. من خلال الخطبة القصيرة التي خطبها الرسول (ص)^(١)، وصارت قريش بعد ذلك مثلها كمثل بقية القبائل. بعد وفاة الرسول وجدت لنفسها محط قدم للحصول على امتياز مرة أخرى، وتسخير الأنصار، أي القحطانيين، تحت سلطانها مرة أخرى، ولكن ومع كل ذلك في عهد أبي بكر، بسبب انشغال المسلمين بقمع المرتدين من جهة، وبسبب أن الحكومة لم تكن قد قويت وانتظمت، أو على الأقل، لم يكن للمناصب الحكومية موارد دخل مادية مهمة، أو لم يكن لها امتياز أصلاً من جهة أخرى، لهذا لم تشاهد علائم النزاع بين الطائفتين.

في أثناء خلافة عمر، حيث تولى كبار قاداته رئاسة الولايات والمدن الكبرى، وارتفع مستوى دخل بيت المال (الخزينة العامة) من عائدات الغنائم الحربية، وخراج وجزية إيران والروم، عملت السياسة الخشنة والصارمة للخليفة على حفظ التوازن ما أمكن بين الفريقين، فعندما كان يولي واحداً من العدنانيين ولاية كان يولي شخصاً من القحطانيين ولاية أخرى، ولكن لم يمض على حادثة السقيفة ريع قرن حتى سيطر العدنانيون على مقاليد الأمور الأساسية والكبرى، وليس هذا وحسب، بل تدفقت الأموال العامة، والدخل العام إلى بيوتهم هم دون بيت المال، وكنز مروان بن الحكم، ومعاوية بن أبي

١ - كانت قريش قبل تعليم الرسول مراسم الحج للمسلمين تخص نفسها بامتيازات عديدة، وذلك من قبيل الإفاضة من عرفات إلى منى حيث كانت قريش تفيض لوحدها منفصلة عن بقية الحجاج، وغير ذلك من الامتيازات (راجع كتاب: انقلاب بزرگ (=الفتنة الكبرى)، طه حسن، ترجمة المؤلف، ص ١٢٠).

سفيان، وطلحة بن عبيد الله، والزيير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، ويعلى بن أمية، كل واحد منهم، بالعملة الرائجة يومذاك ملايين الدراهم والدنانير.
ولم تكف قريش وبنو أمية بهذه الامتيازات، بل بذلت كل جهدها لكي تحول دون وصول الجنوبيين إلى الأمور المهمة في الدولة.

ذكروا أن رجلاً من بني جفنة (غيلان بن خرشة الضبي) جاء إلى عثمان،

وقال له:

أما لكم صغير فتستشبهوه، فتولوه البصرة؟! حتى متى يلي هذا الشيخ

البصرة (يعني أبا موسى)؟

وكان هذا في الحين الذي كانت فيه الشام بيد معاوية بن أبي سفيان، والكوفة بيد الوليد بن عقبة بن أبي معيط، ومصر بيد عمرو بن العاص، وكما نعلم هؤلاء الثلاثة كانوا مضرين، أو بتعبير آخر: عرباً عدنانيين، أو شماليين، وكان الوحيد من القحطانيين الذي يحكم ولاية مهمة هو أبو موسى الأشعري.

ولم يمض زمن طويل حتى تغلب بنو أمية وغيرهم من قريش، على غيرهم، ونحن نعلم جيداً أن أغلب هؤلاء لم يكونوا في يوم من الأيام مسلمين حقيقيين بكل معنى الكلمة، بل دخلوا في الإسلام عندما لم يجدوا بداً من الدخول فيه، وعندما لم يكن لديهم خيار آخر.

وعلى أثر هذا الاستبداد والتسلط بُعثت الأحقاد الدفينة من جديد، وظهرت الاضطرابات في المناطق الحدودية البعيدة، ثم انتقلت إلى الداخل وإلى المدن، ثم امتد لهبها إلى المدينة نفسها، مركز الخلافة، وأودت بحياة الخليفة.

وقد بقي منذ تلك الأيام قطع شرعية، وأشعار تبين بوضوح روحية وعقلية الأمويين، وأن قائلها يفكر بكل شيء إلا بالدين، والإسلام، والعدالة الإسلامية، وأن ما يفكر فيه هو: امتيازاته الأسرية، والطائفية، والتفاخر القبلي.

قائل هذا الشعر الوليد بن عقبة أخو عثمان لأمه بعد مقتل عثمان بيد الثائرين عليه،
يخاطب به بني هاشم:

بني هاشم! إيه فما كان بيننا
بني هاشم! ردّوا سلاح ابن أختكم
بني هاشم! كيف الهوادة بيننا؟
لعمرك! لا أنسى ابن أروى وقتله
وسيف ابن أروى^(١) عندكم وخزائنه
ولا تسنهبوه، لا تحل مناهبه
وعند عليّ درعه ونجائبه
وهل ينسئن الماء ما عاش شاربه؟

دققوا جيداً في هذه الأبيات!

قائلها هو أخو عثمان بن عفان خليفة ذلك الوقت، وهو الشخص الذي كان معيناً من
قبل الخليفة والياً على الكوفة!

ولم يمض على وفاة الرسول (ص) حتى إنشاد هذه الأبيات أكثر من ربع قرن! فنرى
فيها كيف تتغير المبادئ، والقيم الإسلامية في المدينة نفسها - وهي مركز نشوء الدعوة
الإسلامية وترعرعها ونشرها - على لسان هذا الرجل المسلم في ظاهره.

في هذه الأبيات لا توجد أي إشارة إلى السبب الذي قتل عثمان من أجله، وهل أن
قتله كان بحق أم بغير حق؟ وهل كان يوم قتل ملتزماً بالسنة النبوية وسيرة الخليفين
الذين كانا قبله أم أنه قد عدل عن كل ذلك؟ لا يتساءل في شعره حول السبب الذي جعل
الثائرين يثورون على عثمان، ولأجل أي شيء هجموا على الخليفة وقتلوه. وكل ما
يطرحة في أشعاره هو تنافس بني أمية مع بني هاشم.

ومع كل ذلك لو كان لبني هاشم تدخل وعلاقة، سواءً بشكل مباشر أم بشكل غير

مباشر لانتسنا لقائلها العذر! ولكنه يقوم بتوجيه الاتهام الصريح « عند علي درعه ونجائبه! »

ونحن نعلم أن علياً (ع) دافع عن عثمان في أيام حصره، ولو تنزلنا وقبلنا قول أقارب عثمان بأن علياً (ع) لم ينصره، فهو على الأقل لم ينهض لحربه وقتاله، ولم يساعد الثوار عليه، ولم ينهب متاعه.

هل هناك سبب غير أن قائل الشعر متضايق من بني هاشم؛ لأن النبي منهم؟ أليس ضيقه، وقوله ذلك إلا لأن المسلمين انتخبوا خليفة بعد مقتل عثمان من بني هاشم وهو ما لم يستطع أن يتحملة؟

هل يمكننا أن نقول شيئاً غير أن بعض رؤوس القبائل والطوائف لم يستطيعوا نسيان حقدهم على القبائل الأخرى أبداً؟

وكل ما حصل هو أنهم تناسوها، وتجاهلوا مؤقتاً عندما انشغلوا عنها بأشياء جديدة؟ وما أن سنحت لهم الفرصة حتى عادوا إلى سيرتهم الأولى! وهو الذي حذرهم القرآن

منه:

﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه، فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين﴾. (١)

في أواخر خلافة عثمان تبلور التقابل العدناني القحطاني من جديد. وكما قام القحطانيون بدعوة النبي من مدينة العدنانيين إلى مدينتهم، واحتضنوه قاموا

بدعوة ابن عمه من المدينة إلى الكوفة، أو من الأفضل أن نقول: قدموا له الوعد بالنصرة والمساعدة بعد أن توجه من الحجاز إلى العراق لمواجهة الخارجين عليه. وبالفعل، وقفوا إلى جانبه، وبالمقابل تجمع المضيرون، أو العدنانيون في البصرة، وقاتلوا علياً وجيشه. في السنوات الخمس الأخيرة من خلافة عثمان، وفي مدة حكم معاوية التي طالت عشرين سنة، وفي مدة حكم يزيد وابن يزيد، مارس المضيرون بكل ما لديهم من قوة التعسف والقسوة ضد اليمانيين.

اليمانيون أيضاً حينما رأوا أن عهد الحكم الإسلامي قد انتهى، وأن التفاخر القبلي والطائفي قد حل محله التفوق حول فئة كانت تدعو الناس إلى حكم القرآن والعدالة الإسلامية الحقيقية. ولأجل هذا شاهدنا أن الأنصار قالوا لمعاوية ومن معه من أهل الشام: أننا بالأمس قاتلناكم على التنزيل، واليوم نقاتلكم على التأويل، وهم أنفسهم الذين قالوا للحسن (ع) بعد مقتل علي (ع): امدد يدك نبايعك على كتاب الله، وسنة رسوله، وقاتل المبتدعين^(١)، كما أنهم كتبوا إلى الحسين (ع) ابنه الثاني أن عدوك جعل مال الله دولة بين جبارتها وأغنيائها.^(٢)

في سنة إحدى وستين هجرية، وبعد أن تخلى العراقيون بكل جبن ونذالة عن ابن بنت رسول الله، وأسلموه إلى عدوه القديم، وصل المضيرون مرة أخرى إلى مرادهم، ولكن لم يمض على هذه الحادثة أكثر من أربع سنوات حتى وقفوا في "مرج راهط" في مقابل اليمانيين، حيث وقف المضيرون (القيسيون) إلى جانب ابن الزبير، ووقف اليمانيون (الذين كانوا يُدعون يومها بـ"الكليين") إلى جانب حكومة بني أمية. وفي نهاية المطاف انتهت المعركة بانتصار الكليين على القيسيين، أو اليمانيين على المضيرون،

١- راجع «تحليلي از تاريخ اسلام (= تاريخ الإسلام التحليلي)، ج ٢، ص ٨.

٢- پس از پنجاه سال (= نهضة الحسين)، ص ١١٤.

وانتخب مروان بن الحكم للخلافة.

نقرأ في الأمثال العربية مثلاً يقول: "أذلّ من قيسيّ بحمص"^(١)، هذا المثل في أغلب الظن من بقايا تلك الأيام.

ومن هذا التاريخ ولاحقاً فقدت الحروب والمعارك بين هاتين الطائفتين صبغتها الدينية، وتحولت إلى شكل معارك ومواجهات بين هاتين الطائفتين الكبيرتين من العرب الشماليين والجنوبيين، ومن خلال الملاحم الشعرية التي أنشدها شعراء الفريقين لا يُستشَم أي رائحة للشرع أو القيم الإسلامية، بل كل ما هناك هو المفاخرات بالحسب، والنسب، والامتيازات القومية.

والعجيب أن مُخرج هذه المشاهد، والمدافع عن خلافة ابن الزبير، (وهو المخالف العنيد للفرع السفيناني) الضحاك بن قيس هو رجل بذل قصارى جهده في خدمة معاوية بن أبي سفيان، وهو الرجل الذي كان قد أوكل معاوية إليه من قبل مهمة المواظبة والمراقبة لئلا يتفوّه أحد من الحاضرين بكلام معارض ومخالف لما يريده معاوية في المجلس الذي اصطنع فيه ترشيح يزيد لولاية العهد بعد معاوية.

وهو نفسه الذي أرسل ليزيد، وجاء به من بلدة "حوارين" إلى دمشق، وأجلسه على العرش. ولكن عندما رغب أقرباء يزيد لأمه - بعد موته - والذين كانوا من الكلبيين - الجنوبيين - بخلافة ابنه (خالد) لم يُطق الضحاك - وهو من المضريين - ذلك، وصمم على إيصال رجل مضري (عبدالله بن الزبير) إلى كرسي الخلافة.

إنّ نظرة موضوعية إلى تاريخ الإسلام تظهر لنا هذه الحقيقة، وهي أنه من هذا

١ - حصص من مدن سورية المهمة، وتقع في وسط سورية في منتصف الطريق تقريباً بين دمشق (Damascus) وحلب (Aleppo).

التاريخ وإلى قرون عديدة جاءت بعده، كلما حصل اضطراب وثورة في مكان ما كان سببه إحدى هاتين الطائفتين، أو على الأقل كان لإحدهما علاقة بنحو من الأنحاء في هذا الاضطراب. ومنذ عهد مروان بن الحكم وحتى نهاية عهد مروان الثاني كان كل خليفة وحاكم يدعم وفقاً لمصلحته الشخصية جانب المضرين أو اليمانيين وإن كانت أكثرية الحكام قد دعمت وأيدت جانب المضرين.

تأملوا في هذه القصة التي هي أقرب للطرفة من أن تكون حقيقة تاريخية.

قال زياد بن عبيد الحارثي ذهبت مع جمع إلى مروان بن محمد في أثناء خلافته فأخذنا أولاً إلى ابن هبيرة رئيس شرطته الذي قام باستقبال الضيوف واحداً واحداً فكان كل واحد منهم يطنب في الحديث عن مروان وابن هبيرة، فشرح ابن هبيرة بالسؤال عن أنسابهم، فتواريت بين القوم عن أنظاره لأنني علمت أن هذا الحديث لن ينتهي علي خير وذلك على أمل أن يتعبه كثرة حديث الضيوف فلا يصل الدور إلي بالسؤال، ولكن لم يحصل الذي رجوت، حيث تابع سؤاله لهم إلى أن وصل الدور إلي، ولم يبق غيري، فدعاني إليه، وسألني:

- من أي الناس أنت؟

- من اليمن.

- من أيهم (أي عشيرة)؟.

- من مذحج.

- لا تتبعد كثيراً!

- من بني حارث بن كعب!

- يا أبا حارث! يقول الناس أن أبا اليمانيين قرد، فما تقول أنت؟

- ليس من الصعب معرفة الحق في هذا الأمر!

فجلس ابن هبيرة عند ذلك، وقال:

- وكيف ذلك؟

- فقلت: انظر إلى كنية القرد فإذا كانت " أبو اليمن "، فهو أبو اليمانيين، وإذا

كانت " أبو قيس " فالقرد أبو قوم آخرين!

فندم ابن هبيرة على قوله تلك أشد الندم. (١)

هذان الفريقان اللذان كانا في البداية يحملان اسمي قحطاني وعدناني أخذاً أسماءً

عديدة في تاريخ صراعهما من قبيل:

يماني وقيسي، مضري ويماني، قيسي وكليبي، أزدي وتميمي، وامتدت ساحة الصراع

بينهما من خراسان الكبرى وحتى خوزستان، ومن سيستان وحتى غرب إيران، ومن

العراق وحتى الشام والحجاز ومصر، وأنحاء أفريقية، وجزر سيسيل ورودوس وحتى

جنوب إسبانية.

في كل مكان من هذه الأراضي المترامية الأطراف اشتعلت فيه حرب يمكن البحث

فيه عن آثار أقدام العرب الجنوبيين أو الشماليين.

ومنذ سنة أربعين هجرية التي استولت فيها معاوية على مقاليد الأمور، وفرض نفسه

بالقوة خليفة على المسلمين، وحتى سنة اثنتين وثلاثين بعد المائة لم تشهد الأمور هدوءاً

نسبياً إلا في عهد عبد الملك بن مروان.

ولم يكن ذلك الهدوء النسبي بسبب بسط العدالة على أصقاع البلاد الإسلامية

المترامية الأطراف، بل بسبب استعمال ولاة من أمثال الحجاج بن يوسف الثقفي عملوا

على كتم الأنفاس في الصدور، بحيث كان من يتفوه بأقل كلمة في انتقاص آل أبي سفيان،

أو أحد عمالهم وولاتهم كان يعرض نفسه للقتل، أو الإيداع في السجن.

وفي النصف الثاني من حكومة المروانيين فهم كل من كان بعيد النظر، ومن كان ينظر إلى عواقب الأمور ما هو السبب الأصلي للبدع التي توالى في الظهور واحدة بعد الأخرى، وعلم أن اليوم الذي قيل فيه لا يجوز أن تجتمع النبوة والخلافة في أسرة واحدة لم يكن صاحب هذا القول يدري أن السلطة سرعان ما تنتقل من أيدي بني تميم وعدي إلى آل أبي سفيان، والمروانيين، وأن زعامة المسلمين وخلافتهم سوف تقع بأيدي أشد أعداء الإسلام.

وقوي هذا التفكير منذ أواخر عهد عبد الملك وما تلاه شيئاً فشيئاً وترسخت القناعة بأنه لو لم يؤخذ الحق من صاحبه في السنوات الأولى لما وصل تمادي الأمويين لهذه الدرجة، ولما وصلت حال المسلمين إلى ما وصلت عليه من الشدة والسوء.

وفي هذا الزمان تحققت فعلياً مقالة ابنة النبي واستشرافها للأمر حينما قالت:

«... لو تكافؤوا عن زمام نبذه إليه رسول الله (ص) لسار بهم سيراً سُبْحاً لا يكلم خشاشه، ولا يُتعتع راكبه، ولأوردهم منهلاً نмираً ففضاضاً تطفح ضفتاه، ولأصدرهم بطاناً قد تحير بهم الري...»

ومنذ تلك الأيام نشاهد مرة أخرى التفاف الناس المظلومين حول العلويين (آل علي)، ومع أن ثوراتهم كانت تُقمع واحدة بعد الأخرى، ولكن في النهاية وصل المعتقدون بسنة النبي وسيرته إلى قناعة مفادها أن الحل الوحيد لجميع المآسي والاضطرابات التي تعاني منها الأمة الإسلامية هو أن تنتقل الحكومة من آل أمية إلى آل هاشم، وأن يحكم المسلمين ويتأسهم أحفاد علي (ع) بدلاً عن أحفاد أبي سفيان.

ولم ينقض القرن الهجري الأول حتى تشكلت فصائل المقاومة، أولاً في المناطق البعيدة - شرق إيران - ثم في داخل إيران، ثم في مدن الكوفة والبصرة، وذلك تحت شعار حماية آل النبي وأبناء فاطمة (ابنة رسول الله)، والدفاع عنهم.

ثم التحق الساخطون على الحكومة أيضاً بهذه الفصائل. وشيئاً فشيئاً التحق بهم

الانتهازيون والباحثون عن السلطة والزعامة، وهم الذين كانوا يعتبرون أن الغاية تبرر أي وسيلة تستخدم.

كان شعار الجميع هو إسقاط حكومة الأمويين، وإيصال آل علي (ع) مكانهم إلى السلطة. ولكن الذين استفادوا من كل تلك المجازر، والآلام، والعذاب، والوقوع في السجن كانوا هم الفئة الأخيرة، وليس أبناء فاطمة، ولا أحفاد علي (ع).

تقدم رجل ذكي، ومغامر، وعارف بالظروف إلى الأمام، وقام بتنصيب الرضا من آل العباس! بدلاً عن الرضا من آل محمد^(١) على مسند الخلافة.

وفي اليوم الذي كان مجلس أبي العباس السفاح مزدحماً بكبار بني أمية قام شاعرهم بحسب اتفاق مسبق معه بذكر ظلم بني أمية لبني هاشم وبني العباس، وعندها هجم جنود جيش خراسان عليهم، وعملوا فيهم قتلاً وضرباً على رؤوسهم بالحرايب والسهام، ثم فرشوا الأرض على أجسادهم، ومدوا موائد الطعام على هؤلاء، وكان بعضهم لا يزال فيه رمق وروح! ثم جلس "خليفة رسول الله!" وأصحابه لتناول الطعام! وفي حين كانت تصل إلى أسماعهم أصوات من فيهم رمق حياة ممزوجة بأنات الألم والوجع، كان الخليفة يقول: لم أتناول في حياتي طعاماً لذيذاً وهائناً كهذا^(٢).

ولم يمض وقت طويل حتى رأى المتعطشون للعدالة الإسلامية أن من تسلّم مقاليد السلطة من العباسيين باسم "الرضا من آل محمد" ليس أقل سوءاً ممن كان يحكم المسلمين باسم "الرضا من آل أبي سفيان"^(٣).

- محمد بن علي بن عبد الله بن العباس أول إمام عباسي، وكان يقول في البداية لأصحابه لا تدعوني إلى خلافة شخص بعينه، بل ادعوا الناس إلى الرضا من آل محمد، وأوصاهم أن يبيدوا من كان عدنانياً من العرب، وأن يستميلوا إليهم من كان قحطانياً.

- الأغاني، ج ٤، صص ٣٤٦ - ٣٤٧.

- كناية عن كان يحكم من آل أبي سفيان باسم الإسلام. م

شرع العباسيون بتصفية أولئك الذين مهدوا لهم الطريق للوصول إلى السلطة والرئاسة، ثم تفرغوا للتنكيل بآل علي!!
 قاموا بقتل العلويين بحد السيف، أو بإلقائهم في غياهب السجون المظلمة إلا من تمكن منهم من الفرار إلى القرى والأماكن المهجورة أو النائية.
 من هذا التاريخ راح الشيعة، والموالون لرسول الله يصبون كل آلامهم في قالب القصائد، والحكايات، ثم عملوا على إيصال تلك المعاني بعبارات فصيحة، ومؤثرة إلى الناس هنا وهناك.
 كانت البداية في مجالس العزاء والنوح على ابنة النبي والظلم الذي لحق بها وبأبنائها في مجالس وحلقات سرية، ثم في الأسواق.
 ومنذ تلك السنوات نرى أن ابنة النبي الزهراء الطاهرة (ع) قد تحولت إلى رمز لمظلومية آل محمد.
 روى ياقوت عن خالغ (حسين بن محمد بن جعفر الشاعر المعروف في القرن الرابع الهجري):

كنت مع والدي في سنة ست وأربعين وثلاثمائة، وأنا صبي في مجلس الكبوذي في المسجد الذي بين الوراقين والصاغة، وهو غاص بالناس، وإذا رجل قد وافى وعليه مِرْقَعَةٌ وفي يده سطيحة وركوة، ومعه عكاز، وهو شَعِثٌ، فسلم على الجماعة بصوت يرفعه، ثم قال: أنا رسول فاطمة الزهراء صلوات الله عليها، فقالوا: مرحباً بك وأهلاً، ورفعوه، فقال: أتَعْرِفُونَ لي أحمد المزوق النائح، فقالوا: ها هو جالس. فقال: رأيت مولاتنا عليها السلام في النوم، فقالت: لي امض إلى بغداد، واطلبه، وقل له: نح على ابني بشعر الناشء الذي يقول فيه:

بني أحمد! قلبي لكم يتقطع بمثل مصابي فيكم ليس يُسمع

وكان الناشء حاضراً، فلطم لطمأً عظيماً على وجهه، وتبعه المزوق،
والناس كلهم، وكان أشدّ الناس في ذلك الناشء، ثم المزوق، والناس، ثمّ
ناحوا بهذه القصيدة في ذلك اليوم إلى أن صلى الناس الظهر، وتقوض
المجلس، وجهدوا بالرجل أن يقبل شيئاً منهم، فقال: والله لو أعطيت الدنيا
ما أخذتها، فإنني لا أرى أن أكون رسول مولاتي عليها السلام ثم أخذ عن
ذلك عوضاً. وانصرف ولم يقبل شيئاً». (١)

ومن المناسب في نهاية هذا البحث أن نفتح فصلاً تحت عنوان نماذج من هذه
المراثي والمدائح، وقد أتيت فيه بنماذج من الشعر العربي أنشدت قبل القرن الثامن
الهجري، وبنماذج من الشعر الفارسي قيلت حتى أواخر القرن التاسع، لأن المذهب
الشيوعي - على ما نعلم - بعد ذلك التاريخ امتدّ وتوسع وانتشر كثيراً، ويمكن مشاهدة
الكثير من المدائح في أشعار العهد الصفوي (حيث تمّ الاعتراف رسمياً بالمذهب
الشيوعي) حول أهل البيت.



قبل ظهور الإسلام بعشرات السنين كان الشعر العربي في المناطق المأهولة بالعرب من أهم العوامل والوسائل المؤثرة في تحريك العواطف والمشاعر أو إثارة العداوة والكراهية. وكم من القصائد والقطع الشعرية أنشدت فاشتهرت على الألسنة فأعلت ورفعت من مكانة شخص أو قوم في أذهان الناس أو أنها قللت وخطت من شأنهم في أعين الناس. وقد حصل مراراً أن سببت قراءة أشعار في جمع من الناس وسماعهم له اقتتالهم من جرّاء ذلك!

تأثير الشعر في العواطف والمشاعر لا يختص بالشعر العربي فقط ولكن رواجه في تلك البيئة والأثر العميق الذي تركه في روحيات العرب في تلك المناطق والبلدان متميز. ولأجل هذه الخصوصية كانت القبائل العربية في عهد الجاهلية وعهد صدر الإسلام تتسابق في جذب الشعراء المداحين أو السعي بحرص على إرضاء الهجائين من الشعراء، فكانوا يقدمون لهم الصلوات والمبالغ الكبيرة للحصول على الفخر بمدح هؤلاء لهم أو صيانة لأعراضهم وحفظاً لها عن تعرضهم لها. وما أن تأسست الدولة الإسلامية في المدينة، ومنعت التعاليم القرآنية، وأوامر النبي الشعراء وغيرهم عن التعرض والإعتداء على حريم الآخرين حتى دخل قسم من الشعر في خدمة الدين.

ونظرة واحدة على كتب السيرة والتاريخ ترىنا كيف كان شعراء المُعَسِّكِين في المعارك الكبرى من قبيل: بدر وأحد والأحزاب وغيرها من المعارك يسعون من خلال أشعارهم لتصوير انتصارات أقوامهم وقبائلهم بتهويلها وتضخيمها أو التقليل من حجم الخسائر والأضرار التي لحقت بهم .

كان في معسكر النبي شعراء يشاركون المجاهدين في الهجوم على الأعداء وكان رسول الله يقول لهم: «والذي نفسي بيده لكانما تنضحونهم بالنبل فيما تقولون لهم

من الشعر» (١)

في حرب الجمل عندما امتاز المعسكر العلوي عن المعسكر العثماني، ووقف العرب من جديد في وجه بعضهم البعض، عاد الشعراء من معسكر علي وصفه، والشعراء من معسكر القوم الذين نكثوا بيعته إلى عاداتهم القديمة بالتفاخر القبلي، واستمر هذا الوضع طيلة معارك صفين والنهروان والمعارك المحلية الأخرى.

خلافة معاوية التي طالت عشرين عاماً، والضغط الشديد الذي مورس فيها على الشيعة لم يفسح المجال للشعراء العلويين لينظموا أفكارهم في قوالب الكلمات الموزونة.

ولكن فاجعة محرم سنة إحدى وستين هجرية، والقتل العام لأهالي في السنة التالية لها، واستخفاف آل أبي سفيان، وآل مروان بدين، وآل النبي سبب انطلاق السنة الشعراء بمدح آل الرسول، وقد راج هذا النوع من الشعر في مدح آل الرسول منذ عهد المروانيين. وقصيدة الفرزدق في مدح علي بن الحسين، وذم هشام بن عبد الملك، وسلسلة قصائد الكميت المعروفة باسم "الهاشميات" هي طليعة الأشعار التي قيلت في ذكر مناقب أهل البيت ومراثيهم، وبعدهما جاء السيد إسماعيل الحميري، ودعبل الخزاعي، ومنصور النمري، وعبدي الكوفي، وعشرات الشعراء الآخرين الذين سعوا إلى حمل هذا المشعل الوضاء، وزيادة توهجه، وتألقه، وإظهار مظلومية آل علي، وظلم آل أبي سفيان أكثر فأكثر، ومع أن هذا النوع من الشعر في ذلك الزمان كان يرافقه الخوف من القتل، وانعدام أي أمل بالصلة والجائزة، إلا أن الشعراء الشيعة لم يخافوا من الموت قربة إلى الله تعالى وتحصيلاً لرضاه.

كان هؤلاء الشعراء يرون أن اثنتين من بين آل رسول الله - طبقاً لرأيهم - هما رمز

المظلومية أكثر من غيرهما: ابنة النبي المصطفى وابنتها [أي الزهراء والهوراء زينب].
 لم يتوان الشعراء الشيعة لتحريك مشاعر الناس وعواطفهم عن نقل ما جرى من الظلم
 على هاتين السيدتين الجليلتين، ونماذج هذه الأشعار كثيرة، ولما كان موضوع الكتاب
 الأصلي هو بنت النبي لذا اكتفي هنا بالأشعار التي قيلت، ونظمت في مدحها أو رثائها.
 قيلت النماذج التي جمعت هنا في الفترة ما بين القرن الأول الهجري والقرن الثامن
 الهجري، لأننا بعد هذا التاريخ - على ما نعلم - نواجه حالة ازدياد نفوذ التشيع، وزاد
 وصول الشيعة إلى سدة الحكم في إيران من إفساح المجال لهذا النوع من الشعر (عربيه
 وفارسيه) فازداد وتعددت نماذجه وكثرت.



من شعراء الشيعة، ولد سنة ستين، وتوفي سنة ١٢٦ للهجرة. جاهر بمدح بني هاشم في أيام استبداد حكومة المروانيين مع الخوف الشديد على روحه وحياته، وانعدام الأمل بالصلة والمال. أنشد قصائد، وقطع شعرية غراء في مدح أهل البيت، ومهما حاول الهاشميون تقديم شيء من المال مكافأة له لم يقبل. تُعرف سلسلة ومجموعة قصائده بـ "الهاشميات"، وقد طبعت مرات ومرات، وترجمت من العربية إلى بعض اللغات الأخرى.

وأهيب هنا أن ينهض الغيارى العارفين باللغتين العربية

والفارسية لتقل تلك القصائد إلى الفارسية وغيرها من اللغات
الحية في العالم.

ألوم يوماً أباً بكر ولا عمراً	أهوى علياً أمير المؤمنين ولا
بنت النبي ولا ميراثه كفراً	ولا أقول وإن لا يعطيا فدكا
يوم القيامة من عذرٍ إذا اعتذرا ^(١)	اللّه يعلم ماذا يأتيان به

ومن جملة ما أنشد هذه الأبيات دعماً للعباسيين، ودعوة للخراسانيين للتمرد على أسد بن عبد الله القسري، وهو أخو خالد. وكان أسد قد تولى الحكومة من قبل أخيه:

على ما كان من نأيٍ وبعدي	ألا أبلغ جماعة أهل مرو
ويأمر في الذي ركبوا بجدد	رسالة ناصح يُهدي سلاماً
ولا يفرركم أسدٌ بعهد	فلا تهنوا ولا ترضوا بخسف
على أهل الضلالة والتعدي ^(٢)	والأفارفعوا الرايات سوداً

١- الهاشميات، ص ٨٤، تصحيح محمد الراجحي، ط ٢، مطبعة شركة التمدن الصناعية، مصر.

٢- شوفي ضيف، تاريخ الأدب العربي. العصر الإسلامي، ص ٣١٧.



ولد سنة (١٠٥) للهجرة. في البداية كان على مذهب الكيسانية، وكان يقول بإمامة محمد بن الحنفية، ورجعته، ثم أهدى إلى مذهب الإمامية؛ وقد طُبِعَ ديوانه مرات عديدة، وطبعته الأخيرة باهتمام وتصحيح السيد شاكر هادي شاكر في بيروت.

وفاطم قد أوصت بأن لا يصلّيَا عليها وأن لا يدنوا من رجا القبر
عليّاً ومقداداً وأن يخرجوا بها رويداً بليل في سكوتٍ وفي ستر
المناقب، ج ٣، ص ٣٦٣؛ الديوان، صص ٢٤٣-٢٤٤.

إِنَّهَا أَسْرَعُ أَهْلِي مَيِّتَةً وَلِحَاقًا بِي، فَلَا تَكْثُرُ جَزَعُ
فَمَضَى وَاتَّبَعْتَهُ وَالْهَاءُ بَعْدَ غَيْضِ جَرَّعْتَهُ وَوَجَعُ

الديوان، ص ٢٨٩؛ المناقب، ج ٣، ص ٣٦٢.



منصور بن الزبرقان بن مسلم، أو مسلمة بن الزبرقان من شعراء القرن الثاني الهجري، ومن مادحي البرامكة. وقد أنشد قصائد في مدح العباسيين، وفي بعضها توهين لبني هاشم، ولكن شوقي ضيف يقول: كان شيعياً، وقد جعل من هذه المدائح ستراً وغطاءً لعقائده، وفي القصيدة التي جئت ببعض أبياتها ذمّ الظالمين لآل محمد، لدرجة أن هارون أمر بقتله، ولكن المنصور مات قبل أن ينفذ فيه أمر هارون، وكان موته في نهاية القرن الثاني الهجري.

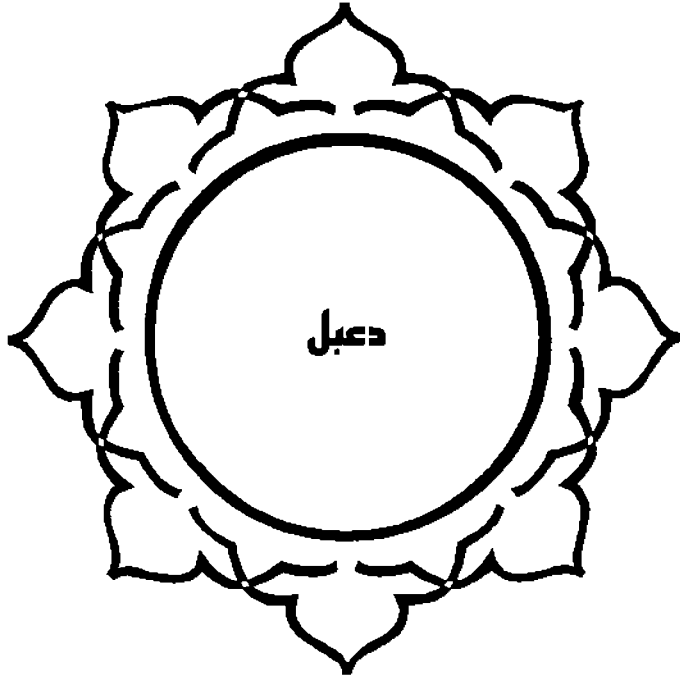
تقتل ذرية النبي وير	جون جنان الخلود للقاتل
ويلك يا قاتل الحسين لقد	نؤت بحمل ينوء بالحامل...
دينكم جفوة النبي، وما	الجافي لآل النبي كالواصل
مظلومة والنبي والدها	قرير أرجاء مقلّة حافل
ألا مصاليت يغضبون لها	بسلة البيض والقنا الذابل؟

الشعر والشعراء، صص ٨٣٦-٨٣٧؛ تاريخ الأدب العربي، شوقي
 ضيف، ج ٣، ص ٣١٧؛ الأغاني، ج ١٣، ص ١٤٠؛ تاريخ بغداد،
 ج ١٣، ص ٦٥؛ مقال الطالبين، ص ٥٢٢.

والأبيات المذكورة طبقاً لنسخة الشعر والشعراء التي صححها السيد أحمد محمد
 شاكر.

ويشاهد اختلاف كثير في بعض الألفاظ في المصادر المذكورة، وفي البيت الرابع
 خلاف للقواعد النحوية.

وأتقدم هنا بالشكر إلى صديقي العالم السيد الدكتور مهدي دامغاني الذي أعطاني
 نسخة عن هذه الصفحات.



أبو علي، ويلقب بـ "دعبل" بن رزين بن
عثمان بن عبد الله بن بديل من قبيلة خزاعة، ولد سنة (١٤٨)،
وقتل سنة (٢٤٦) هجرية.

شاعر عرف بحدة اللسان، وصراحة اللهجة، وعدم الخوف
من الموت، وقصيدته التائية نموذج للشعر العربي الخالد،
وللشعر المدافع عن حرمة أهل بيت النبوة.

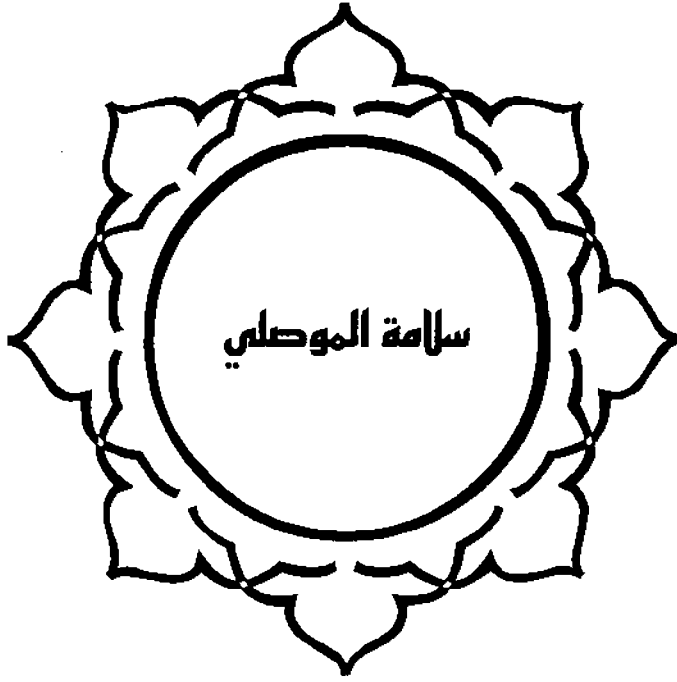
وقد قرئت هذه القصيدة - كما هو مشهور - على الإمام
علي بن موسى الرضا (عليه السلام)، وقد أتيت هنا بمنتخبات من

هذه القصيدة تؤيد الاستنتاج التاريخي في الفصل السابق.

على النَّاسِ من نقصٍ وطولِ شتاتٍ
إلى اللَّهِ بعد الصَّومِ والصَّلواتِ
وبغضِ بني الزَّرقاءِ والعبلاتِ
أولو الكفرِ في الإسلامِ، والقجراتِ
ومحكمه بالزورِ والشبهاتِ
وحكم بلا شوريّ بغيرِ هداةٍ
لَرُمَّتْ بمأمونٍ من العشراتِ
فقد حلَّ فيه الأمانُ بالبركاتِ
وبلغ عتاً روحه التحفاتِ
وقد مات عطشاناً بشطِ فراتٍ ...
وأجريتِ دمعَ العينِ في الوجناتِ
نجومِ سماواتِ بأرضِ فلاةٍ ...
وأيديهم من فيئهم صفاتٍ ...
وآلِ زيادٍ تسكنُ الحجراتِ
وآلِ زيادٍ آمنوا السَّرباتِ ...
يقوم على اسمِ اللَّهِ والبركاتِ
ويُجزى على التَّعماءِ والتَّقماتِ
فغيرِ بعيدٍ كلُّ ما هو آتٍ

ألم تر للأيامِ ما جرَّ جورها
فكيف ومن أنى يطالب زلفه
سوى حبِّ أبناءِ النَّبيِّ ورهطه
وهند وما أدَّتْ سُميةُ وأبناها
هم نقضوا عهدَ الكتابِ وفرضه
تراثِ بلا قريبيّ وملكِ بلا هديّ
ولو قلدوا الموصيَ إليه زمامها
سقى الله قبراً بالمدينة غيظه
نبي الهدى صلّى عليه مليكه
أفاطم لو خلتِ الحسينِ مجدلاً
إذن لَأَطَمَتِ الخدَّ فاطم عنده
أفاطم قومي يا أبنة الخيرِ وأنديبي
أرى فيأهم في غيرهم متقسماً
ديار رسولِ اللَّهِ أصبحن بلقعاً
وآل رسولِ اللَّهِ تدمى نحورهم
خروجِ إمامٍ لا محالة خارجٍ
يميّزُ فينا كلَّ حقٍّ وباطلٍ
فيا نفسِ طيبيّ ثمّ يا نفسِ أبشريّ

الديوان، تصحيح عبد الصاحب عمران الدجيلي، صص ١٢٦-١٤٤.



لَمَّا قَضَتْ فَاطِمُ الزَّهْرَاءُ غَسَلَهَا
وَقَامَ حَتَّى أَتَى بَطْنَ الْبَقِيْعِ بِهَا
وَلَمْ يَصَلْ عَلَيْهَا مِنْهُمْ أَحَدٌ
عَنْ أَمْرِهَا بَعْلَهَا الْهَادِي وَسِبْطَاهَا
لَيْلًا فَصَلَّنِي عَلَيْهَا ثُمَّ وَاوَاهَا
حَاشَا لَهَا مِنْ صَلَاةِ الْقَوْمِ حَاشَاهَا
المناقب، ج ٣، ص ٣٦٣.

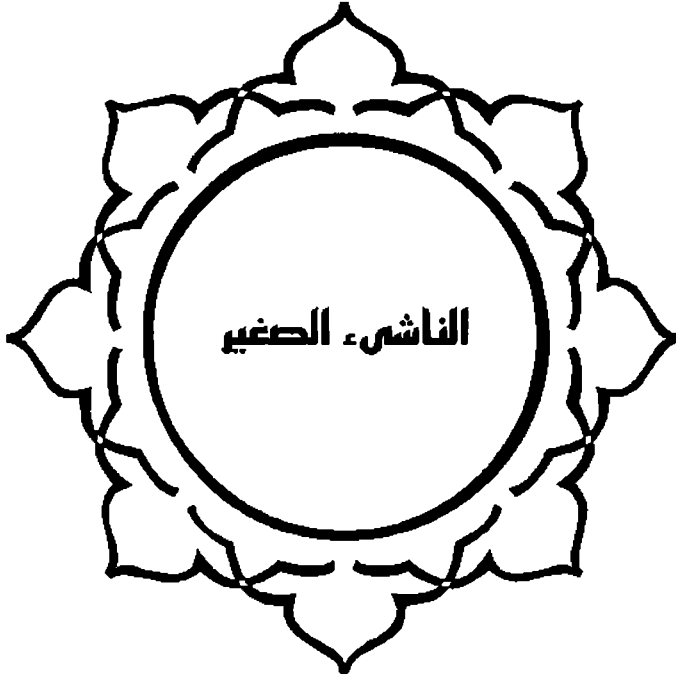


يا نفس إن تلتقي ظلماً فقد ظلمت
تلك التي أحمد المختار والدها
اللّه طهرها من كلّ فاحشةٍ
بنت النبيّ رسول اللّه وابناها
وجبرئيل أمين اللّه ربّها
وكلّ ريبٍ وصفّاها وزكّاها
المناقب، ج ٣، ص ٣٥٨.



أحمد بن محمد بن الحسن، توفي سنة ٣٣٤هـ نقلاً عن
الزركلي، ولكن ابن كثير قال أن وفاته كانت حوالي سنة
(٣٠٠) هـ وهو خطأ؛ وقد مدح شعره كل من الشعالي في
البيئمة وابن النديم في الفهرست، وغيرهم.

من ذا لفاطمة الألهاء يتبئها عن يعلها واينها إنباء لهفان
من قابض النفس في المحراب منتصبا وقابض النفس في الهيجاء عطشان
نجمان في الأرض، بل بدران قد أفلا نعم وشمسان إما قلت شمسان
الغدِير، ج ٣، ص ٣٧١.

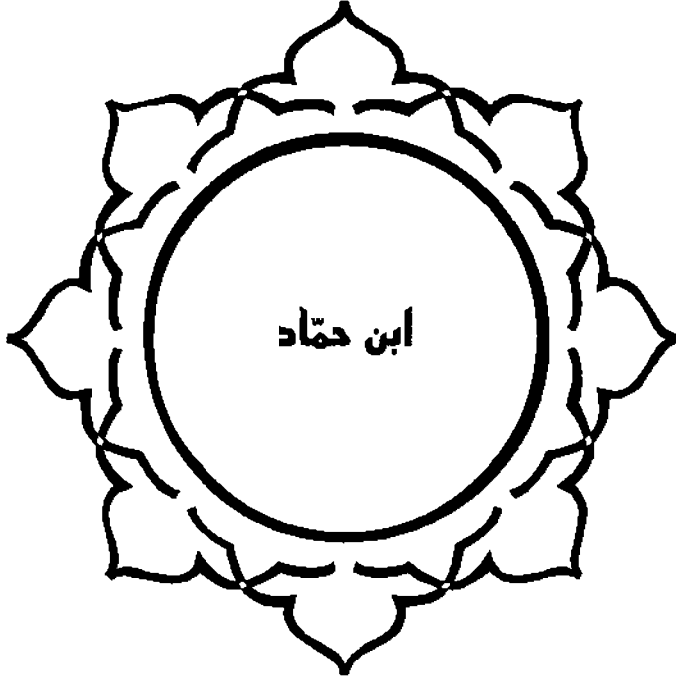


علي بن عبد الله بن وصيف المكنى بأبي الحسن، ولد سنة (٢٧١) هـ وتوفي سنة (٣٦٥) هـ وهو الذي مرَّ ذكره في الفصل السابق. وطبقاً لثقل مؤلف معجم الأديباء، قال عن نفسه أنه رسول فاطمة الزهراء عليها السلام وطلب من أحمد المزوق أن يقرأ عدة أبيات من شعر الناشء، وهي التي نقلها هنا لينوح بها.

بني أحمد قلبي لكم يتقطع
بمثل مصابي فيكم ليس يسمع
فما بقعة في الأرض شرقاً ومغرباً
وليس لكم فيها قتيلٌ ومصرعٌ

ظَلَمْتُمْ وَقُتِلْتُمْ وَقَسَّمْ فِيكُمْ
عَجِبْتُمْ لَكُمْ تَفَنُّونَ قِتْلًا بِسَيْفِكُمْ
جَسُومَ عَلِيٍّ الْبُوغَاءِ تُرْمِي وَأُرُوسَ
كَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْصَى بِقَتْلِكُمْ
وَضَاقَتْ بِكُمْ أَرْضُ فَلَمَّ يَحْمُ مَوْضِعُ
وَيَسْطُو عَلَيْكُمْ مِنْ لَكُمْ كَانَ يَخْضَعُ
عَلَى أُرُوسِ اللَّدَنِ الذَّوَابِلِ تَرْفَعُ
وَأَجْسَامِكُمْ فِي كُلِّ أَرْضٍ تَوْزَعُ

معجم الأدباء، ج ١٣، ص ٢٩٣؛ وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٥٣؛
الغدِير، ج ٤، ص ٢٨.



علي بن حمّاد بن عبد الله بن حمّاد البصري.
شاعر شيعي، ولد وتوفي في القرن الرابع الهجري، وقد
نُقلت له أبيات في مناقب ابن شهر آشوب بمناسبة ما. وقد
جاءت ترجمته في كتب التذكرة والرجال، وأكثرها تفصيلاً في
الجزء الرابع من الغدير الذي نقل عنه قصائد طويلة:

وروى لي عبد العزيز الجلوديّ وقد كان صادقاً مبروراً
عن شقاة الحديث أعني العلاءي هو أكرم بذا وذا مذكوراً
يسندوه عن ابن عباس يوماً قال: كنّا عند النبيّ حضوراً

إذ أتته البتول فاطم تبكي
قال: مالي أراك تبكين يا فاطم
وتوالي شهيقها والزفيرا
قالت: وأخفت التعبيرا

اجتمعن النساء نحوي وأقبلن
قلن إن النبي زوجك اليوم
قال: يا فاطم اسمعي واشكري الله
لم أزوجك دون إذن من الله
يُظنن التفرع والتعبيرا
عسلياً بعلاً عديماً فقيراً
فقد نلت منه فضلاً كبيراً
وما زال يحسن التدبيراً...

يا بني أحمدٍ عليكم عمادي
وبكم يسعد الموالي ويشقى
واتكالي إذا أردت النشورا
من يعاديكم ويصلي سعيراً
الغدیر، ج ٤، صص ١٦٧-١٦٨



أبو الحسن مهيار بن مرزويه، كان على دين الزردشتية
أولاً، ثم أسلم على يد الشريف الرضي (جامع نهج البلاغة)،
وتعلم منه الشعر إلى أن صار في ذلك شهرة الآفاق، توفي
سنة (٤٢٥هـ) مقدمة الديوان. طبع دار الكتب عن وفيات
الأعيان، ومصادر أخرى).

من استوجب اللوم أو فند
ل لم تشكروا نعمة المرشد؟
بكم جاثرين عن المقصد

ألا سل قريشاً ولم منهم
وقل: ما لكم بعد طول الضلا
أتاكم على فترة فاستقام

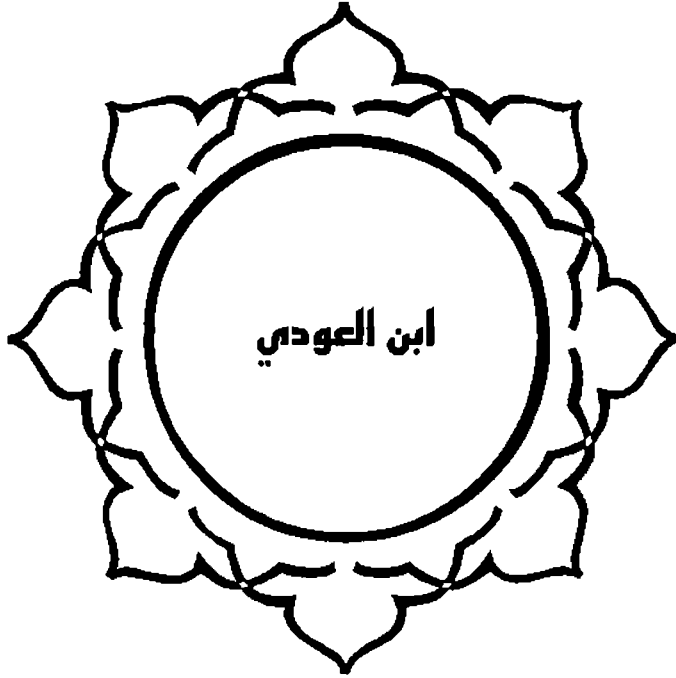
ومن سنّ ما سنّه يحمد
لحيدر بالخبر المسند

وولّى حميداً إلى ربّه
وقد جعل الأمر من بعده

لو اتّبع الحقّ لم يجحد
ومن يك خير الوريّ يحسد
ألا أنّما الحقّ للمفرد
بأيّ نكالٍ غداً يرتدي

وسمّاه مولياً بإقرار من
فلمتم بها حسد الفضل عنه
وقلتم بذاك قضى الاجتماع
سيعلم من فاطمٍ خصمه

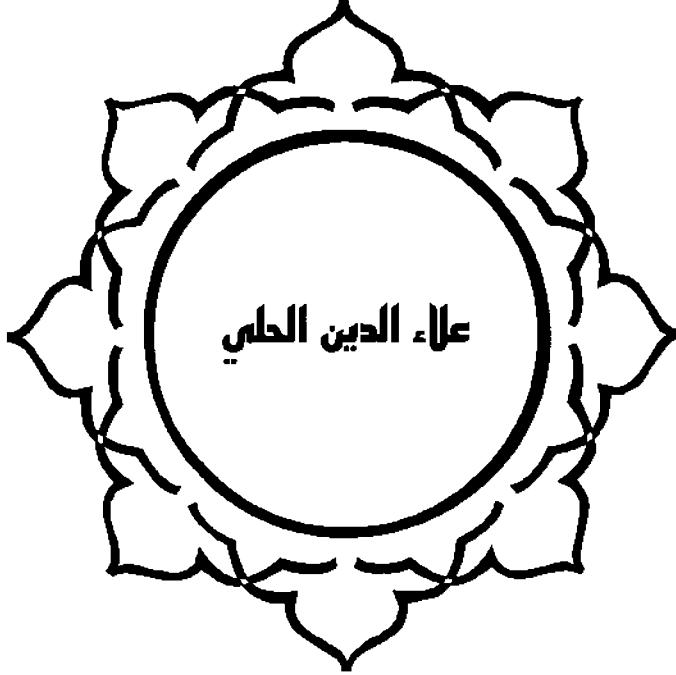
ديوان مهيار. طبع دار الكتب، ج ١، صص ٢٩٨-٣٠٠.



ولد سنة (٤٧٨)، وتوفي سنة (٥٥٨) هـ

فلم أنتم آباءكم قد ورثتم؟
أللأجنبيّ الإرث فيما زعمتم
ويحيى لذكرياً، فلم ذا منعمتم؟

منعمتم تراثي ابنتي لا أباً لكم
وقلتم نبيّ لا تراث لولده
فهذا سليمان لداود وارثٌ



أبو الحسن علاء الدين علي بن حسين الحلبي، من علماء،
وشعراء القرن الثامن الهجري، معاصر للشهيد الأول،
وقصائده السبع معروفة، وقد شرح الشهيد الأول إحدى تلك
القصائد.

وأجمعوا الأمر فيما بينهم و غوت لهم أمانيتهم والجهل والأمل

أن يحرقوا منزل الزهراء فاطمة
بيت به خمسة جبريل سادسهم
فيا له حادث مستصعب جلل
من غير ما سبب بالنار يشتعل

الغدیر، ج ٦، ص ٣٩١، القصيدة الخامسة.

ودار عليّ والبتول وأحمد
مسعالمها تبكي على علمائها
وشبرها مولى الورى وشبيرها
وزائرها يبكي لفقد مزورها
بوحشتها تبكي لفقد صدورها
منازل وحي أقفرت فصدورها

الغدیر، ج ٦، ص ٣٧٦، القصيدة الثانية.



بنت النبي

في الشعر الفارسي

كما قرأتم في الفصل السابق، ظهر في الشعر العربي ميول باتجاه أهل بيت النبي على الرغم من معارضة حكومة الأمويين في دمشق، وذلك منذ النصف الثاني في القرن الهجري الأول^(١)، فيها تعبير من الشعراء عن رؤية أهل البيت أنهم على الحق، وفيها إظهار الحزن، وإقامة العزاء على مصائب أهل البيت، وإعلان السخط على ما تعرضوا له من الظلم والجور، وأحياناً ذمّ الناس الذين سببوا لهم هذا الظلم، وأعانوا عليه. وقد تمّ اختيار بعض الأشعار التي ترتبط بوجه ما، وتتناسب مع حياة بضعة المصطفى ﷺ، وأما ما قيل في أمير المؤمنين علي ﷺ، وفي فاجعة كربلاء، فهو كثير جداً بحيث يملأ مجلدات ضخمة.

وقد فسح المجال بشكل أوسع وأكثر لهذا القبيل من الشعراء مع سقوط الأمويين ومجيء العباسيين، ومع أن العباسيين لم تربطهم بآل علي ﷺ علاقة حسنة إلا أنهم أفسحوا المجال أمام الشعراء الذين مدحوا بني هاشم لاستئصال ما تبقى من جذور الأمويين، وإذا ضمّن الشاعر في طيات مدحه لآل الرسول مديحاً للعباسيين، فما كان ليقبى دون نصيب من الجائزة والمكافأة، ولكن على أية حال، فإن حريتهم كانت بحيث لا يترافق مدح العلويين مع ذم العباسيين، وإلا فإن الشاعر لن يكون أميناً على روحه، وسلامته - كما قرأتم بشأن المنصور النمري - وأحياناً كان بعض الحكام من قبيل المتوكل، والمعتصم لا يُطيعون سماع أقل ميل نحو آل علي ﷺ، ولا يتورعون عن إيذاء، وتعذيب من كان يمدحهم؛ ومع ازدياد نفوذ الديلم في بغداد، وجدت مراكز في هذه المدينة - وهي مركز تجمع شعراء الشيعة لسنين خلت - يتم فيها ذكر فضائل أهل

١- المقصود من هذه الأشعار هو الأشعار التي تُظهر مظلومية آل النبي، وإلا فإن أشعار المدح نظمت فيهم منذ تأسيس الدولة الإسلامية في المدينة.

البيت، وسكب الدموع على ما لحقهم من ظلم وجور. وقد قدمت للقراء الكرام نموذجاً عن تلك المجالس في الفصل الذي تحت عنوان «لعبرة التاريخ».

ولكن في الشعر الفارسي - على ما سترون في هذا الفصل - فإن مدح آل النبي، والتشيع لعلي (عليه السلام) وآله بدأ من القرن الرابع الهجري، وعدد هذه الأشعار - ما في أيدينا منها - في أثناء حكومة السامانيين، والغزنويين، والسلاجقة، والخوارزميين قليل جداً. في المجموعة التي قيل عنها أنها أول الأشعار "الدرية" لا نشاهد شيئاً سوى وصف الطبيعة، ومدح الحكومة.

هل يمكن القول أن جميع الأشعار الفارسية في إيران الإسلامية، والتي نظمت، وقيلت حتى القرن الرابع الهجري بالدرية، أو غيرها من اللهجات الإيرانية كانت من هذا النوع فقط؟

مع أنه لا يمكن الإجابة على هذا السؤال بالإيجاب إلا أنه من غير المحتمل أن تكون قد نظمت أشعار في الموضوع الذي هو محل بحثنا. وفي هذه الحالة نتساءل من جديد ما هو سبب ذلك؟ وهل هو ضغوط الحكومة؟

في مقام الجواب نقول أن هذا الاحتمال وارد، فنحن نعلم أن إيران، والمنطقة الشرقية كانت تخضع لضغوط أمثال زياد، وعبيدالله، والحجاج بن يوسف، وابن الأشعث، وذلك منذ سنة ٤٣ هجرية، وحتى نهاية حكومة الوليد بن عبد الملك بن مروان. وكان الشعراء يعيشون في أيام هؤلاء الحكام وأمثالهم.

ولكن كيف ينهض شاعر كالكميت في المدينة، وهي التي كانت تخضع لحكم الأمويين وإشرافهم المباشر، فيقوم بمدح الهاشميين رغم كل ذلك، ولا نشاهد الشيء

نفسه في مدن أخرى [رغم كونها بعيدة عن سلطة الأمويين، وحضورهم المكثف فيها] من قبيل نيشابور، وطوس، وغزنة، وهرات؟

وهل يمكن القول بأن الإيرانيين لم يكن لهم في القرن الهجري الأول اطلاع على ما جرى على آل النبي ﷺ من ظلم؟

لا يمكن قبول مثل هذا الاحتمال مطلقاً، فضلاً عن هذا، فإن المقاومة في شرق إيران كانت فعالة سراً ضد الأمويين في مدة نصف القرن التي فصلت بين حكومة الوليد بن عبد الملك وسقوط حكومة مروان بن محمد، وكان شعارها الأساسي «الرضا من آل محمد» فهل يمكن القول أن الشعر الذي يبين هذا التعاطف والتأييد لم يُنظم؟ نحن نعلم أن الشعر عامل مهم لتحريك العواطف، والأحاسيس، والمشاعر العامة، فهل يمكن القول أن الحكومات وأيديها قد عملت على القضاء على هذا النوع من الشعر، وإزائته من الوجود؟

إذا كان الوضع فعلاً هكذا، فلماذا لم يقوموا بنفس الشيء مع الشعر العربي؟ والشعر العربي في مضمونه هو ذم مباشر للخلفاء الأمويين والعباسيين! في حين لو أن مثل هذه الأشعار قيلت باللغة الفارسية، فلن تكون تعريضاً وذماً للحكام الصفويين أو السامانيين أو الغزنويين، لأنه لا علاقة لهم بتلك المظالم والجنايات.

صحيح أن بحثنا حول الشعر الدرّي، وأنّ هذه اللهجة اكتسبت الصفة الرسمية ابتداءً من القرن الثالث الهجري، ولكن في الشعر الجديد الذي نظمه الإيرانيون الناطقون بالعربية لا يوجد نظائر لتلك النماذج أيضاً!

فقط من القرن الرابع الهجري أي تزامناً مع تأسيس الدول الشيعية في إيران المركزية، نشاهد بين الحين والآخر مضامين من هذا القبيل في الشعر الفارسي:

أمدح الشخص الذي مدحه الرسول، وأثنى عليه، وفوض إليه كل شيء. (١)
أو هذا النموذج :

هكذا ولدت، وعليه أعيش، اعلم فقط أنني تراب طريق حيدر (٢).

أو هذه الأبيات:

يكفيني شفاعة هؤلاء الأشخاص الخمسة
لكي أنجو بنفسي في يوم الحشر.
أفضل المخلوقات، وأخوه، وابنته، وابناه
محمد، وعلي، وفاطمة، والحسين، والحسن. (٣)

في أواخر القرن الرابع الهجري استولى الفاطميون على مصر، وأسسوا فيها حكومة قوية، وذاع صيتهم في الآفاق، والباق الإسلامية، ووجد لهم أنصار ومؤيدون في المنطقة الشرقية من إيران، وانطلقت أسنة الشعراء في تلك المنطقة بمدح أهل البيت، والنموذج الأبرز لهم هو الشاعر ناصر خسرو العلوي، ولكن عدد الأشعار التي قيلت، ونظمت بالفارسية في القرنين الخامس والسادس أيضاً ليس كثيراً!
والعجيب أنه في القرن الخامس الهجري كان الشيعة في بغداد التي هي مركز الحكومة العباسية يشكلون المجالس والتجمعات، وكانوا يبكون فيها على مصائب أهل البيت.

١- ترجمة بيت من شعر الكسائي المروزي.

٢- ترجمة بيت من شعر الفردوسي.

٣- ترجمة بيت من شعر الغضائري الرازي.

وذكرنا لها نموذجاً في فصل «لعبرة التاريخ»، ولكن في شرق ايران، وفي أبعد نقطة عن مركز الخلافة؛ فإن ناصر خسرو كان يجب عليه أن يلجأ للتنقل من خرابة إلى أخرى للحفاظ على روحه ونفسه!.

من هو السبب في هذا التشدد والتعسف؟ هل هو العباسيون أم الحكومات المحلية، وتملقها للعباسيين لأجل الحفاظ على أنفسها؟ فكانت تلك الحكومات المحلية الصغيرة، وحرصاً منها على إرضاء الحكومة المركزية العباسية تقوم بكل هذا التشدد على الناس فتكم أفواههم؟ أم أن سبب ذلك هو التزام أهالي هذه المنطقة بالمذهب السني، وتعصبهم المفرط له؟ أم أنه الاستسلام للواقع (بعد مقاومة بسيطة)؟

إن البحث عن جواب لهذا السؤال بعد مضي ألف عام كائناً ما كان هو جواب معتمد على الظن، والحدس الناشيء من تعاطف الباحث، أو طريقة تفكيره.

وعلى أية حال - وكما ذكرنا - منذ نشوء اللغة الدرية في شرق ايران، وحتى العقد الأول من القرن السابع الهجري؛ فإن الوجود من الشعر الفارسي في مديح آل بيت النبي هو شيء يسير ومعدود.

وفي ثنايا هذه الأشعار نشاهد اسم بضعة النبي في بعض الأبيات تلويحاً، أو ضمناً. ومع هجوم المغول على ايران اضطربت الأوضاع في ايران، وماجت موجاً عنيفاً لمدة تزيد عن مائة سنة، وفي القرن الثامن الهجري نشاهد شروع الشعراء الفارسيين في مختلف أنحاء ايران بمدح أهل البيت. وفي نهاية هذا الفصل نأتي بهذه النماذج من الأشعار ليمر عليها القارئ، وكما نشاهد فإن أطول مدح هو للشاعر خاجوي كرمانى، وللشاعر ابن حسام الخوسفي.

وما ذكرناه في هذا الفصل ينتهي في أواخر القرن التاسع الهجري؛ لأن القرن العاشر هو بداية القبول الرسمي للمذهب الشيعي في ايران، وفي هذه الفترة صار قسم مهم من الشعر الفارسي يتشكل من مدائح، ومراثي أهل البيت.



أبو معين ناصر بن خسرو بن حارث القبادياني البسلخي،
ولد سنة (٣٩٤)، وتوفي سنة (٤٨١) هـ من الشيعة
الإسماعيلية، ومدح الخلفاء الفاطميين في مصر، وصار حجة
من قبلهم في جزيرة خراسان.

- في القيامة في يوم الخوف والاضطراب أتشفع أمام جميع الحاضرين بالسيدة
الزهراء.

-حتى ينتقم لي الله تعالى العادل في بريته من أعداء ذرية ونسل رسول الله.

الديوان، تقوى، ص ٤.

- شهر ولاية الأئمة الأطهار هو أحد تجليات أشعة شمس وجود أحمد وفاطمة ﴿ع﴾.

- هي بنت من هو مظهر ذات الله أي النبي الذي هو ناموس الحقيقة وصندوق أسرار الغيب.

- محل ظهور وطلوع جمال الرب وتجلي نور الله.

- من أنفاسها كالسيح ﴿ع﴾ مئات الأشخاص يحيون من جديد والروح الأمين هو تجل لتصورها.

- من نفسها يخلق المسيح وتصير مريم مقدسة ...

- من ابتسامتها يمطر القمر ومن يديها الفائقين كرمأ ينهمر بالمحبة.

- هي جوهرة نقية من رسول الله ﷺ اشتراها الله منه.

- لو لم يكن علي لما كان لها كفؤ ولا نظير.

- جنات عدن هي تراب مقام الزهراء و...

الديوان، ص ٢٠٩.

قال إنني إمام وأخذ الميراث من الأبناء والأحفاد وذريتهم

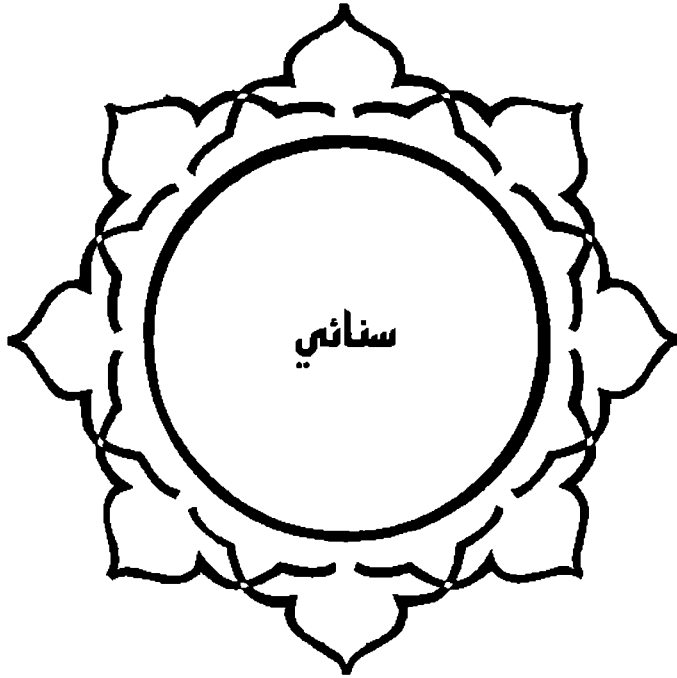
إذا لم يكن هذا العمل عندك منكراً ومرفوضاً فإنك صعب ومنكر

لا يمكن أن أكون إلى جانبك في هذا العمل وإلا فأين وجهي من فاطمة والحسن

والحسين؟

ناصر خسرو. الديوان. مينيوي ومحقق*، ص ٩٤.

*- القصيدة التي جاءت فيها هذه الأبيات لا تشاهد في طبعة مينيوي ومحقق.



أبو المجد مجدود بن آدم. من شعراء القرنين الخامس
والسادس الهجريين، توفي في أوائل القرن السادس
(٥١٨هـ)

إياك أن تغفل عن أسرة بني هاشم ولا عن آية «يد الله فوق أيديهم»
في هذا العالم جميع الناس رضع وكان الله لم يتفضل بالفظام على أحد غير فاطمة.
(الحديقة، المدرس الرضوي، ص ٢٦١).

في وصف كربلاء ونسائم المشهد العظيم:

استشهد جميع آل ياسين بسبب الضعف وعدم وجود الناصر ولا المعين فعضشوا
وزهقت أرواحهم تالياً.

وكان الذين ارتكبوا هذا الظلم الكبير بحقهم هم آل زياد والشمر اللعين.

خرق المصطفى ثيابه من الحزن والكمد وبكى علي من عينيه دماً

وفاطمة هشمت وجهها وهطلت الدموع الكثيرة من عينيها دماً.



بدر الدين القوامي، من الشعراء المعروفين في النصف
الأول من القرن السادس، توفي في النصف الثاني من القرن
السادس الهجري.

في رثاء سيد الشهداء:

غرقت الزهراء والمصطفى وعلي من الألم والغم وأقاموا مجلس العزاء في سدرة
المنتهى

وقد انفجرت عينا الزهراء بالبكاء أمام المصطفى أنه ماهو دواء وجع حسيني؟.

في هذه الأثناء دخل الحسين ﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾، وسلم عليهم فرد جده السلام، ورحب به أبوه.
قفزت الزهراء ﴿عَلَيْهَا السَّلَامُ﴾ من مكانها وألقت بنفسها على وجهه وسألته: يا عزيز أمك أين كنت؟
وكيف تخلصت من تلك الكارثة؟ وماذا فعل بك هؤلاء القوم الخبيثاء؟ أمك كانت في انتظارك فلماذا تأخرت في المجيء؟

حب أصحاب النبي واجب، ولكن على رأسهم حيدر الكرار لقربه وصحبته.
كانت الزهراء وحيدر حجة الرسول، ولكونهما كفوًّا لبعضهما البعض عقد الرسول قرانهما.

(الديوان، صص ١٢٦-١٢٧)



من شعراء القرن السادس الهجري، توفي سنة (٥٧٧) أو
(٥٧٩) هجرية.

في البستان بسط الربيع سفرته الخضراء قرب النهر فكان فيها وردة شقايق تتمايل
كالساحر.
أمام النسيم ويدها كأس أحمر اللون تطلب - كما الزهراء - بثأر الحسين وأنصاره .
(ديوان ركن الدين همايون فرخ، ص ٢٧).



أبو العطاء كمال الدين محمود المرشدي، ولد سنة (٦٨٩)،
وتوفي سنة (٧٥٣) هجرية.

أصحاب القصر الكحلي جعلوا من تراب أقدام فاطمة كحل عيون العالمين.
ماذا تفعل هذه «الزهرة» الباهتة مع وجود شمس سماء العصمة فاطمة الزهراء ؟
- أخذ دمها هدية إلى بستان الجنة لكي تورد به خدود الملائكة.

ومرة أخرى زينوا عروس الفلك، وعلقوا على الإيوان الأخضر للسماء ستارة ذهبية
فك لباس الفلك وزين الجبل العظيم الهيكل بنطاق ذهبي اللون
ورسم الرسامون المبدعون ألوان الورد المنمّم على ستائر السماء العالية برسوماتهم
الجميلة

وأغلق حراس السماء عيونهم عن النظر لأن سيدة القيامة قد جيء بمحملها
كتب الذين يقدمون الحبّ لحمام حرم الملكوت اسم الزهراء على أجنحة الحمام
فليتعلق قلبك بذلك البطل الذي أطلق فرسانه صيحات النصر على أبواب قصور قيصر
(الديوان، صص ١٣٣-١٤٣)

كتبت أشعار محبة الزهراء وأهل بيتها على قلوب الكواكب الزهرية المشعة
كما كتبت الملائكة المقيمة داخل ستائر حريم القدس اسم الزهراء البتول على أغصان
رؤوسهن

(الديوان، ص ٥٨٤)

الزهرة خادمة في محضرها وصار القمر حاجباً على بابها

هى كالشمس يختفى نورها فى مقابل النجوم مع كونها منبع النور
لم تزد سنوات عمرها على ثمانى عشرة سنة، لأن مكان حياتها الحقيقى هو جنة الله
مقام حضرتها ما فوق ذرا الأفلاك السبعة، وغذاؤها فى رياض الجنان
عروس الأفلاك التسعة وشقائق أوراق الحدائق السبع^(١)، وطاووس الجنان الثمان،
وشمع الوجوه الستة

من اسمها عرفت الفروع الثلاثة^(٢) والأصول الأربعة^(٣) ومن بركتها سما
القصران^(٤) والأقمار الخمسة

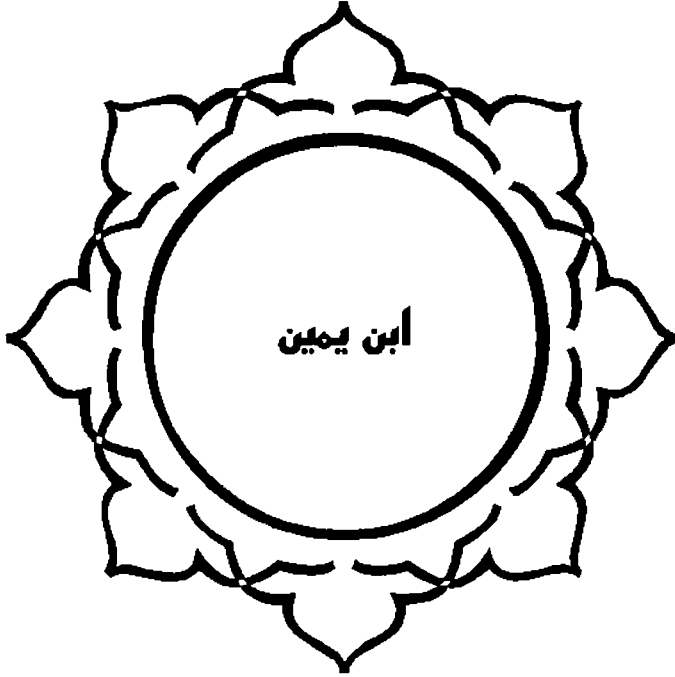
أقل ضيوف منزلها سارة^(٥)، وهاجر هى خادمة عندها^(٦)

القمر طبق فضى فى مطبخ منزلها، والشمس هاون ذهبى

غذاؤها ملح من بركة «أنا أملح»^(٧) وكلامها حلى من سكر «أنا أفصح»^(٨)

(الديوان، ص ٦١٥)

- ١- السيارات السبع.
- ٢- المواليذ الثلاثة: الحيوان والنبات والمعادن.
- ٣- المراد: الماء، والهواء، والتراب، والنار.
- ٤- المراد من القصرين والأقمار الخمسة هو الأفلاك السبعة.
- ٥- زوجة نبي الله إبراهيم عليه السلام وأم إسحاق.
- ٦- أم إسماعيل عليه السلام.
- ٧- مأخوذ من حديث «كان يوسف حسناً ولكننى أملح» (سفينة البحار، ج ٢، ص ٥٤٦).
- ٨- مأخوذ من حديث «أنا أفصح العرب بيد أنى من قرىش» (سفينة البحار، ج ٢، ص ٣٦١).



محمود بن يمين الدين الفريومدي، من شعراء القرن
الثامن الهجري، ومن مادحي آل السربداري، ومن
المرتبطين بهذه الأسرة، توفي في سنة (٧٦٩)هـ

لقد سمعت من كلام العارفين والأجلة والعظماء أن النبي العظيم الطاهر النسب
محمد ﷺ سيد سادات العرب قال يوماً لأصحابه والمقربين منه :
عندما يحين يوم المحشر يأتي جميع الخلائق إلى المحشر فينادي مناد في السموات
السبع: أن يا أهل المحشر جميعاً رجالاً ونساءً أغضوا أبصاركم جميعاً لأن سيدة المحشر

تريد أن تعبر فلتبللوا الأرض من دموعكم.

سأل شخص أن يا أبا الطاهر أيها المطهر: لماذا على النساء الأخريات أن يخفضن أبصارهن؟

فأجاب: لأن أياً من البشر لا يستطيع أن يتحمل رؤية نورها.

تأتي باكية آنة وعلى أحد كتفيها قميص الحسن وآثار السم عليه، وعلى كتفها الآخر ثوب مخضب بدم الحسين، فتتقدم نحو عرش الله وهي على هذه الحالة، لتتظلم عنده وتطلب منه القصاص لهذين الابنين الطاهرين:

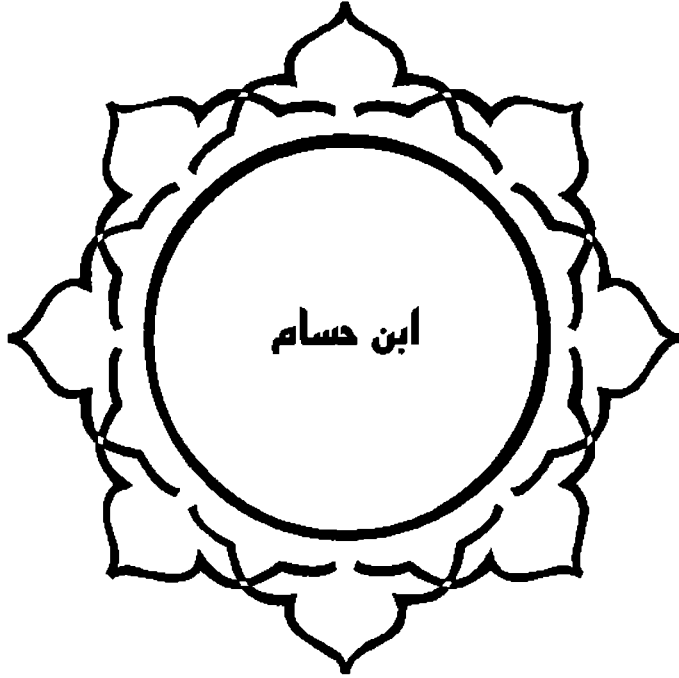
لم ير أحد من الظلم أكثر من هذا فأنصفتني أيها العادل

فيقسم الله أنه سيخلد ظلَمَتَهُما مكبلين بالأصفاد في نار الجحيم

كم هو سيء الحظ ذلك الظالم الشنيع الذي يكون شفاعؤه هم خصماؤه في يوم

القيامة؟.

الديوان، حسن علي باستاني راد، صص ٥٨٦-٥٩٠.



محمد بن حسام الدين الخوسفي، من الشعراء المشهورين في القرن التاسع، شاعر قدير الطبع، وعالم عالي الهمة، صرف عمره في مدح آل بيت النبي ﷺ، ولم يمدح الناس طمعاً في نوالهم، كما يقول (ما ترجمته):
إذا أمكن إشباع البطن برغيف خبز فلا تتحمل منة الجلوس على سفرة الملك أردشير.

من منشدي "خاوران نامه"، وديوانه يتكون من قصائد، وترجيعات، ومخمسات، وأنواع أخرى من الشعر. توفي سنة

قصيدة في مدح الزهراء ﴿ع﴾

قال حضرة آدم الذي كانت الجنة مأواه ومقامه:
بينما كنت أتجول يوماً في الجنة في أحد الاتجاهات، رأيت فجأة وعلى بعد مني منزلاً
جميلاً يتأجج النور منه، ويتوارى القمر الفضي غائباً أمام فرط نوره، وحتى الشمس
تستمد منه النور.

بدأت أبحث عن شخص أسأله عن سر ذلك المنزل، ولكنني لم أجد أحداً.
عندئذ رفعت رأسي نحو السماء، وقلت: يا إلهي! يا خالق الشمس والقمر! يا منور
القلوب الطاهرة! أسألك ببركة وجود المصطفى أعطني وامنحني صفاءً في قلبي،
وعرفني سر هذا المنزل.

عندها سمعت من الأعلى صوتاً يقول لي:
يا آدم! سأعلمك دعاءً يصفو قلبك به، قل بصفاء ونية خالصة: بحق محمد وعلي
صاحب ذي الفقار، وقائد جيوش الدين، والفارس الذي لا نظير له، وبحق الحسن
والحسين اللذين اصطفاهما الله، وبحق فاطمة الزهراء سيدة المحشر، بحق هؤلاء عليهم
السلام عرفني أسرار هذا الأمر.

ولما قرأ آدم هذا الدعاء بنية خالصة، وصلّى على النبي المصطفى، وسلم عليه، فتح
الباب من ذلك المنزل، فخر آدم ساجداً من رؤية ذلك النور وشدة صفائه.
رأى آدم في ذلك البيت سريراً ملؤه النور، تجلس عليه فتاة كالشمس الساطعة، وعليّ
رأسها تاج من نور يفيض على الحور في الجنان سروراً وحبوراً.
وعلى جيدها عقد جميل يشع ضياءً كضياء الشمس، ويتدلّى من أذنيها جوهرتان
نوريتان.

فنادى آدم ربه: أن يا إلهي! لا أعرفها فعرفها لي.

جاءه الجواب أن أسألها لتعرف قصتها.
 قالت له: أنا التي بهذه المنزلة بنت النبي المصطفى
 أما التاج الذي على رأسي فهو أبي، وأما الجوهرتان فهما ولداي الحسن والحسين،
 وأما ذلك العقد الذي يطوق جيدي فهو علي ولي الله، والذي الله وليه.
 فقال آدم: يا إلهي! هل لي من أهل هذا البيت المبارك نصيب وسهم لكي أدأوي بها
 آلامي؟
 جاء الجواب أن يا آدم! هؤلاء الأطهار المصطفون هم من ذريتك ونسلك.
 فقال آدم: تكفيني إذا تلك المنزلة والعظمة حتى قيام الساعة.

ضيافة فاطمة لحضرة الرسول ﷺ

تضوعت رائحة الربيع العطرة كروائح المسك في أنحاء البستان
 وهذا العبير الزكي لتزيين وجه الحديقة بالورود
 اختلست الريح حجاب رأس الورد ورفعت الستائر عن وجه وردة الـ «روبند»
 الخضراء
 كانت البراعم حاملة بالورد وشعرت كالسيدة مريم وهي خلف الستائر بالضيق
 والحياء
 تمايلت شجرة السرو الطويلة القامة وجعلت تختلس النظرات
 وتفتحت سنبله جديدة وكأنها حبة مسك لظبي قد فتحت لتوها وعطرت الهواء
 برائحتها العبقية
 كانت الوردة مثل وجوه الملاح الحسان فتية وغضة

وكان الليل في أطراف البستان وزواياه يتألم مغردا
 للتعبير عن هذه الحالة والمعاناة وقوافي الآهات ظُنَّ وكأن بلبلا مثل وامق عاشق وقد
 استقر على وردة وجهها جميل كجمال العذراء
 أخرج طائر القمري لسانه كشفرة حادة وصدح متأوها
 ورفعت شجرة السرو رأسها وكأنها قد الحبيب الفاتن
 كان الهواء يبيع روائح العطر وكانت الأرض قد اكتست حلة جديدة
 وكانت وردة الشقائق ثَمِلَة وهي لا تزال فوق وردة النرجس التي كانت ككأس شراب
 الخمر

كان البرق اللامع كالسيف الذي استل من وسط الغيوم
 فكان يثير لواعج وأحزان الغيوم السوداء ويجعل الدموع تنسكب كالمطر
 لتزين معشوق الأيام تكحلت وردة الشقائق بالكحل
 وصارت الوردة كمرآة وأصبحت الشقائق مكحلة
 خرج العقيق من قلب الحجر القاسي الصلد ورفعت وردة الشقائق رأسها من أحضان
 وسفوح الجبال

عطر أريج البنفسج المشام فإما أن قلبي قد سكب العبير على أوراق الورد
 أو أن خازن دار القرار قد فتح باب الجنة
 أو أن نسائم الصباح أثارَت الغبار عن تربة بنت خير البشر ونثرتها في البيداء
 القمر كان شمع لياليها كشمعة منيرة ورأس الفلك في مقابلها كالجارية الخادمة
 كانت أطراف غطاء رأسها فخراً للخيام
 ورائحة جلبابها من عطر البخور والرياحين والورود
 كان لباسها الأطلس والحريري لطبقات العالم التسع
 ولباسها اللطيف الثمين

الملائكة كانوا وراء ستائر العصمة والطهارة سدنة لتلك الستائر
 و تراب باب عصمتها مفضل عن الجنان ومحل افتخار الجميع
 جعلت الحور العين تمسح الغبار عن بابها برموشهن
 ويعطرن شعورهن العبقة بالرائحة الزكية المنبعثة من ذلك الغبار الشبيه بالمسك
 ما يأخذه النسيم من غبار طريقها إلى الجنة تستعمله الحور العين ضياءً لعيونهن
 في حرم القدس الإلهي الأبدي تقوم الحور العين على خدمتها بكل شوق ورغبة
 ومن أعماق قلوبهن ليصلن للكمال
 ينثر الموكلون في السماء كل سَحَرٍ من سفرتها فتات قرص من الخبز على الفلك.
 في مقابل شرف وعظمة سمائها تبدو مستنات الأفلاك التسعة أصغر من حبة
 خشخاش واحدة مما لديها

في حرم قدسها يزين الليل حواجه بالسواد وفي الصباح يمسح وجهه بماء أبيض
 أرسلت نجوم الفرقدين أفتعة رؤوسهن إليها كهدية وتحفة.
 وكوكب المشتري أرسل لها خاتماً والقمر أهداها الأقراط .
 ذهبت الزهرة ضيفا إلى دار السرور كمزينة وماشطة لتزيين الحوريات .
 في ليلة زواجها قامت عجلة المجرة وهي بائعة الجواهر بملء ساحة السماء بالجواهر
 الثمينة .

زين من هم خلف ستائر الغيب تلك الستائر وصارت القبة السماوية الزرقاء بستانا
 للجنة
 من كثرة ما أُلقت النجوم من الجواهر في ركابها صارت الستائر السماوية المليئة
 بالورد ملأى بالمجوهرات الملوكية

جاء أصحاب مشاعل الليل إلى سطح الفلك وأشعل ناسكو الهند مشاعلها وأضأؤها
 ازدان الفلك وتربعت الملائكة في سدرة المنتهى واستقر جميع الروحانيين دفعة

واحدة

تليت خطبة زواجها بأمر من الله وعقد قرانها لعلّي (ع) وكان هذا الزواج علنيا وأمام
الملاّ

كان الروح القدس شاهدا مع جميع الروحانيين على هذا الزواج واصطف الكروبيون
في جميع الأماكن والزوايا صفوفًا

فتح خازن الجنة بابها ليتسنى للهوريات مشاهدة مراسم هذا الزواج
طلب خازن الجنان من العرش نسيمًا كنسيم الجنة وعلى أثر ذلك النسيم أمطر الهواء
بالمسك

وعندما هب النسيم في سدرة المنتهى على رؤوس الحور العين
تناثرت اللآلئ وتساقط المرجان من كل مكان
فجمع الجالسون في الجنة ما تناثر من الدرر والجواهر وملؤوا جيوبهم وكل ما لديهم
بالمجوهرات من كثرة ما نزل

هذا بيت الفرح والسرور، هذا خاطب وشاهد، وهذه أيضا أطباق نثر عليها ما نثر
يا أيتها الطاهرة البتول! يا شقائق بستان الرسول! نجمك لامع لا مثيل له ولا نظير
وعصمتك لا يدانيها شيء، أنت منتهى رغبة مقصد العالم وأنت زينة وحلي الناس
أنت عفة العذراء مريم، أنت نخبة خيرة الخيرة
أنت أم الحسن والحسين أنت زوجة أبي الحسنين
ذلك العربي الراكب على الـ «دلدل»

أيها الغافل عن شرفها ومنزلتها أنا أخبرك عن صفحة واحدة من ذلك فاسمع
وجدت هذا على ورقة من خط أبيها، وهو صحيح كأن المسك قد سكب على ورق
الورد.

التفت النبي ﷺ يوماً بعد صلاة الصبح إلى علي عليه السلام وقال له:

هل عندك في البيت طعام تضيفنا به؟

قال علي: تفضلوا! لتذهب إلى البيت.

تقدم النبي وتبعه علي وهو خائف مضطرب، لأنه يعرف أن البيت ليس فيه طعام، فلما وصل إلى البيت أسرع بالدخول إلى داخل البيت، وقال لفاطمة: لقد حل أبوك ضيفاً في

بيتنا ليتناول الطعام عندنا!

اضطربت فاطمة لعدم وجود شيء من الطعام لديهم، وقالت له: أدخله إلى البيت،

واجلس أنت والحسن والحسين عنده حتى أنظر ماذا يمكن أن أفعل!

نادت فاطمة أنساً، وأعطته ثوباً لها، وقالت له:

أذهب به فوراً إلى السوق، وبعه، واشتر بتمنه طعاماً نصنعه لأبي فقد حل ضيفاً عندنا.

كانت فاطمة قد نسجت ذلك الثوب بيدها من وبر الجمل.

ذهب أنس بذلك الثوب إلى السوق ليرى من سيشتريه.

عندما فتحه البائع في السوق لينظر إليه رأى وكأن نوراً ينبعث منه، فلفت ذلك انتباه

جميع من كان في السوق.

سارع عدد من الباعة لشرائه، ولكن لم يدفع أحد منهم أكثر من ثلاثة دراهم.

أحد اليهود وكان عنده دكان في السوق وكان من كبار التجار سارع لمعرفة القصة،

فجاء إلى الجمع، وسألهم: لمن هذا الثوب؟

فقال شخص: هذا الثوب أعطاني إياه أنس، فأسأله، لأنني لا أعرف من حقيقته شيئاً.

قال اليهودي لأنس: قل لي ما هي حقيقته؟

قال له أنس: إذا كنت تريد أن تشتريه فاشتره وإلا فلا تسأل شيئاً.

قال اليهودي: أقسم عليك بحياة رسول الله إلا ما قلت لي وأخبرتني بسر هذا الثوب! تقدم أنس نحوه بهدوء وقال له: إذا وعدتني أن تحفظ السر فسأقول لك! هذا الثوب هو لابنة خير البشر أي للزهراء فاطمة خير النساء. حل أبوها ضيفاً عندهم وليس عندهم أي طعام، فأجبرت علي بيعه، لتشتري بشمه طعاماً.

كان ذلك اليهودي مطلعاً بشكل حسن على التوراة وحقيقتها، فتوجه فوراً إلى دكانه ففتح التوراة وعينه تفيضان من الدمع، وقلّب فيها عدة أوراق حتى وصل إلى موضع فقراه جيداً ثم عاد مسرعاً وهو يقول لأنس أنا اشتري هذا الثوب منك بأربعة آلاف درهم!!

لقد أوحى الله على جبل الطور مما أوحاه بقصة ثوب بنت النبي قائلاً: نبي آخر الزمان سيكون عنده بنت اسمها فاطمة، وسيضيفها يوماً وليس عندها شيء من الطعام، فتضطر لبيع ثوبها لكي تعد له طعاماً، فلا يشتريه أحد بأكثر من ثلاثة دراهم، فيشتريه أحد أتباعك بأربعة آلاف من الدراهم، وقد أقسم الله بعزته وجلاله أن قيمة ذلك الثوب ومكاته أكبر من عبادة الملائكة الكروبيين!

يا أنس! أنا معطيك ألف درهم خامس، ولي عندك طلب وحاجة أريد منك أن تلبسها لي:

لقد آذيت النبي كثيراً، ولا وجه لي في مواجهته، والذهاب إليه، فأريد منك أن تبلغه اعتذارى عما كان يبدر مني، وأن تتفضل عليّ فاطمة بأن تقبلني خادماً عندها لأقضي عمري كله في خدمتها.

ذهب أنس إلى بيت فاطمة وتبعه اليهودي وهو يتأمل خيراً.

قال لأنس: عندما تصل إلى البيت اسأل المصطفى هل يمكن أن أتشرف بحضوره؟ دخل أنس إلى البيت وأخبر فاطمة بالقصة، فقالت فاطمة ﴿عليها السلام﴾: الآن أخبر والدي

بقصة اليهودي.

ذهبت فاطمة إلى النبي أبيها وأخبرته بالقصة فتفضل النبي فأذن لليهودي بالدخول وقال لأنس أدخله.

خرج أنس وناداه، فدخل اليهودي، وانكب على قدمي النبي ﷺ، وعفر جبهته بالتراب الذي تحت أقدام النبي.

نطق اليهودي بالشهادتين وأسلم، وكان يقول من من العرب والعجم حصل على فخر مثلي حيث قبلتني فاطمة خادماً عندها؟

ذهب اليهودي إلى السوق، ولم ينقض نصف النهار حتى أسلم على يديه أربعة آلاف وثمانمائة يهودي، وصاروا مؤمنين عابدين أتقياء.

جاء الروح الأمين جبرائيل إلى النبي ﷺ وقال له:

عليك آلاف التحية والسلام من قبل الرب المتعال!

لقد نجا آلاف من اليهود، وكلهم كانوا قد استوجبوا غضب الرب الجبار، ببركة ضيافة

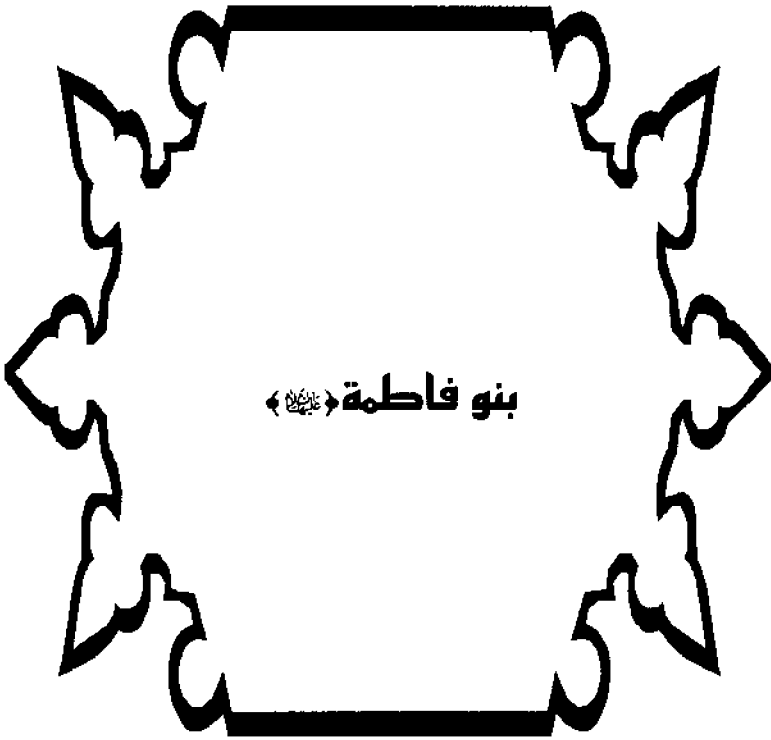
ابنتك فاطمة فنجوا جميعاً من غضب الله ونار الجحيم

يا من هي في سماء العصمة إشراقة الأنوار القدسية

يا من هي نقيّة الثوب عن غبار الزلل والمعاصي

لقد جعل ابن حسام^(١) مدحك والتغني بخصالك ورداً مستمراً على لسانه طالما بقيت

روحه في بدنه.



بنو فاطمة



﴿ ذرية بعضاً من بعض ﴾ (١)

كما نعلم، ويعلم كل مطلع على تاريخ الإسلام، أنجبت فاطمة أبناءاً ألعلي ﴿عليه السلام﴾: ابنان هما: الحسن والحسين ﴿عليهما السلام﴾، وبناتان هما: زينب وأم كلثوم. ولا يشك أي كاتب من كتاب السيرة والمؤرخين في وجود هؤلاء الأبناء الأربعة لها. ولد الحسن في منتصف شهر رمضان من السنة الثالثة للهجرة، وولد الحسين في شعبان من السنة الرابعة للهجرة، وذكر أصحاب التذكرة والتراجم الشيعة، وجمع من علماء أهل السنة والجماعة ابناً ذكراً لبضعة المصطفى باسم "مَحْسَن".

لم يذكر مصعب الزبيري - صاحب كتاب نسب قريش الذي توفي في سنة ٢٣٦هـ اسماً للمحسن، في حين ذكر البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩: «ولدت فاطمة لعلي (عليه السلام): الحسن، والحسين، والمحسن. ومات المحسن في الصغر»^(١).

وكتب أيضاً:
لَمَّا وُلِدَ الْمُحَسِّنُ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ فَاطِمَةَ،
- ماذا أسميته؟
- قالت: حرباً،
- فقال: اسمه المحسن^(٢).

وذكر علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (٣٤٨-٤٥٦) مؤلف كتاب جمهرة أنساب العرب أن المحسن مات في الصغر^(٣).

وعدّ الشيخ المفيد أبناء علي (عليه السلام) من فاطمة هكذا: الحسن، والحسين، وزينب الكبرى، وزينب الصغرى وكنيتها أم كلثوم^(٤).
وذكر في آخر هذا الباب: «وفي الشيعة من يذكر أن فاطمة صلوات الله عليها أسقطت

١- أنساب الأشراف، ص ٤٠٢. [...] فَوَلَدَتْ لَهُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، وَمَحْسَنَا دَرَجَ صَغِيرًا]
٢- المصدر السابق، ص ٤٠٤. [...] لَمَّا وُلِدَ الثَّالِثُ، جَاءَ فَقَالَ أُرُوْنِي ابْنِي، مَا سَمَّيْتُمُوهُ؟ قُلْنَا حَرْبِيَا. قَالَ: هُوَ مُحَسِّنٌ].
٣- ص ١٦.
٤- إرشاد، ج ١، ص ٣٥٥.

بعد [وفاة] النبي ﷺ ذكر أكان سماه رسول الله ﷺ وهو حمل محسناً» (١)

وذكر الطبري: «يقولون أن لفاطمة من علي ولد آخر اسمه مَحَسَّن، مات في الصغر»

وجاء في الروايات الشيعية، وبعض كتب أهل السنة والجماعة أنها أسقطت بهذا الولد على أثر الإصابة التي تعرّضت لها في الأيام العصيبة التي جرت على بضعة النبي بعد وفاة النبي ﷺ. (٢)

وقد كتب حول حياة كل واحد من أبنائها الأربعة كتب، ومقالات، بمختلف اللغات. وبإمكان القراء الأعزاء لهذه السلسلة من الكتب (٣) أن يطلعوا على شرح مبسوط ومفصل لابنيها الإمامين الحسن والحسين أبناء علي عليه السلام.

١- المصدر السابق، ص ٣٥٦؛ وراجع: كشف الغمة، ج ١، صص ٤٤٠-٤٤١.

٢- يرجع إلى: الملل والنحل، ج ١، ص ٧٧.

٣- يقصد الكاتب هذه السلسلة من الكتب التي تُعرّف بالمعصومين عليهم السلام، والتي قام هو نفسه بتأليف عدد مهم منها، ولاقت رواجاً منقطع النظير في الأوساط الشافعية على اختلاف مشاربها الحوزوية والأكاديمية، وقد زاد عدد النسخ المطبوعة من بعض حلقاتها عن ثلاثمائة ألف نسخة، وقد قامت دار الهادي للطباعة والنشر بترجمة ونشر جميع الحلقات التي للمؤلف بحسب وكالة حصرية منحها المؤلف لإدارة الدار، وصدرت تحت العناوين التالية:

١. نهضة الحسين. ٢. علي بلسان علي.

٣. تاريخ الإسلام التحليلي. ٤. حياة الإمام السجاد.

٥. حياة السيدة فاطمة الزهراء (هذا الكتاب).



زينب ﴿ع﴾

يحتمل قوياً أن تكون زينب ﴿ع﴾ قد ولدت في السنة السادسة لهجرة النبي إلى المدينة، وإذا كان هذا الاحتمال صحيحاً، فإنها تكون ومنذ أن فتحت عينيها وتعرّفت على ما حولها، قد واجهت المصيبة والفاجعة.

موت النبي ﴿ص﴾ في السنة الخامسة من عمرها، والأحداث الأليمة التي حصلت في ذلك اليوم داخل وخارج بيتهم، ثم مرض أمها، وآهات حزنها، ودموعها على مصيبة أبيها، وشكواها من الظلم، والمعاناة، وفي النهاية موتها، والأشدّ إيلاماً هالة الخوف، والتكتم التي سيطرت على هذا الجمع الصغير المفجوع بها في المنزل، وكأن الأطفال أيضاً لم يكن مسموحاً لهم بالبكاء، والضجيج لئلا يسمع الجيران، ويتنقل الخبر من واحد لآخر، فيشهدوا جنازة الزهراء ﴿ع﴾ فلا يتم تنفيذ وصيتها عملياً.

شاء القدر الإلهي أن تتشابه ظروف تربية الأم والبنات، فهي أيضاً يجب عليها أن تقاسي فترات الامتحان الصعبة، واحدة تلو الأخرى، استعداداً للأيام الأصب، والأفجع. عندما وصلت إلى سنّ الرشد تزوجها عبدالله بن جعفر بن أبي طالب.

ولد عبد الله في أثناء الهجرة إلى الحبشة، وهو شخص دعا له النبي ﴿ص﴾ بالخير. (١) وقد نعتته جميع كتاب السير بالنبل، وعزة النفس، ولا سيما بالكرم.

وأنجبت زينب من عبد الله أبناءاً.

ذكر مصعب الزبيرى أن أبناءها ثلاثة ذكور، وبناتاً واحدة:

الذكور هم: جعفر، وعون، ولم يبق لهما عقب، وعلي، وأعقاب عبد الله منه، وبننت باسم أم كلثوم أراد معاوية أن يخطبها زوجة ليزيد، فأوكل عبد الله أمر أم كلثوم للحسين عليه السلام فزوجها الحسين عليه السلام للقاسم بن محمد بن جعفر بن أبي طالب. (١)
كما أن الطبرسي في اعلام الورى ذكر أن أبناء عبد الله هم هؤلاء الأربعة فقط (٢)، ولكن المشهور أن أبناءه الذكور هم: علي، ومحمد، وعون، وعباس.

ومع أن زينب كانت زوجة عبد الله، وتعيش معه في بيته، وكان لها منه أولاد وذرية، ولكنها كانت كأمها لا يغيب عن بالها العناية بأبيها.

لما ذهب علي عليه السلام إلى العراق لأجل القضاء على فتنة طلحة والزبير وخروجهما عليه توجهت زينب مع زوجها عبد الله أيضاً إلى الكوفة، وأقاما فيها، وعاشت زينب في العراق جميع الأحداث العجيبة التي جرت في ذلك الزمان: الحرب والاشتباك مع الجيش الذي تجمع في البصرة مطالباً بالتأثر لدم عثمان تحت قيادة امرأة كانت إلى قبل مقتل عثمان تُشبهه عثمان بنعث اليهودي.

حرب صفين، ومكر أصحاب الدنيا الذين كانوا يتظاهرون بأنهم مع علي، وفي جيشه، في حين كانوا سرّاً يأتمرون بأوامر معاوية؛ ثم مروق الخوارج، المتظاهرين بالقداسة، وقراءة القرآن؛ وفي نهاية المطاف فاجعة التاسع عشر من شهر رمضان، واستشهاد علي عليه السلام في محراب مسجد الكوفة؛ ثم مبايعة الناس لأخيها الحسن عليه السلام وعدم الطاعة له، ثم الغارة عليه، وغارة أمواله من خيمته، وجرحه في فخذه بالمعول،

١- نسب قریش، ص ٨٢.

٢- اعلام الورى، ص ٢٠٤.

واضطرابه لقبول المصالحة مع معاوية، والكلام اللاذع والتعريض به الذي سمعه من المتظاهرين بمحبته بعد الصلح^(١).

كانت زينب في أثناء هذه الأحداث قد تجاوزت الثلاثين من عمرها، وكما تقول أمها: «ما أعجب ما يخفيه الدهر! وكم يخرج من الدواهي واحدة إثر الأخرى» كانت الدواهي تظهر واحدة بعد الأخرى، وكان تحمل كل هذه الهموم والغموم يحتاج إلى قدرة كالفولاذ وثقل كثقل الجبل، وكانت هي مثال الحلم والصبر.

وفي نهاية المطاف رجع آل علي من الكوفة إلى المدينة، ولم يمض وقت طويل حتى شاهدت زينب أباها الأكبر على فراش الموت، يتلوى من ألم السم الذي دس له، وفي اليوم التالي شاهدت منظراً أشد إيلاماً، فتلك التي لم تكن تتحمل رؤية ابتسامة النبي المفعمة بالمحبة في وجه فاطمة، ولم تتخلص حتى ذلك اليوم من الحقد الذي يملأ قلبها تجاه الزهراء، تريد أن تنتقم لنفسها من الزهراء من خلال ابنها لدرجة أنها منعت دفن السبط إلى جانب جده.

ومضت عشر سنوات شاقة أخرى، سنوات قام فيها أزام حكومة دمشق بمطاردة وملاحقة شيعة علي ﴿عليه السلام﴾ في مدن العراق، والحجاز: شتاً، وحرماً، وحبساً، وقتلاً. إلى أن وصل ذات يوم خبر كان ساراً للعراق أكثر من أي ولاية أخرى، لقد هلك معاوية! أقيمت التجمعات في الكوفة، ووقف فيها الخطباء، وقد انتفخت أوداجهم، واحمرت وجوههم من الحماس والتفاعل، وكل ذلك حرصاً على وقوع كلامهم موقعه من نفوس الناس لكي يترك أثره:

«يجب أن نمنع يزيداً من التأمر علينا، ويجب أن يعود الحق إلى صاحبه، وما دام سبط النبي عندنا، فما حاجتنا لحفيد أبي سفيان؟»

وتتابعت الرسائل من الكوفة إلى المدينة:
«أقبل إلينا يا ابن رسول الله! وإلا فأنت مسؤول أمام الله!»

وتوجه الحسين من مكة إلى العراق، وبذل عبد الله زوج زينب جهده وسعيه يوم خروجه، فهو من جهة يرى أن ابن عمه، وأخا زوجته لا أمان له في مكة، ومن جهة أخرى يخاف أن يفعل العراقيون معه مثلما فعلوا مع أبيه وأخيه.

ذهب عبد الله إلى حاكم مكة عمرو بن سعيد، وأخذ منه أماناً للحسين، هذا نصه:
«بلغني أنك قد توجهت إلى العراق، وإني أعيذك بالله من الشقاق، فإني أخاف عليك فيه الهلاك، وقد بعثت إليك عبد الله بن جعفر، ويحيى بن سعيد؛ فأقبل إلي معهما، فإن لك عندي الأمان، والصلة، والبر، وحسن الجوار لك».

وقد قام بإيصال كتاب الأمان هذا عبد الله وأخو حاكم مكة. من الواضح ماذا سيكون جواب الحسين عليها السلام على هذا الأمان:

«أما بعد: فإنه لم يشاقق الله ورسوله من دعا إلى الله عزوجل، وعمل صالحاً، وقال إني من المسلمين [...] فخير الأمان أمان الله، ولن يؤمن الله يوم القيامة من لم يخفه في الدنيا، فنسأل الله مخافة في الدنيا توجب لنا أمانه يوم القيامة»^(١)

١- انظر: بعد خمسين سنة [بالفارسية والطبعة العربية تحت عنوان: نهضة الحسين]، ط ٢، ص ١٤٧.

وخرج الـركب الـذي كانت زينب معه، ترافقه من مكة. ولما أيقن عبد الله بن جعفر أنه لن يصرف النظر عن هذا السفر، أخرج ابنه عوف ومحمد مع ركبـه.

كانت دمشق ترأب تحركات العراق عن كـتب منذ أشهر عديدة أو من الأفضل أن نقول أن الخبراء بشؤون العراق - وهم فئة ممن دعوا الإمام إلى مدينتهم - أطلعوا دمشق على الإعصار الوشيك الحصول في العراق. فاستعدّ يزيد للمستقبل وذلك عن طريق إرسال حاكم عديم الأصل والنسب والتقوى، ودون رحمة أبداً هو عبيدالله. كان أول ما قام به عبيدالله هو أن قتل هانئ بن عروة مضيف مبعوث الإمام إلى الكوفة مسلم بن عقيل، وبذلك أربع أهل الكوفة وأخافهم، وكان جنوده المسلحون يراقبون طرق الحجاز إلى العراق بكل دقة، فالتقى الإمام بعد أن تحرك من منزل «شُراف» بالحر بن يزيد الرياحي مبعوث حاكم الكوفة الجديد عبيدالله، فقام الحر بعد أن وصلتـه أوامر عبيدالله الجديدة بإنزال الإمام في أرض يقال لها كربلاء. ولا بدّ أن القراء الكرام يعرفون ماذا جرى في تلك الأيام الحافلة بالخوف والاضطراب والقلق والتي لم تكن أبواب الأمل - على الأقل بالنسبة لفئة من الناس - قد أغلقت نهائياً، وكذلك في الساعات الأخيرة من يوم التاسع من محرم إلى نهاية اليوم التالي - العاشر - وقد بسطت الحديث حول هذا الموضوع في كتابي الآخر من هذه

السلسلة حول حياة الإمام الحسين ﴿ع﴾ (١) كما لا يخفى على القراء الأفاضل الوظيفة الكبيرة والواجب المهم الذي كان ملقياً على عاتق السيدة زينب ﴿ع﴾ في تلك الأيام العصيبة، وما هو الدور الذي قامت به وأظهر عظمة شخصيتها وهمتها، لكن مهمتها الخاصة بدأت في أواخر اليوم العاشر من محرم سنة ٦١ هـ.

انقضت الساعات الأخيرة لليوم العاشر من محرم وعاد المجانين الذين أعمى حب المال والجاه أو حس الانتقام أبصارهم وبصائرهم إلى وعيهم.
ماذا فعلوا؟

إنمأ عظيماً! وعملاً وشنيعاً! ليس له في تاريخ العرب مثيل. قتل ضيفهم صار عاراً عليهم، والأسوأ منه تلك القسوة والهمجية التي ليس لها مثيل!
ماذا كسبوا من وراء ذلك؟ لا شيء!
لا، لماذا لا شيء؟
لقد كسبوا مكسباً كبيراً من قتل هذا الضيف!
ما هو؟

ذلة واستسلام الكوفة أمام دمشق، وليس للمرة الأولى بل هذه المرة هي من جملة المرات التي حصلت لها.

ماذا عليهم أن يفعلوا؟ وإلى أين يذهبون؟
كانت جميع الطرق مسدودة في وجوههم، إلا طريقاً واحداً هو طريق العار!

وهو الطريق الذي تحتم قهراً على هذه القافلة أن تعبره. الطريق الذي بدأ من الغاضرية وانتهى بالقصر الأخضر في دمشق، مروراً بقصر حاكم الكوفة. كانت القافلة العراقية مجبورة على أن تمرغ جبين المذلة بالأرض أمام رجل لا يعرف له أصل محدد، ثم تتابع الطريق ذليلة حانية الرأس، مرغمة الأنف إلى أن تصل إلى أعتاب ابن هند لتقول « نحن طوع أمرك » بالأمس قبلنا مرارة وسم العبودية لأبيك، واليوم نحن خاتم في يدك «رهن إشارتك وحكمك» هذه هي الهدية التي جلبتها قافلة العراق!

أما بقية قافلة الحجاز فلم تذهب هي الأخرى بيد خالية بل كانت يدها مملوءة أيضاً. يد رحية برحابة أصقاع العراق والحجاز. لا بعرض شبه الجزيرة العربية وعالم الإسلام فقط. مليئة بأشياء ثمينة: بالشرف والفخر والمروءة والإباء والكرامة الإنسانية: متاع الشهادة، ولكن طالب هذه السلعة ليس الكوفة ولا دمشق فهناك لا أثر للرجال ولا للرجولة. طالبو الشهادة رجال هم بقول المتنبّي:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم^(١)
فهؤلاء الذين كانوا داخل ذينك القصرين، وأولئك الذين كانوا يطوفون حول القصور لم يكونوا رجالاً حقيقيين، بل كانوا سفلة بكل ما للكلمة من معنى.
هذه السلعة كان جمع من النساء والأطفال يودعونها للتو وقد غلت أيديهم إلى

١- شيخ ميهنة، صاحب كتاب أسرار التوحيد، ص ٥٨، والعبارة المذكورة في المتن معادل وليست ترجمة حرفية، لعلها تكون أنسب من ترجمة الأصل مناسبة للذوق العربي.

أعناقهم وأعناقهن، والقيود أثقلت أرجلهم وأرجلهن، وكان مع قافلة هذا الجمع قائد لقب بحق "بطلة كربلاء" (١).

كما سوف نقرأ قام قائد القافلة بعرض متاع القافلة في كلا القصرين (في الكوفة ودمشق) ليس لأجل أن يجد طالباً وراغباً فيها في ذلك اليوم، لأنه يعلم أن هؤلاء ليسوا ممن يطلب هذا المتاع. ولكنه أقام سوقاً سوف تجد رونقاً لها بعد خمس سنوات! في البداية في مدينة الكوفة، ثم في المدينة، وبعدها في الشام، ثم في خوزستان، وخراسان. وكانت النهاية أن نال اللؤماء حتفهم على أيدي الخراسانيين بالحراب والحجارة. الجبناء والسفلة لا يتقدمون بأعناقهم طوعاً لمذايح الحرية، بل يذهبون دهساً تحت الأقدام والأحذية. وحصل ذلك بالفعل عندما أمر الخليفة العباسي الجديد أن تفرش الموائد على جثث الأمويين التي كانت لا تزال تتنفس الأنفاس الأخيرة في الرمق الأخير، وجلس الخليفة الجديد وأصحابه على تلك الموائد لتناول الطعام! (٢)

دخلت القافلة ورئيسها إلى سوق الكوفة، فأراد حاكم الكوفة أن يظهر بعرض هذا المشهد ذلة بنت علي وآل هاشم، ويبين لهم بهذا العمل قوته، وأن: هؤلاء هم أبناء وأتباع حاكم مدينتكم السابق! ههم اليوم تنفيذاً لأوامري أسرى وقد غلت أيديهم إلى أعناقهم يُدار بهم في أزقة مدينتكم وهم يضربون بالسياط! هذا هو ما أراده حاكم الكوفة ولكن الله أراد شيئاً آخر.

تجمهر أهالي المدينة من شيوخ وشبان في أزقتها، وكما يقول المثل المعروف: «الارتفاع السريع لحرارة البدن يأتي بتعرق سريع». الناس الذين يغضبون بسرعة يندمون بسرعة. والناس الذين يعيشون في حوض الفرات يتمتعون بهذه الصفة بأعلى

١- اسم كتاب حول حياة السيدة زينب ؑ قام المؤلف بترجمته والتعليق عليه.

٢- راجع: تاريخ الإسلام التحليلي، القسم الثاني، حوادث سنة ١٣٢.

درجاتها، فبسماع حديث يغضبون ويحتدون ويعادون، وبحديث آخر يصبحون أرحم من الأخ!

كانت الكوفة تعرف زينب جيداً. والنساء اللواتي كان لهن من العمر ثلاثون عاماً وأكثر رأوا وقارها وكرامتها في نظر المسلمين وعزتها في نظر أبيها.

دخول زينب والأسرى إلى سوق الكوفة على تلك الحالة المؤثرة التي يرق لها القلب أحييت في النفوس خاطرات الماضي. صاحت النسوة فأبكين الرجال واغرورقت أعينهم بالدموع، وبكاء الجمع نساءً ورجالاً، دفع الأطفال إلى الصياح والبكاء والعيول، وفجأة علت أصوات الحزن وآهاته وأنيته من كل مكان.

الآن يجب إيصال هذه الحالة من التأثر والأسى إلى ذروتها، لكي تتفتح بصيرة قلوبهم، ولكي يعرفوا ماذا فعلوا، ولماذا فعلوا الذي فعلوا.

في جمع الأسرى من الذي يستطيع أن يقوم بهذه المهمة؟

الشخص المؤهل هو ابنة علي، ولكن أية واحدة منهم؟ زينب أم أم كلثوم؟

أقدم مصدر تاريخي سجل الأحداث، والخطبة التي قيلت هناك قال أن الخطبة هي لأم كلثوم، وقد ذكرت في أحد كتبي^(١) رعاية للأمانة نفس الاسم.

ولكن، وكما ذكرت في هذا الكتاب أم كلثوم لم تكن على قيد الحياة في هذا التاريخ. وهذا الخلط ناتج عن أن أحد ألقاب زينب عليها السلام هو "أم كلثوم"، فكانت تدعى بـ «أم كلثوم الكبرى»، وأختها بـ «أم كلثوم الصغرى»، وعلى أية حال، لقنت الناس في سوق الكوفة درساً لا ينسى!

قالت زينب بعد حمد الله والثناء عليه:

«يا أهل الكوفة! يا أهل الختر والخذل! لا، فلا رقات العبرة، ولا هدأت

١- بعد خمسين عاماً [نهضة الحسين]، ص ١٨٢، ط ٢.

الرِّثَّة، إِنَّمَا مِثْلُكُمْ كَمِثْلِ الَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا، تَتَّخِذُونَ
 أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ، أَلَا! وَهَلْ فِيكُمْ إِلَّا الصَّلَفُ وَالشُّنْفُ، وَمَلَقَ الْإِمَاءُ،
 وَغَمَزَ الْأَعْدَاءُ، وَهَلْ أَنْتُمْ إِلَّا كَمِرْعَى عَلَى دِمْنَةٍ، أَوْ كَفِضَّةٍ عَلَى مَلْحُودَةٍ.
 أَلَا سَاءَ مَا قَدَّمْتُمْ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ: أَنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، وَفِي الْعَذَابِ أَنْتُمْ
 خَالِدُونَ. أَتَبْكُونَ؟ أَيْ وَاللَّهِ فَابْكُوا، وَإِنَّكُمْ وَاللَّهِ أَحْرِيَاءُ بِالْبُكَاءِ! فَابْكُوا
 كَثِيرًا، وَاضْحَكُوا قَلِيلًا، فَلَقَدْ فَزْتُمْ بِعَارِهَا وَشَنَارِهَا، وَلَنْ تَرَحُّضُوهَا بِغَسَلٍ
 بَعْدَهَا أَبَدًا، وَأَنْتُمْ تَرَحُّضُونَ قَتْلَ سَلِيلِ خَاتِمِ النَّبِوةِ، وَمَعْدِنِ الرَّسَالَةِ، وَسَيِّدِ
 شِبَّانِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنَارِ مَحَجَّتِكُمْ، وَمِدْرَةِ حَجَّتِكُمْ، وَمَفْرَحِ نَازِلَتِكُمْ، فَتَعَسَّأُ
 وَنَكَسَّأُ!

لقد خاب السعي، وخسرت الصَّفقة، وبؤتم بغضب من الله، وضربت
 عليكم الذلَّة، والمسكنة. لقد جئتم شيئاً إداً، تكاد السَّموات يتفطرن منه،
 وتنشق الأرض، وتخرَّ الجبال هدأً.

أتدرون أي كبدٍ لرسول الله فرَّيتم؟
 وأي كريمة له أبرزتم؟
 وأي دمٍ له سفكتم؟

لقد جئتم بها شوهاً خرقاء، شرَّها طلاع الأرض والسَّماء، أفعجبتهم أن
 قَطَرَتِ السَّماءُ دماً! ولعذاب الآخرة أجزى، وهم لا ينصرون؛ فلا يَسْتَحْفِنُكُمْ
 المهل؛ فإنه لا تحفزه المبادرة، ولا يخاف عليه فوت النَّار، كلا إن ربك لنا،
 ولهم بالمرصاد».

ثم صرفت وجهها عنهم فوجموا وهم يعضون بأسنانهم على أصابعهم حيرةً وذهولاً،
 فقال رجل من بني جعفة وقد اخضلت لحيته من دموعه:

كهولهم خير الكهول ونسلهم إذا عدّ نسل لا يبور ولا يخزى

أخذ الأسرى إلى قصر ابن زياد، حيث كانت جميع الأمور اللازمة لاستعراض القوة والقدرة هناك قد أعدت من قبل بأحسن شكل ممكن. استعراض القوة وإظهارها أمام آل بيت النبي هو لإرعاب أهل الكوفة وتخويفهم. كان ابن زياد يتخيل بزعمه أنه طوى طريق النصر حتى نهايته: قتل الحسين، وأسر أزواجه، وأبنائه [الصغار]، ومرغ أنوف الكوفيين في الوحل، واعتباراً من هذا الوقت من الذي يجرؤ على التلفظ باسم علي ﴿عليه السلام﴾؟!

- من هذه المرأة؟

- زينب بنت فاطمة!

- شكراً لله! أرايتم كيف فضحك الله، وأظهر كذب أقوالكم؟

كان ابن زياد يختال فرحاً بقدرته وقوته، وليس هناك شيء أشدّ إيلاً للقوة والمستعرض لها من عدم الاكتراث به، وتحقيره أمام الناس.

تحدثت بنت علي وكان شيئاً لم يحصل مطلقاً: وكأنها لم يقتل أخوها، ولا أهلها، ولم تغل أيديها إلى عنقها هي وأهل بيتها وأقاربها، ولم يؤت بهم إلى شخص حقير، مصاص للدماء، بل كأنها دُعيت إلى مجلس مناظرة، وبحث علمي.

- الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد، إنما يكذبُ الفاسقُ، ويُفتضحُ الفاجرُ،

وهو غيرنا!!

احتار ابن زياد؛ لأن الرأس الذي أراد له أن ينحني ذلاً ازداد ارتفاعاً وسؤدداً، وليس هذا وحسب، بل حتى الرؤوس التي خنعت، ولا روح فيها، دون أن تشعر ارتفعت عالياً. فاضطر للمناورة من طريق آخر:
- هل رأيت ماذا صنع الله بأخيك؟!

- ما رأيت إلا جميلاً!! وقد اختاروا الشهادة، فبرزوا إلى مضاجعهم!
وقد اختاروا الشهادة فأكرمهم الله بها! وسيجمع الله بينك وبينهم، فتحاج وتخاصم، فانظر لمن الفلج يومئذ، ثكلتك أمك يا ابن مرجانة.

بهذا الجواب تحطمت عنجيهة ابن زياد، وطار صوابه لسماعه.
ما هو آخر سلاح للعاجز؟
السباب!

- لقد شفى الله قلبي من طاغيتك الحسين والعصاة المردة من أهل بيتك.

- فقالت: لعمرى! لقد قتلت كهلي، وأبرت أهلي، وقطعت فرعي،
واجتثت أصلي، فإن يشفك هذا، فقد أشتفيت.
- تقول سجعاً، ولقد كان أبوها سجعاً^(١).

آخر منزل للركب

فتحت الشام بأيدي جيوش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد في السنة الثالثة عشرة للهجرة. ولم يمض وقت طويل حتى آلت الشام في عهد عمر إلى حكم معاوية الذي بقي حاكماً عليها إلى آخر عمره.

كان أهل الشام يرون الإسلام من خلال سيرة أشخاص من قبيل خالد، ومعاوية الذي بقي حاكماً عليها إلى آخر عمره. ولم يكن لهم اطلاع ومعرفة بسيرة النبي، ولا عهد لهم بتربية المهاجرين والأنصار.

في سنة إحدى وستين هجرية كان يعيش في مدن الشام جمع (بضع ومائة) من الأشخاص الذين رأوا رسول الله.

الأشخاص الذين كانت أعمارهم تتجاوز الستين كانوا يفضلون الاعتزال في زوايا ما بعيداً عن الأضواء لكي لا يروا الذي يجري ويحدث.

ليس عجيباً أن يقول أهالي هذه البلاد بعد سقوط الأمويين في سنة ١٣٢ هـ ومجيء القائد العباسي إليها أننا لا نعلم أن لمحمد أقارب غير بني أمية حتى وصلتكم أنتم إلى الحكم. (١)

وإذا ذكر أصحاب المقاتل أن أهالي دمشق أبتهجوا فرحاً وسروراً عند دخول الأسرى إلى دمشق، فليس ذلك بعيداً عن الصحة.

وإذا قال يزيد في مجلسه:

ليت أشياخي ببدر شهدوا	جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلوا واستهلوا فرحاً	ولقوا يا يزيد لا تشل
فجزيناه ببدر مثلاً	وأقمنا مثل بدر فاعتدل
لست من خندف إن لم أنتقم	من بني أحمد ما كان فعل
فليس ذلك بعيداً أيضاً.	

في ذلك اليوم كان يلتف حول يزيد في مجلسه أشخاص يرون في الإسلام وسيلة للوصول إلى الحكم والسلطة، وليس وسيلة للقرب من الله. تشاهدون - أيها القراء الأكارم - أن المجالس واحدة الشكل، كما أن الأحاديث واحدة المضمون: كان ابن زياد فرحاً ومسوراً؛ لأنه قام بالمهمة الموكلة إليه على الوجه الأكمل، بسلب العراقيين عامل النصر والقوة من أيديهم. وفي الشام يزيد فرح ومختال؛ لأنه أخذ بثأره لأجداده الذين سقطوا صرعاً في معركة بدر [ضد النبي].

ولو أن الأمر اختتم بهذا الموقف لكان رابحاً للموقف، ولكن زينب [بطلة كربلاء] لم تترك يزيداً يذوق طعم النصر، وحلاوته؛ فجعلت من حلاوة الموقف بالنسبة ليزيد مرارة العلقم. وفي حديث قصير أفهمت الحاضرين في المجلس حقيقة الشخص الذي يحكمهم، وما هي نسبتها وقرابتها للشخص الذي يحكم يزيد المسلمين باسمه، ومن يكون هؤلاء المكبلون بالأغلال والحبال، القابعون تحت عرش يزيد!!

وقد أتيت هنا بكلامها اعتماداً على أقدم المصادر التي في يدي نقلاً عن بلاغات النساء لمؤلفه أحمد بن أبي طاهر المولود بعد مائة وأربعين سنة من حصول الحادثة،

ويشاهد في المصادر المتأخرة اختلاف في ضبط الكلمات:

«ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله، وكانوا بها يستهزؤون»^(١)

أظننت يا يزيد أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض، وأكناف السماء، فأصبحنا نساق كما يساق الأسارى، أن بنا هواناً على الله، وبك عليه كرامة؛ فشمخت بأنفك ونظرت في عطفك جذلان فرحاً، حين رأيت الدنيا مستوسقة لك، والأمور متسقة عليك. وقد أملهت ونفثت، وقول الله تبارك وتعالى: «ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيراً لأنفسهم، إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً، ولهم عذاب مهين»^(٢).

أمن العدل يا ابن الطلقاء^(٣) تخديرك نساءك وإماءك وسوقك بنات رسول الله صلى الله عليه، قد هتكت ستورهن، واضحلت صوتهن، مكثبات تخدي بهن الأباغر ويحدو بهن الأعادي من بلدٍ إلى بلد، لا يراقبن ولا يؤوين، يتشوفهن القريب والبعيد، ليس معهن ولي من رجالهن. وكيف يستبطأ في بغضنا من ينظر إلينا بالشَّنْف والشَّان والإحن والأضغان. أتقول «ليت أشياخي بيدر شهدوا» غير متأثم، ولا مستعظم؟ وأنت تنكت

١- الروم/٣٠: ١٠.

٢- آل عمران/٣: ١٧٨.

٣- بعد فتح مكة حضر زعماءها إلى النبي، فقال لهم:

- ما تظنون أني فاعل بكم؟

- قالوا: أنت أخ كريم، وابن أخ كريم!

- فقال: اذهبوا، فأنتم الطلقاء.

ومنذ ذلك الحين تعرف قريش بأبناء الطلقاء.

ثنا يا أبي عبد الله.

ولم لا تكون كذلك؟ وقد نكأت القرحة واستأصلت الشاقة يهراقك دماء
ذرية رسول الله صلى الله عليه، ونجوم من آل عبد المطلب.
ولتردن على الله وشيكاً موردهم، ولتودن أنك عميت وبكمت، وأنك لم
تقل:

«فاستهلوا وأهلوا فرحاً».

ألهم خذ بحقنا، وانتقم لنا ممن ظلمنا، والله ما فريت إلا في جلدك، ولا
حزرت إلا في لحمك، وسترد على رسول الله صلى الله عليه برغمك،
وعترته ولحمته في حظيرة القدس، يوم يجمع الله شملهم مملومين من
الشعث، وهو قول الله تبارك وتعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في
سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾^(١).

وسيعلم من بوأك ومكّنك من رقاب المؤمنين - إذا كان الحكم الله،
والخصم محمد صلى الله عليه، وجوارحك شاهدة عليك، فبئس للظالمين
بدلاً أيكم شرّاً مكاناً وأضعف جنداً، مع أنني والله يا عدوّ الله، وابن عدوّه،
أستصغر قدرك، وأستعظم تقريعك، غير أن ألعيون عبري، والصدور حرّى،
وما يجزي ذلك أو يُغني عنّا وقد قتل الحسين عليه السلام، وحزب
الشیطان^(٢) يقربنا إلى حزب السفهاء^(٣)، ليعطوهم أموال الله على انتهاك
محارم الله، فهذه الأيدي تنطف من دمائها، وهذه الأفواه تتحلّب من
لحومنا، وتلك الجثث الزواكي، يعتامها غسلان الفلوات، فلئن اتخذتنا

١- آل عمران/٣: ١٦٩.

٢- عبيد الله بن زياد، وجيشه.

٣- يزيد، وأعوانه.

مغنياً لتتخذنك مغرمًا، حين لا تجد إلا ما قدّمت يداك.
تستصرخ بابن مرجانة، ويستصرخ بك، وتتعاوى وأتباعك عند الميزان،
وقد وجدت أفضل زاد زودك معاوية قتلك ذرّيّة محمدٍ صلّى الله عليه، فو
الله ما اتّقيت غير الله، ولا شكواي إلا إلى الله، فكذ كيدك، واسع سعيك،
وناصب جهدك، فو الله لا يُرحض عنك، عار ما أتيت إلينا أبداً، والحمد لله
الذي ختم بالسعادة والمغفرة لسادات شبّان الجنان، فأوجب لهم الجنّة.
أسأل الله أن يرفع لهم الدرجات وأن يوجب لهم المزيد من فضله، فإنّه وليّ
قديرٌ. (١)

وشيئاً فشيئاً اطلع أهل دمشق على حقيقة ما جرى في العراق، وعلموا أن الذي قتل
بأمر يزيد، وبأيدي عساكر الكوفة ليس مغامراً عاصياً، بل هو ابن بنت رسول الله،
وهؤلاء النسوة، والأطفال الذين جُلبوا إلى دمشق هم آل بيته، وهم آل من يحكم يزيد
عليهم، وعلى غيرهم من المسلمين باسمه.

تشاهد تقارير عن جميع الأحداث التي جرت في ذلك المجلس، واعتراضات بعض
الأشخاص على يزيد، وكلام الإمام علي بن الحسين في مسجد دمشق، في المتون
المتأخرة، وجميعها على الإجمال تُظهر حقيقة واحدة: سخط الناس لما جرى على آل
النبي.

بعد هذه الأحداث رأى يزيد أن ليس من المصلحة إبقاء الأسرى لديه، فعمل في

١- بلاغات النساء، صص ٢١ - ٢٣؛ جمهرة خطب العرب، ج ٢، صص ١٢٦-١٢٩؛ أعلام النساء،
ج ٢، صص ٩٥-٩٧.

البداية على تفقد أحوالهم، ومواساتهم، وإلقاء مسؤولية ما حدث في العراق في عنق عبيد الله بن زياد.

وعلى أية حال، فإن القافلة حصلت على إذن بالحركة، وتوجهت فعلاً نحو الحجاز، ولكن متى؟ وفي أي شهر؟ وأي عام؟ لا يُعلم ذلك على نحو الواضح.

هل ذهبت القافلة من دمشق إلى المدينة مباشرة؟ هل طوّلت القافلة مسيرها، وعرّجت على كربلاء لتجدد العهد بمزار الشهداء هناك؟

وهل وافق يزيد على هذا الأمر؟

وإذا كانت القافلة قد عادت إلى كربلاء فهل صحيح أنها واجهت جابر بن عبد الله الأنصاري الذي جاء هو الآخر للزيارة؟

وهل أقيم هناك مجلس عزاء من قبل المفجوعين بالشهداء؟

وكيف تحمل حاكم الكوفة أن تقام مثل تلك المراسم في مكان يبعد عدة فراسخ عن مركز حكمه وسلطانه؟

وعلى فرض إمكانية إقامة مثل هذا التجمع، والاجتماع ففي أي تاريخ كان؟

هل هو بعد أربعين يوماً من حادثة عاشوراء؟

من المسلم أنّ شيئاً كهذا بعيد تماماً عن الحقيقة، إن الذهاب العادي والطبيعي بوسائل تلك الأيام، وذلك الزمان من كربلاء إلى الكوفة، ومنها إلى دمشق، ثم رجوعه يستغرق أكثر من أربعين يوماً، فكيف بمسير قافلة كتلك، وضرورة انتظار استئذان ابن زياد من يزيد ووصول الجواب منه، إذا أخذنا جميع هذه المقدمات بعين الاعتبار والحسبان، فإنها تستغرق من شهرين إلى ثلاثة أشهر.

كما أن افتراض وصول القافلة إلى كربلاء في أربعين الإمام من السنة التالية ليس صحيحاً! لماذا؟

لأن بقاءهم في دمشق لمدة طويلة - على ما كتبنا - لم يكن في صالح يزيد. وعلى أية حال، فإن هالة من الغموض قد أحاطت بما حصل في آخر الأمر، ونتيجة للتلاعب الكثير في أسناد المصادر الأصلية من الدرجة الأولى، فيمكن القول أن الحقيقة لا يعلمها إلا الله، كما أن خاتمة المطاف في حياة السيدة زينب بطلة كربلاء ليس واضحاً كل الوضوح.

مُسَلِّمٌ أن زينب عليها السلام بعد رجوعها من الشام لم تعش لفترة طويلة. وطبقاً للمشهور، فإنها أجابت دعوة الحق في سنة ٦٢ هـ
أين؟

في المدينة؟ في دمشق؟ في القاهرة؟

أتى كل واحد من كتاب السيرة للاستدلال على صحة رأيه بدليل أو أدلة.

هناك مزار المعروف باسم «ستي زينب» [مخفف] "سيدتي زينب" في مدينة القاهرة، ويزوره زوار كثيرون جداً، ليلاً ونهاراً، ولا سيما في يوم وليلة الجمعة، شأنه كشأن المزار الآخر المسمى باسم «رأس الحسين» يحتمل أن يكون من العهد الفاطمي، وكان الفاطميين الذين سيطروا على القاهرة في القرن الرابع الهجري أرادوا ببناء هذين المزارين لفت أنظار العامة، وشدها إليهم. كما أن كثيراً من المؤرخين، ونقاد الحديث منكرون لأصالة مزار دمشق، والمؤلف قال ضمن مذكرات سفره إلى القاهرة، والتي نشرها في مجلة «يغما» قبل سنوات عديدة^(١): هذه المزارات من مصاديق البيوت التي يُذكر فيها اسم الله، ويرفع إجلالاً وتعظيماً، ويقوم محبو أهل البيت بكل إخلاص نية بإعلان محبتهم وولائهم للشخص الذي أقيم المزار باسمه، ويجددون فيه عهد المحبة والولاية، والميثاق مع النبي وأهل بيته.



أم كلثوم:

أم كلثوم الصغرى هي البنت الثانية لعلي أمير المؤمنين عليه السلام من فاطمة عليها السلام. وليس هناك أي اختلاف على ذلك بين المؤرخين، وأصحاب التذكرة.

الطبري عندما يعدد أبناء الإمام يكتب: زينب الكبرى، وأم كلثوم الكبرى^(١)، وحينما يذكر أبناءه عليها السلام من نسائه الأخريات غير فاطمة عليها السلام يقول: زينب الصغرى، وأم كلثوم الصغرى^(٢).

ويقول الشيخ المفيد: أبناء أمير المؤمنين بين ذكر وأنثى هم ستة وعشرون ابناً: الحسن، والحسين، وزينب الكبرى، وزينب الصغرى، التي تلقب بأم كلثوم، وأمهم فاطمة البتول...^(٣). والاختلاف الوحيد بينهما هو أنه هل «أم كلثوم» كنية لبنت علي عليه السلام الثانية أم أنه اسمها؟ ذكر أكثر المؤرخين أن اسمها أم كلثوم.

ولدت أم كلثوم بعد السنة الثامنة للهجرة، وفي السنة السابعة عشرة تزوجت عمر بن الخطاب، فلما قتل عمر تزوجت أولاً بعون، وبعد موته بأخيه محمد بن جعفر بن أبي طالب.

١- ج ٦، ص ٣٤٧.

٢- نفسه، صص ٣٤٧٢-٣٤٧٣.

٣- إرشاد، ج ١، ص ٣٥٥.

ذهب أكثر كتاب التذكرة إلى أن أم كلثوم عذفت عن الزواج بعد قتل محمد ^(١)، لكن ابن حزم ذكر أن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب تزوجها بعد أن طلق زينب عليها السلام.
عموم المؤرخين وكتاب التذكرة كتبوا أن لأم كلثوم من عمر ولدأ اسمه زيد. والوحيد الذي ذكر في مكان آخر ما يخالف هذا الأمر مع تصريحه بهذا الموضوع هو ابن حجر:
زيد بن عمر بن الخطاب أخو عبد الله، وأمهما أم كلثوم بنت جرول ^(٢) التي فرّق بينهما نزول الآية الكريمة: ﴿لَا تُمَسِّكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ﴾ ^(٣). ومن المسلم أن هذا الكلام خطأ؛ لأن:

أولاً: زيد هو ابن أم كلثوم بنت علي عليه السلام، كما ذكر هو نفسه، والآخرين.
وثانياً: أم عبد الله هي زينب بنت مطعون بن حبيب ^(٤) (والله أعلم).
ولا يعلم في أي سنة فارقت أم كلثوم الحياة.

ذكر أحمد بن أبي طاهر الطيفوري، المتوفى سنة ٢٨٠، صاحب كتاب بلاغات النساء رواية عن الإمام الصادق، وهو عن آبائه الطاهرين، أن أم كلثوم أشارت إلى الناس في سوق الكوفة أن اسكتوا، فلما سكتوا، خطبت بهم خطبة عظيمة البلاغة، وكان علي بن أبي طالب هو الذي يخطب ^(٥). وقد جاء بتلك الخطبة السيد عمر رضا كحالة في كتاب أعلام النساء ^(٦) نقلاً عن أحمد بن أبي طاهر [المذكور آنفاً]، ولكن هذه الرواية على هذا الشكل لا يمكن قبولها! لأن المؤرخين وكتاب التذكرة جميعاً ذكروا أن أم

١- ذكروا الحاليتين. راجع مقاتل الطالبين، ص ٢١؛ وقاموس الرجال، ص ٩٦، ج ٨.

٢- ابن سعد، ج ٤، ص ٥.

٣- الممتحنة / ٦٠: ٢٠.

٤- ابن سعد، ج ٤، ص ٥.

٥- بلاغات النساء.

٦- ج ٤، ص ٢٥٩.

كلثوم، وابنها زيداً، كليهما ماتا في المدينة في يوم واحد. وذكروا حول موت زيد: حصل قتال ذات ليلة بين بني جهم، فسارع زيد للعمل على إيقاف النزاع والقتال، فأصيب في الظلام بضربة خاطئة أودت بحياته. فقال فيه عبد الله بن عامر بن سعيد:

إِنَّ عَسِدياً لَيْسَ البَقِيعِ يُفَرِّجُوا عَن رَجُلِ ضَرِيعِ
مَقَابِلِ فِي الحِسابِ الرَفِيعِ أَدْرَكَهُ شَوْمُ بَنِي مَطِيعِ^(١)

فمات زيد، وأمه في وقت واحد مع بعضهما البعض، ولم يعرف الناس أيهما مات أولاً، ولهذا لم يورثوا أحدهما من الآخر.^(٢)

وذكر ابن سعد: مات زيد وأمه أم كلثوم في يوم واحد، وصلى عليهما عبد الله بن عمر. وفي رواية أخرى عن عمار بن أبي عمار مولى بني هاشم جاء^(٣) أن الذي صلى عليهما هو سعيد بن العاص الذي كان حينها أمير المدينة^(٤). وبالفعل كان سعيد بن العاص في السنوات التي بين ٤١ إلى ٥٦ حاكماً على المدينة.^(٥)

إذا قبلنا الرواية المذكورة سابقاً، واعتبرناها صحيحة، فإن موت أم كلثوم يجب أن يكون بعد رجوعها من الكوفة إلى المدينة، بين سنة ٤٢، وسنة ٥٦، ولما كان قد ذكر في رواية أخرى أن الحسن والحسين كانا خلف جنازتها، فيجب أن يكون موتها قبل سنة ٥٠ هجرية التي هي سنة شهادة الإمام الحسن عليه السلام، وبالتالي ينحصر بين سنة ٤٢، وسنة ٥٠ هجرية.

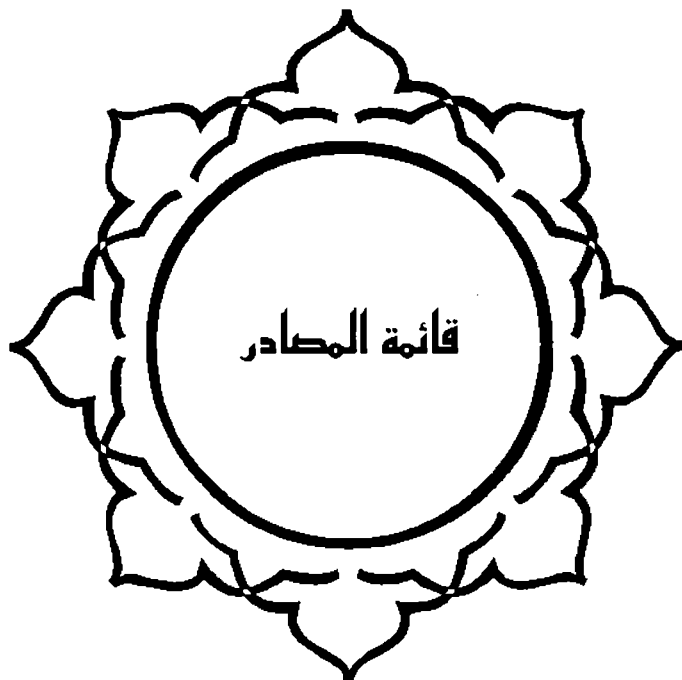
١- كان شؤم بني مطيع سبباً في تضرع رجل شامخ النسب بدمه.

٢- نسب قريش، صص ٣٥٢-٣٥٣؛ وراجع أيضاً: جمهرة أنساب العرب، ص ٣٨ و ١٥٨.

٣- الرواية التي جاء بها الشيخ الطوسي في كتابه الخلافة، ج ١، ص ٢٦٦ عن عمار بن ياسر، ذكره ابن سعد، وفي السند الذي لدى الشيخ الطوسي ذكر عمار بن ياسر.

٤- طبقات، ج ٨، ص ٣٤٠.

٥- معجم الأنساب، ج ١، ص ٣٥.



١. القرآن الكريم.
٢. الأخبار الموفقيات، الزبير بن البكار، د. سامي مكي، مكتبة العاني، بغداد ١٩٧٢م.
٣. الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، الشيخ المفيد، محمد بن محمد بن النعمان، انتشارات علميه اسلاميه، طهران.
٤. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، يوسف بن عبد الله المعروف بابن عبد البر، طبع دائرة المعارف النظامية. حيدر آباد، ١٣٣٦ هـ.
٥. الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني.
٦. أصول الكافي: محمد بن يعقوب الكليني، دار الكتب الاسلامية، طهران ١٣٧٤ هـق.
٧. الأعلام، خير الدين الزركلي، ط ٢.

٨. أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، عمر رضا الكحالة، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٣٧٩هـ.
٩. إعلام الورى بأعلام الهدى، الفضل بن الحسن الطبرسي، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٩٧٠م.
١٠. الأغاني، أبو الفرج الاصفهاني، دار الكتب المصرية، القاهرة.
١١. أقرب الموارد في فصح العربية والشوارد، سعيد الخوري.
١٢. الأمالي، محمد بن الحسن الطوسي، منشورات المكتبة الأهلية، مطبوع بالأوفست من قبل مكتبة الداوري، قم.
١٣. أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى المعروف بالبلاذري، محمد حميدالله، دار المعارف، ١٩٥٩م.
١٤. انقلاب بزرگ، ترجمة السيد جعفر شهیدی، مؤسسه مطبوعاتی علي اکبر علمی، ١٣٣٦هـ. ش.
١٥. بلاغات النساء، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر، مطبوع بالأوفست، مكتبة بصيرتي، قم.
١٦. بلاغات النساء، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر، طبع بيروت.
١٧. بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، السيد محمود شكري الآلوسي، مطبعة الرحمانية، القاهرة، ١٣٤٣هـ ق.
١٨. پس از پنجاه سال (قیام حسین (عليه السلام)) [الطبعة العربية تحت عنوان: نهضة الحسين]: د. سيد جعفر شهیدی، دفتر نشر فرهنگ اسلامي، طهران.
١٩. تاريخ الأدب العربي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة.
٢٠. تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان، مطبعة الهلال، القاهرة، ١٩٠٢م.
٢١. تاريخ الرسل والملوك، محمد بن جرير الطبري، اوفست عن طبعة بريل، ١٨٧٩م.

٢٢. تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، المكتبة المرتضوية، النجف، ١٣٥٨ هـ.
٢٣. تاريخ تحليلي اسلام، السيد جعفر شهيدي، مركز نشر دانشگاهي.
٢٤. التبيان، محمد بن حسن الطوسي، تصحيح أحمد بن حبيب العاملي، النجف.
٢٥. جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوة، مطبعة مصطفى البابي، القاهرة، ١٣٥٢ هـ.
٢٦. حبيب السير في أخبار أفراد البشر، غياث الدين خواند مير، تصحيح د. دبیر سیاقي، كتاب فروشى خيام، طهران، ١٣٣٣ هـ ش.
٢٧. حديقة الحقيقة وشریعة الطريقة، مجدود بن آدم سنائی، مدرس رضوي، دانشگاه تهران.
٢٨. حلیة الأولیاء وطبقات الأصفیاء: أبو نعیم الاصفهانی، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٥٢ هـ ق.
٢٩. دیوان ابن حسام الخوسفي، ط طهران الحجرية.
٣٠. دیوان ابن یمن الفریومدي، حسینعلی باستانی راد، کتابخانه سنائی، طهران.
٣١. دیوان الأثیر الأخصيکتي، رکن الدین همايون فرخ، ط زهره، ١٣٣٧ هـ ش.
٣٢. دیوان السيد الحميري، شاکر هادي شکر، مكتبة الحياة، بيروت.
٣٣. دیوان خواجه کرمانی، أحمد سهيلي خوانساری، کتابفروشى بارانی.
٣٤. دیوان دعبل، عبد الصاحب عمران الدجيلي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٢ م.
٣٥. دیوان القوامي الرازي، شرف الشعراء، بدر الدين، مير جلال محدث، ١٣٧٤ هـ ق.
٣٦. دیوان المتنبي، عبد الرحمن البرقوقي، المكتبة التجارية، القاهرة.
٣٧. دیوان مهيار الديلمي، دار الكتب المصرية، ١٣٤٤ هـ ق.
٣٨. دیوان ناصر خسرو، السيد نصر الله تقوى،
٣٩. دیوان ناصر خسرو، ط مينوى، د. محقق.
٤٠. روضة الواعظین: محمد بن قتال النيسابوري، محمد مهدي الخراسان، منشورات

- الرضي، قم.
٤١. سيرة النبي، المعروف بسيرة ابن هشام، عبد الملك بن هشام، المطبعة الحجازية، القاهرة.
٤٢. سنن، أحمد بن شعيب النسائي، دار الفكر، بيروت، ١٣٤٨هـ ق.
٤٣. سفينة البحار، عباس القمي، انتشارات سنائي.
٤٤. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تصحيح محمد أبو الفضل، إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٨٥ هـ.
٤٥. الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تصحيح أحمد محمد شاكر.
٤٦. الصحيح، محمد بن اسماعيل البخاري، محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة.
٤٧. الصواعق المحرقة، ابن حجر الهيثمي، تصحيح عبد الوهاب عبد اللطيف، مكتبة القاهرة، ١٣٨٥هـ ق.
٤٨. الطبقات، محمد بن سعد الواقدي، أوفست عن طبعة ليدن، ١٣٣٢ هـ.
٤٩. علل الشرائع، محمد بن علي بن بابويه، دار إحياء التراث العربي، النجف، ١٣٨٥هـ ق.
٥٠. العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٣٧٢ ق.
٥١. عيون الأخبار، ابن قتيبة، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٣٧٢ ق.
٥٢. فتوح البلدان، أحمد بن يحيى البلاذري، صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة، القاهرة.
٥٣. قاموس الرجال، محمد تقي الشوشتری، مركز نشر کتاب، تهران.
٥٤. الكامل في التاريخ، ابن الأثير، طبع دار صادر، ١٣٨٥ ق.
٥٥. كشف الغمة في معرفة الأئمة، علي بن عيسى الإربلي، مكتبة بني هاشم، تبريز، ١٣٨١ ق.

٥٦. كثر العمال في الأقوال والأفعال، علاء الدين المتقي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٩ هـ.
٥٧. لسان العرب، ابن منظور بن مكرم، دار الصادر، بيروت، ١٣٧٤ هـ ق.
٥٨. مشوي، مولانا جلال الدين الرومي.
٥٩. مجمع الأمثال، الميداني، أحمد بن محمد، طهران، ١٢٩٠ هـ ق.
٦٠. مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بن حسن الطبرسي، صيدا، لبنان، ١٣٣٣ هـ ق.
٦١. مسند، أحمد بن حنبل، أحمد محمد شاكر، دار المعارف.
٦٢. المعارف، ابن قتيبة، ثروت عكاشة، دار الكتب، ١٩٦٠ م.
٦٣. معجم الأدباء، ياقوت بن عبدالله الحموي، مكتبة القراءة والصحافة الأدبية، د. أحمد بن فريد الرفاعي، مصر، القاهرة.
٦٤. معجم أنساب العرب، ابن حزم الأندلسي، تحقيق عبد السلام هارون.
٦٥. المغازي، محمد بن عمر بن واقد، اكسفورد، ١٩٦٦ م.
٦٦. مقاتل الطالبين، أبو الفرج الاصفهاني، أحمد صقر، دار المعرفة، بيروت.
٦٧. مقتل الحسين، موفق بن أحمد الخوارزمي، مكتبة المفيد، قم، ١٣٦٧ هـ ق.
٦٨. الملل والنحل، محمد بن عبدالكريم الشهرستاني، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٣٦٨ هـ.
٦٩. مناقب آل أبي طالب، محمد بن علي بن شهر آشوب، مطبعة علمية قم.
٧٠. منتهى الآمال، عباس القمي، علميه اسلاميه، طهران، ١٣٢١ هـ ش.
٧١. نسب قريش، مصعب بن عبد الله الزبيري، دار المعارف، سلسلة ذخائر العرب.
٧٢. نهج البلاغة، مجموعة خطب أمير المؤمنين، تصحيح عبد العزيز سيد الأهل، مكتبة الأندلس، بيروت، ١٣٧٤ هـ ق.
٧٣. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أحمد بن محمد بن خلكان، محمد محي الدين

عبد الحميد، مكتبة النهضة، القاهرة.

٧٤. الهاشميات، الكهيت بن زياد الأسدي، تصحيح محمد بن محمود الرافعي، شركة التمدن الصناعية، القاهرة.

٧٥. الهفوات النادرة، غرس النعمة، محمد بن هلال الصابي، د. صالح أشرت، ١٣٨٧ هـ.

- كما أن الكتب المتخصصة التالية لم تكن بعيدة عن نظر المؤلف:
١. أحوال حضرت فاطمة (ع) (ناسخ التواريخ)، لسان الملك سپهر محمد تقي، كتابفروشي اسلامية، طهران، ١٣٥٤ هـ.ق.
 ٢. بحار الأنوار، المجلد الخاص بالسيدة الزهراء (ج ٤٣)، محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٤٠٣ هـ.ق.
 ٣. زندگانی حضرت فاطمة (ع)، (ترجمة بيت الأحزان)، السيد محمود موسوي زرندي، اسلامية، طهران، ١٣٣٦ هـ.ق.
 ٤. زندگانی صديقه كبرى (ع)، دستغيب، انتشارات كاوه.
 ٥. زندگى نامه خديجه كبرى و فاطمة زهرا (ع)، ترجمة د. علي شيخ الإسلامى.
 ٦. فاطمة (ع)، نصير الدين امير صادقي، حاج محمد علي علمي، طهران، ١٣٤٧ هـ.ش.
 ٧. فاطمة الزهراء أم أبيها (ع)، فاضل الحسيني الميلاني، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٣٩٨ هـ.ق.
 ٨. فاطمة الزهراء من المهد الى اللحد، السيد محمد كاظم القزويني، دار صادر، بيروت ١٣٩٧ هـ.ق.
 ٩. فاطمة الزهراء والفاطميون، عباس محمود العقاد، دار الكتب العربي، بيروت، ١٩٦٧ م.
 ١٠. فاطمة دختر محمد، السيد جعفر شهيدى، كتابفروشى حافظ، سرچشمه، ١٣٣٠ هـ.ش.
 ١١. فاطمة زهراء، الحاج السيد هاشم رسولي محلاتي، علميه اسلاميه، ١٣٥٧ هـ.ش.
 ١٢. فاطمة زهراء، ترجمه على اكبر صادقي، امير كبير، ١٣٦٠ هـ.ش.
 ١٣. فاطمة زهراء بانوى نمونه اسلام، ابراهيم امينى، دار التبليغ، قم.
 ١٤. فاطمة هي فاطمة، د. علي شريعتي، حسينية إرشاد، طهران.



- ١- خلاصة عن موضوع الكتاب، المتمسكون بالسنة، المتجددون، نتيجة مخالفة السنة، دراسة الأسناد والوثائق.
- ٢- صحراء شبه الجزيرة، الصحراوي وحياته، صراعه للبقاء، علاقة معاركه بالبنت، ظهور الإسلام، وتغير حياة الصحراوي، وصية النبي ﷺ بالبنات.
- ٣- خديجة ونسبها، أبوها، زواجها بمحمد بن عبدالله ﷺ، أبنائها من النبي، ولادة فاطمة، دراسة نقدية حول تاريخ ولادة بضعة النبي ﷺ.

٤- اسم بضعة النبي وألقابها، تربية الزهراء ﴿عَلَيْهَا السَّلَامُ﴾ الأولى، رياضتها في الصغر، موت خديجة وأبي طالب، مكانة فاطمة، وحرمتها في نظر النبي ﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾.

٥- الراغبون في الزواج من فاطمة ﴿عَلَيْهَا السَّلَامُ﴾، دراسة بعض أقوال المستشرقين، تنويه لقراء كتب المستشرقين حول الإسلام والشخصيات الإسلامية، طلب علي يد فاطمة ﴿عَلَيْهَا السَّلَامُ﴾، مهر بضعة النبي، جهاز بضعة النبي، خطبة العقد، وليمة العرس، ذهابها إلى بيت الزوجية، نقد ما كتبه ابن شهر آشوب.

٦- حياة الزهراء في بيت الزوجية، نقد حول حضور أسماء بنت عميس في حفلة العرس، قلق النبي لفراق فاطمة، انتقال علي وفاطمة إلى بيت حارثة بن النعمان، اليهود، عبدالله بن أبي والنبي ﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾، إيثار علي وفاطمة ﴿عَلَيْهَا السَّلَامُ﴾.

٩- ولادة الإمام الحسن ﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾، معركة أحد، خسائر المعركة.

١٠- ولادة الإمام الحسين، زهد ورياضة فاطمة ﴿عَلَيْهَا السَّلَامُ﴾ في بيت زوجها، لقاء النبي والزهراء في بيت علي ﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾، الزهراء سيدة نساء العالمين، سلمان وحجاب فاطمة، العقد وبيعه، حمد الله بدلاً عن الخادم، مدح النبي لفاطمة الزهراء.

١١- هل حصل بين الزوج وزوجته ما يعكر صفوهما؟ نقد أقوال المحدثين، قصة جويرية بنت أبي جهل، مسوّر بن مخزوم ونقد روايته.

- ١٣- عبادة بضعة النبي، تسيحاتها، أدعيته.
- ١٣- فذك في يد النبي، منحها للزهراء عليها السلام، نقض صلح الحديبية من قبل قريش، مجيء أبي سفيان إلى المدينة لتجديد المعاهدة، لقاءه مع بنت رسول الله.
- ١٤- فتح مكة، سنة الوفود، حجة الوداع، تعليم أحكام الحج، حادثة الغدير، نعي النبي نفسه، إخباره الزهراء عليها السلام أنها أول من يلحق به من أهل بيته، النبي في المسجد، آخر مواعظ النبي في المسجد، مرض النبي.
- ١٥- حجة الوداع، وصايا النبي، مرض النبي.
- ١٦- موت النبي، اعتراض عمر على خبر وفاة النبي، جواب أبي بكر، سقيفة بني ساعدة.
- ١٧- الهجوم على بيت النبي.
- ١٨- استيلاء الحكومة على فذك، حديث فاطمة مع أبي بكر، فذك في يد مروان، فذك وعمر بن عبد العزيز، إرجاع المأمون فذك لأبناء فاطمة.
- ١٩- مركز المتظلمين، الشكوى علناً في مكان عام، بنت النبي في المسجد، سند خطبة الزهراء عليها السلام، دراسة تحليلية لأسلوب خطبة فاطمة عليها السلام، نقد أقوال المعترضين على الخطبة، السجع عند العرب، السجع عند آل النبي وبني عبد مناف، نص الخطبة، مكانة المهاجرين والأنصار بعد النبي، معنى "قيلة".

٢٠- جواب أبي بكر لفاطمة (عليها السلام)، احتجاج فاطمة بنت رسول الله على الخليفة أبي بكر، لماذا التزم المسلمون الصمت؟ حديث فاطمة مع علي (عليه السلام)، دراسة تحليلية في الحديث الذي دار بينهما.

٢١- بنت رسول الله على فراش المرض، هل كانت فاطمة مريضة قبل وفاة النبي؟، غرور قريش، خطر قريش على الإسلام والمسلمين، المناقشة بين قريش وأهل المدينة.

٢٢- نساء الأنصار في بيت فاطمة بنت رسول الله، حديثها القياض بالدروس والعبر وهي على فراش الموت، ذمها للخارجين عن السنة، إخبارها عن مشاكل المستقبل.

٢٣- على مشارف الملكوت، ملاقة اثنين من صحابة رسول الله مع بنت رسول الله، وصية الزهراء لأسماء، إعداد التعش لفاطمة (عليها السلام).

٢٤- دفن الزهراء، لماذا دفنت الزهراء (عليها السلام) ليلاً؟ بث علي هموم قلبه على حافة قبر الزهراء.

٢٥- قبر بنت رسول الله، أين دفنت الزهراء؟ في البقيع؟ في روضة النبي؟ لماذا أخفي قبرها؟

٢٦- العرب القحطانيون والعدنانيون، تنافسهم وعداوتهم قبل الإسلام، مجيء القحطانيين إلى يثرب، مجيء البدو الصحراويين إلى مكة، عداة العدنانيين للإسلام،

ترحيب القحطانيين بالنبي، المؤاخاة الإسلامية بين القحطانيين والعدنانيين، علائم عداء هاتين الطائفتين بعد الإسلام، بدء المنافسة بين العدنانيين والقحطانيين بعد الإسلام، عداء قريش لآل هاشم، شعر الوليد بن عقبة في ذم بني هاشم، تسلط قريش على الدولة الإسلامية، التغييرات الأساسية في الإسلام، اشتباك القيسيين والكلبيين في مرج راهط، مثال عن العداء القحطاني العدناني في خلافة مروان، اشتعال الحروب القحطانية والعدنانية في المدن الإسلامية، ندم المسلمين على زوال السنة، تكون الأصوليين، الزهراء رمز المظلومية.

٢٧- المدح والذم في الشعر العربي، تأثير الإسلام في الشعر، الشعر العربي في ركاب آل محمد ﷺ، بنت رسول الله في شعر الشعراء العرب:

١. الكميت
٢. السيد اسماعيل الحميري
٣. دعبل الخزاعي
٤. سلامة الموصلي
٥. الصنوبري
٦. الناشء الصغير
٧. ابن حماد البصري
٨. مهيار الديلمي
٩. ابن العودي
١٠. علاء الدين الحلبي.

٢٨- مادحو بني هاشم، وحدود حريتهم في عهد الخلفاء، نشوء الشعر الفارسي، لماذا لا يوجد أثر عن مدح آل النبي في بدايات الشعر الفارسي؟ بداية المديح في الشعر الفارسي:

١. ناصر خسرو
٢. سنائي
٣. قوامي الرازي
٤. الأثير الأخسيكي
٥. خاجوي كرمانى
٦. ابن يمين فريومدي
٧. ابن حسام الخوسفي
٨. سنائي

٢٩- أبناء فاطمة ﴿عليها السلام﴾:

١. زينب: ولادتها، مراقبتها لعلي في العراق، رجوعها إلى المدينة، مراقبتها لأخيها في كربلاء، في الكوفة، خطبتها في سوق الكوفة، وفي قصر ابن زياد. آخر منازل القافلة، في قصر ابن معاوية، حديث زينب في مجلس يزيد، نهاية حياة زينب.

٢. أم كلثوم: ابنها، وفاتها.

* فهرس المصادر والمراجع.

* فهرس المحتويات.

